جامعة القدس
Al-Quds University

مجلة القدس للبحوث الأكاديمية

نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة القدس،
الجامعة العربية في القدس، فلسطين

المجلد ٢ العدد، ١ حزيران ٢٠٢٦

المجلة متاحة على الانترنت
https://aquja.alquds.edu/index.php/arts

جميع الحقوق محفوظة لجامعة القدس ٢٠٢٦

جامعة القدس
Al-Quds University

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة القدس - الجامعة العربية في القدس, فلسطين

المجلد٢, العدد١
حزيران ٢٠٢٦

المجلس الإستشاري للمجلة

عماد أبو كشك / رئيس

الأعضاء:

إبراهيم كيالي

إدريس تيتي

أسعد رمالوي

رفيق قرمان

سعيد زيداني

عامر مرعي

عماد البرغوثي

غسان سرحان

فدوى اللبدي

محمود الجعفري

مصطفى أبو صوي

معتصم حمدان

معتز القطب

موسى دويك

هاني عابدين

الطاقم المساعد

أحمد حديدون
المساعد الإداري

حسن أبو لطيفة
تطوير المواقع الإلكترونية

ساندي جعافرة
التصميم الجرافيكي

الإشراف العام

إلهام الخطيب
عميد البحث العلمي
جامعة القدس, فلسطين
ekateeb@staff.alquds.edu

رئيس التحرير

مها السمان
هندسة معمارية, تخطيط وسياسات حضرية
جامعة القدس, فلسطين
msamman@staff.alquds.edu

مجلس التحرير

من فلسطين

آمنة بدران
العلوم السياسية
جامعة القدس

إياد الحلاق
علم النفس
جامعة القدس

بعاد الخالص
العلوم التربوية - رياض أطفال
جامعة القدس

جمال غيظان
اللغة العربية
جامعة القدس

رشيد الجيوسي
عميد التعلم الرقمي
جامعة القدس

صلاح الهودلية
علم الآثار
جامعة القدس

عبد الناصر نور
الإقتصاد والعلوم الإجتماعية
جامعة النجاح

عفيف زيدان
العلوم التربوية
جامعة القدس

من خارج فلسطين

أميرة دسوقي علي
اللغات والترجمة
أكاديمية السادات للعلوم الإدارية، مصر

غادة عقيل
العلوم السياسية
جامعة ألبرتا، كندا

فتحي احميدة
العلوم التربوية
الجامعة الهاشمية، الاردن

كاميليا كوسومو
دراسات حضرية وعمارة
جامعة تيلرز، ماليزيا

كريستوفر هاركر
الجغرافية البشرية كلية لندن الجامعية،
المملكة المتحدة

المشاركون في هذا العدد

إبراهيم عبيد
جامعةالأقصى، غزة، فلسطين

إسراء أبو كشك
الجامعة العربية المفتوحة, الأردن

بثينة شموس
جامعة طرطوس, سورية

خالد عيّاش
جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

شاهر عامر سلامة
جامعة القدس، فلسطين

ضحى شاهر حريبات
جامعة القدس، فلسطين

عاشور سرقمة
جامعة غرداية، الجزائر

فيصل زكارنة
باحث مستقل

محمد محرم
جامعة ذمار، اليمن
جامعة بريمن، ألمانيا

منير السعيداني
باحث في علم الاجتماع, تونس
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات,
قطر

جميع قوائم الأسماء حسب الترتيب الأبجدي، مع حفظ الألقاب

المجلة الرسمية لجامعة القدس، والصادرة عن عمادة البحث العلمي.

مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية هي مجلة مستقلة ومحكمة وتعتمد سياسة الوصول المفتوح. تنشر أبحاث متعددة التخصصات وتغطي مجالات واسعة من العلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها الأدب والفلسفة والعلوم السياسية وعلم الاجتماع والدراسات الحضرية والعلوم التربوية. وتستقبل المجلة الأبحاث باللغتين العربية والإنجليزية.

للمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا الإلكتروني: https://aquja.alquds.edu/index.php/arts.

البريد الإلكتروني للمجلة: aqujor.info@alquds.edu.

جامعة القدس

تأسست جامعة القدس عام ١٩٧٧، وهي الجامعة العربية الوحيدة في مدينة القدس. غدت جامعة القدس كواحدة من كبرى الجامعات في المنطقة العربية، سواء من حيث تنوع برامجها، ومن حيث حجم جسمها الطلابي. يتوزع حرمها الجامعي في عدة مواقع في مدينة القدس ومحيطها: حرم البلدة القديمة، حرم الشيخ جراح، حرم بيت حنينا، والحرم الرئيس (في بلدة أبو ديس). إن جامعة القدس، الحرم الرئيس في أبو ديس، هي الجامعة الوحيدة في العالم التي يحيطها جدار الفصل العنصري.

توفر الجامعة فرصة للتعليم العالي والخدمات المجتمعية في منطقة القدس وفي البلدات والقرى ومخيمات اللاجئين المجاورة لها في الضفة الغربية. تحتوي الجامعة على خمسة عشر كلية أكاديمية موزعة على أربعة مواقع، وهي: كلية الآداب والعلوم والتكنولوجيا، والطب البشري، وطب الأسنان والصحة العامة، والحقوق والقرآن والدراسات الإسلامية، وكلية الدعوة وأصول الدين والقدس بارد، والعلوم التربوية والمهن الصحية، والصيدلة والهندسة، والأعمال والاقتصاد وكلية هند الحسيني للبنات. تستوعب هذه الكليات أكثر من ثلاثة عشر ألف طالبا وطالبة من منطقة القدس ومن مناطق بيت لحم والخليل وجنين وأريحا ونابلس ورام الله وطولكرم وقلقيلية. تقدم جامعة القدس بيئة تعليمية حيوية لطلابها وتخلق في الوقت ذاته نواة للإبداع وتبادل الأفكار، وحرية التعبير والابتكار في البحوث. تكمن رؤيتها في مواصلة تزويد الطلاب بأفضل أساليب التعليم الممكنة وترسيخ قيم المواطنة الملتزمة، والانفتاحعلى الأفكار الجديدة، وتحفيز التعاون البناء، واحترام ثقافات العالم. أنشأت جامعة القدس، في سعيها المستمر لتعزيز النموذج التعليمي وأساليب التعليم المتبعة عدة شراكات مع مؤسسات تعليمية أمريكية وأوروبية. يرتبط أكثر من ٣٠ مركزا ومعهدا بالجامعة، حيث يعمل بعضها في إنشاء البحوث المبتكرة وبعضها الآخر يعمل على تلبية الاحتياجات المجتمعية من خلال تقديم المساعدة لمجتمع القدس.

للمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقع الجامعة الإلكتروني: https://www.alquds.edu

- جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة القدس.
- المقالات المنشورة في مجلة القدس للبحوث الأكاديمية لا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير أو عن رأي جامعة القدس.

المحتويات

كلمة رئيس التحرير

مها السمان 2

مقالات باللغة العربية

مقال افتتاحي

الفيل والعُمْيَانُ الثّلاثة- عن المعرفة والتحيّزات النَّقِيضَةِ

منير السعيداني 4-8

مقالات بحثية

ما هي الإنسانيات الزرقاء (Blue Humanities)؟ نحو أفق معرفي جديد في دراسة الماء والسياسة والثقافة

محمد محرم 10-24

نظرية الردع في العلاقات الدولية: استراتيجية الردع الأمريكية في مواجهة التهديد الصيني بضم تايوان، (دراسة حالة)

إبراهيم عبيد 26-42

العمل الأثري في فلسطين منذ القرن التاسع عشر- إشكاليات الدوافع والمعايير العلمية

فيصل زكارنة 44-56

البنية السردية في القصة الترسلية؛ «العروس» و«البطل في الزنزانة» نموذجاً

بثينة شموس 58-66

الطرق المختلفة للتعامل مع المخطوط مجهول المؤلف: عينات من المخطوطات الأدبية واللغوية

عاشور سرقمة 68-74

تمثُّلات علاقة الآباء بالأبناء في الأمثال الشعبية الفلسطينية: دراسة سوسيولوجية

خالد عيّاش 76-82

دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة وفقا لنموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة

ضحى حريبات، شاهر سلامة 84-99

مقالات بحثية باللغة الإنجليزية

التنبؤ باتخاذ القرار لدى طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية من خلال التنافر المعرفي والكفاءة الذاتية المدركة وأنماط التفكير

إسراء أبو كشك 101-117

Contents

Editor-in-Chief Note
Maha Samman 2

Articles in Arabic

Opening Article

The Elephant and the Three Blind Men: On Knowledge and Contradictory Biases
Mounir Saidani 4-8

Research Articles

What are/ is the Blue Humanities? Towards a New Epistemic Horizon in the Study of Water, Politics, and Culture
Mohammed Muharram 10-24

The Theory of Deterrence in International Relations: The U.S. Deterrence Strategy in Confronting the Chinese Threat to Annex Taiwan (A Case Study)
Ibrahim Obeid 26-42

Archaeological Work in Palestine since the Nineteenth century Problems of Motives and Scientific Standards
Faisal Zakarneh 44-56

Narrative Structure in the Epistolary Story: «The Bride» and «The Hero in the Cell» as a Model
Buthaina Shemous 58-66

Different Approaches to Dealing with Anonymous Manuscripts: Samples from Literary and Linguistic Manuscripts
Ashour Sergma 68-74

Representations of the Parent–Child Relationship in Palestinian Folk Proverbs: A Sociological Study
Khaled Ayyash 76-82

The Role of Palestinian Universities in Developing Professional Interpersonal Skills according to Stephen Covey's Model in the Knowledge Era
Duha Hreibat, Shaher Salama 84-99

Research Articles in English

Predicting Decision-Making among Graduate Students in Jordanian Universities through Cognitive Dissonance, Perceived Self-Efficacy, and Thinking Styles
Esra'a Abu Al-Keshek 101-117

كلمة رئيس التحرير

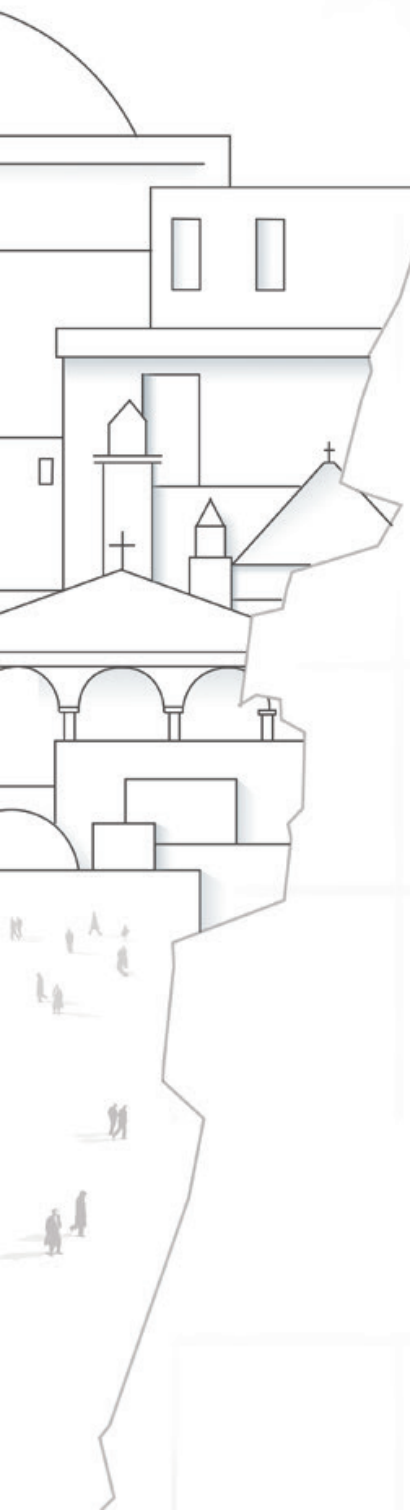

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرّني أن أقدّم للقرّاء والباحثين الكرام هذا العدد (المجلّد الثّاني، العدد الأوّل) من مجلّة القدس للبحوث الأكاديميّة – نسخة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. يأتي هذا العدد في خضمّ لحظة تتكاثف فيها التحدّيات السياسيّة والإنسانيّة، وتتسارع وتيرة الأزمات والحروب وحالات الطّوارئ الّتي تلقي بظلالها على المجتمعات، وتعيد تشكيل أسئلة المعرفة والبحث العلميّ وأولويّاتهما. ومن هنا، نستذكر بكلّ احترام واعتزاز الشّهداء الّذين قدّموا أرواحهم دفاعًا عن الأرض والكرامة، لتبقى تضحياتهم حاضرة في وجداننا، ولتبقى فلسطين حاضرة بوصفها قضيّة إنسانيّة ومعرفيّة تتجاوز حدود المكان والزمان.

أبدأ كلمتي بتقديم جزيل الشّكر والتّقدير للأستاذ الدّكتور عماد أبو كشك، رئيس الجامعة, والأستاذ الدكتور حنّا عبد النور، الرئيس السابق للجامعة, والدّكتورة إلهام الخطيب، عميد البحث العلميّ، تقديرًا لدعمهما المتواصل للمسيرة البحثيّة والأكاديميّة. كما أتوجّه بالشّكر مِن كلّ مَن أسهم في إخراج هذا العدد، وبالأخصّ أعضاء هيئة التّحرير، والهيئة الاستشاريّة، والمحكّمين، والباحثين، ومِن كلّ مَن أسهم تقنيًّا في إصداره. لقد كان لجهودهم المخلصة دور أساسيّ في الحفاظ على المستوى الأكاديميّ الرّصين للمجلّة، وبالأخصّ المهندسة ساندي جعافرة والأستاذ أحمد حديدون والأستاذ حسن أبو لطيفة.

في هذا المقام، نستذكر بكلّ حزن وأسى فقيد الأسرة الأكاديميّة الدّكتور رفيق كارامان، رئيس تحرير المجلّة – نسخة العلوم الطبيعيّة، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنّاته. لقد شكّل رحيله خسارة كبيرة وترك فراغًا عميقًا على المستويين الإنسانيّ والأكاديميّ، لما عرف عنه من إخلاص وعطاء وجهود صادقة في خدمة البحث العلميّ والارتقاء بالمجلّة.

نحرص في مجلة القدس على السّير بخطى ثابتة نحو إنتاج محتوى أكاديميّ ذي قيمة وفائدة حقيقيّة، ويسهم في بناء حيّز معرفيّ متجدّد قادر على مواكبة التحوّلات المتسارعة الّتي يشهدها العالم، والتي تجعل من البحث العلميّ ضرورة لفهم الواقع وتحليله واستشراف مساراته. ونحاول في كلّ عدد أن نقدّم دراسات بحثيّة متنوّعة من حيث التخصّصات والبعد الجغرافيّ والمؤسّساتيّ، إذ يضمّ هذا العدد مشاركات لباحثين وباحثات من جامعات ومؤسّسات أكاديميّة من فلسطين والأردنّ وسوريا والجزائر وتونس وقطر واليمن وألمانيا، بما يؤكّد أهميّة الانفتاح العلميّ وتبادل الخبرات والمعارف بين السّياقات المختلفة.

نفتتح هذا العدد بمقال للدّكتور منير سعيداني، وهو من الأسماء البارزة في العلوم الاجتماعيّة، ويتناول قضايا إنتاج المعرفة وفتح المدارك للتّحليل النقديّ، بلغة فكريّة رصينة ومفاهيم غنيّة تعكس إلمامًا واسعًا بإشكاليّات إنتاج المعرفة العلميّة والإنسانيّة في المنطقة العربيّة. ويكتسب المقال أهميّة خاصّة من خلال طرحه لفلسطين بوصفها مختبرًا إبستمولوجيًّا يتجاوز اللاتاريخيّة، بما يفتح آفاقًا جديدة للتّفكير النقديّ وإعادة النّظر في أدوات التّحليل والمعرفة.

كما يضمّ العدد مجموعة من الدّراسات المحكّمة التي تناولت موضوعات متعدّدة ترتبط بواقع المجتمعات العربيّة والإنسانيّة، وناقشت إشكاليّات علميّة معاصرة من زوايا تحليليّة متنوّعة. ويستهلّ العدد بدراسة عن مفهوم الإنسانيّات الزرقاء (Blue Humanities)، والتي تطرح مدخلاً معرفيًّا حديثًا في حقل الإنسانيّات البيئيّة، وتسهم في توسيع أفق التّفكير النّقدي من خلال تجاوز مركزيّة اليابسة والدّولة القوميّة نحو مقاربات تستكشف الماء بوصفه فضاءً ثقافيًّا وسياسيًّا ومعرفيًّا فاعلاً، بما يفتح آفاقًا واعدة لتطبيق هذا المنظور في السّياقات العربيّة المعاصرة. وتأتي الدّراسة الثانية لتناقش نظريّة الرّدع في العلاقات الدوليّة، وبالأخصّ العلاقات الأمريكيّة الصّينيّة. أما الدّراسة الثالثة فتناقش إشكاليّات الدّوافع والمعايير العلميّة للعمل الأثريّ في فلسطين منذ القرن التّاسع عشر، ويليها دراسة في الأدب العربيّ تتّخذ من قصص غسّان كنفاني نماذج لتحليل البنية السّرديّة في القصّة الترسليّة من خلال قصة «العروس» وقصّة «البطل في الزنزانة». وفي العدد دراسات بحثيّة أخرى تناقش إحداها الطرق المختلفة للتّعامل مع المخطوط مجهول المؤلّف، وأخرى عن الأمثال الشعبيّة وتمثّلات علاقة الآباء بالأبناء فيها، إلى جانب دراسة من التنميّة البشريّة عن دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة. أما المقال المنشور باللّغة الإنجليزيّة فيتحدّث عن اتخاذ القرار لدى طلبة الدّراسات العليا في الجامعات الأردنّيّة وعلاقته بالإدراك الذاتيّ وأنماط التّفكير.

نأمل أن يسهم هذا العدد في إثراء المكتبة العلميّة، وأن يشكّل إضافة نوعيّة للباحثين والدّارسين في مجالات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تسهم في تعزيز الحوار العلميّ وفتح آفاق جديدة للبحث والدّراسة، وإثراء المعرفة الأكاديميّة. ونعتذر لمن لم نتمكّن من نشر أعمالهم في هذا العدد، ونأمل بمشاركات أخرى للباحثين والباحثات في الأعداد القادمة.

وفي الختام، نحمد الله سبحانه وتعالى ونسأله أن يجعل ما تعلّمناه حجّة لنا لا علينا، وأن يحفظ أرضنا فلسطين، ويثبّت أهلها، ويرفع عنها البلاء، ويجعلها دائمًا أرض عزّ ورباط، وأن يكتب لنا ولكم الخير فيما هو آت بإذنه تعالى.

د. مها السمان
رئيس التحرير

مقال افتتاحي

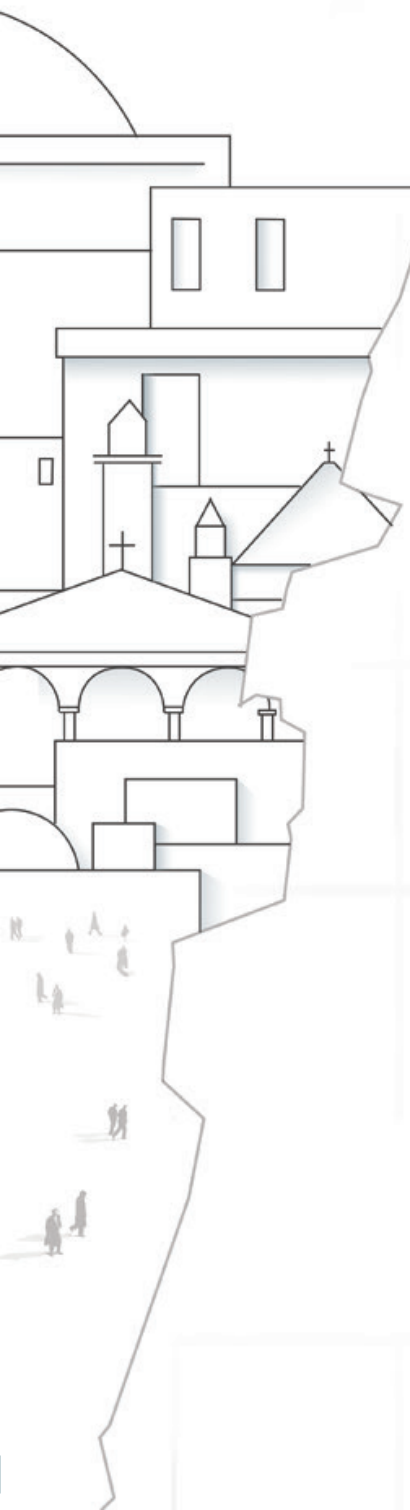

السعيداني، منير، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 8-4، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/ecge3505

الفيل والعُمْيَانُ الثّلاثة
عن المعرفة والتحيّزات النَّقِيضَةِ

منير السعيداني

الملخص

يعرض المقال آليات إنتاج المعرفة في المنطقة العربية، مستعرضاً مسارات تشكل التأسيسين الأول والثاني للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية، والموجات الثلاث للنقدية العربية (الإسلامية). يركز المقال على الوضعية، والأحادية التخصصية، واللاتاريخية وما بنته من مركزيات إبستيمية، مستخدماً أمثولة «الفيل والعميان الثلاثة» لتوضيح مدى مناقضة هذه التحيزات للمعرفة، ومستشرفا آفاق تجاوزها في اتجاه انتقال فعلي إلى بارادايم نقدي جديد. وضمن أمثلة متعددة يستند إليها، يبرز المقال أهمية الحالتين الخلدونية والفلسطينية ضمن المختبر الإبستيمولوجي الحي الذي يشتغل على نقض استعمارية المعرفة الإنسانية والاجتماعية العربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. النقدية العربية. المركزية الإبستيمية. فلسطين مختبرا إبستيمولوجيا.

The Elephant and the Three Blind Men: On Knowledge and Contradictory Biases

Mounir Saidani

ABSTRACT

The article presents the mechanisms of knowledge production in the Arab region, reviewing the formation pathways of the first and second foundations of the Arab humanities and social academia, as well as the three waves of Arab (Islamic) criticism. It focuses on positivism, mono-disciplinarity, and ahistoricism, along with the epistemic centricities they have constructed. It employs the parable of 'the elephant and the three blind men' to illustrate how these biases contradict knowledge, while envisioning the prospects of overcoming them toward an actual transition to a new critical paradigm. Among various examples it relies upon, the article highlights the significance of the Khaldunian and Palestinian cases within the living epistemological laboratory that aims to elaborate a decolonial antithesis of contemporary Arab humanities and social knowledge .

Keywords: Arab Humanities and Social Academia, Arab Criticism, Epistemic Centricity, Palestine as an Epistemological Laboratory.

الأستاذ الدكتور منير السعيداني، باحث في علم الاجتماع- تونس، رئيس تحرير عمران للعلوم الاجتماعية- المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
للتواصل: mounir.saidani@dohainstitute.org.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).

Professor Mounir Saidani, Researcher in Sociology, Tunis; Editor-in-Chief of Omran Journal for Social Sciences, The Arab Center for Research and Policy Studies.
For correspondence: mounir.saidani@dohainstitute.org.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

مقدمة

لا يمكن لا لناب الفيل الصّقيل، ولا لجلد سيقانه الخشنة، ولا لأذنيه النّاعمتين، كلّ بمفرده، أن يعطي صورة شاملة عمّا هو الفيل في الحقيقة. ذلك هو المعنى الذي تدلّ عليه حكاية «الفيل والعُميان الثلاثة» ذات الأصل الجِكْمِيّ الهندي، والتي تُستعمل لبيان أن إدراكنا الجزئي للأشياء لا يتمثّلها كاملة ولا يستغرق كل حقيقتها. وليس الأكاديميون بالمعفيين من مثل هذه التحيّزات، ذلك أنّهم، من مناظير علم اجتماع المعرفة وتاريخها وسياقاتها السياسية وبيئاتها الأنتروبولوجية، في قلب النزاع الاجتماعي، بذواتهم، وبِنِتَاجَاتهم التي يتدخَّلون بها في الجَدَل العُمُومِيّ. ولذلك، يمكن لأمثولة الفيل والعُميان الثلاثة أن تكون استعارة مُنَاسِبَة لمناقشة حيثيّات إنتاج المعرفة العلميّة الإنسانية والاجتماعية، ومقتضاه أن يقف الأكاديميون والأكاديميّات على ضفّتين متقابلتين يسود في كل ضفة منهما تمثّل للعالم المعاصر نقيض للثّاني. ولئن لم تكن تلك الحيثيات مُستحدَثة، فإنّها تمرّ، راهنا، بمنعطف جديد، حادٍّ وعميقٍ، ظلّت مُقدّماته تتراكم وتتبادل التأثير والتأثر على امتداد عقود، وعلى الأخص منذ منعرج استتباب العولمة، أواخر ثمانينيات القرن العشرين وبداية تسعيناته، إذ تزايد وضوح ما يسمّيه سوبراهمانيام (Subrahmanyam، 2022) «التّرابط ما بين التّواريخ» المحلّي منها والوطنيّ والإقليميّ والدّوليّ. ولكن، لا يسمح المجال المتاح للمناقشة هنا إلا بتغطية ما يجري في منطقتنا العربية، وبالكثير من التعميم، بحيث يرد على صيغة خطاطة. وفي هذه المناقشة يمثّلُ العميانَ الوضعيّونُ، وأُحاديّو التخصّص، والمنفصلون عن تاريخية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة الإسلاميّة بمكوّناتها الكلاسيكيّة والحديثة والمعاصرة.

سيادة التحيّز الوضعي وآفاق تجاوزه

خلال أواسط القرن العشرين كان التأسيس الأوّل للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. وضمن جدل المجال والمعرفة والسلطة تحت الأنظمة ما بعد الاستعمارية، كان أساس ذلك البناء وضعيا. فقد تمّ من خلال الاندراج في مركزيات مترابطة هي أساسا المركزيّة الاستعماريّة (هيمنة الزّمن الاستعماريّ في صياغة ‹التاريخ العربي› الحديث)، والمركزية الأوروبية (هيمنة إبستيميا الحداثة الأوروبية) (زريق، ٢٠٢٠)، ومركزية السّلطة-الدّولة (مأخوذتين على أنّهما الفاعلان الاجتماعيّان الأوحدان في التّغيير الاجتماعي، تقريبا)، والمركزيّة الحَضَريّة (هيمنة ‹المدينة› وإشكاليّاتها في المباحث)، والمركزيّة الذّكوريّة (هيمنة فعل الذّكور في التّاريخ والمجتمع وفي صناعة المعرفة بهما). وخلال ربع القرن الأخير، تغيّر المشهد المؤسّسي الأكاديميّ الإنسانيّ والاجتماعيّ العربيّ، بتعدّد المراكز البحثيّة وتكاثر الكلّيات وتزايد المجلّات المتخصّصة وإنشاء منابر للنّقاش والتّداول وظهور أقطاب معرفيّة جديدة كما في الخليج، وبناء مؤسّسات جامعة لتنظيم الاشتغال بالمعرفة وتحفيزه وإحكام تشبيكه مثل المجلس العربيّ للعلوم الاجتماعيّة. وقد مثّلت كل هذه العوامل متضافرة سمات ما أُسَمّيه التّأسيس الثّاني للأكاديميا الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة.

مكّن هذا التأسيس من رسم آفاق تجاوز التحيّز الوضعيّ، وإطلاق ديناميّة انتقال إلى بارادايم نقديّ جديد. ولا يتعلّق الأمر بما انتشرت تسميته وساد توصيفه منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين على أنّه «أزمة العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» (حجازي وآخرون، ١٩٨٦) والاقتصار فيه على وصف وضعها المتأزم، وعرض تفاصيله، وإعلان عجزها عن إنتاج «نظريّاتها الخاصة» و«فهمها المميز لمجتمعاتها»، بل بنقده نقدا إبستيمولوجيا ظل آخذا بالتعمّق والتّشَعُّبِ والاتّساع بحيث يشمل بأثره مختلف المركزيّات المذكورة. ذلك ما أسمّيه ‹النَقْدِيَّة العربية الجديدة› والتي تمثل الموجة الثالثة من النقدية العربية (الإسلامية) بعد أن كانت أولاها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وثانيتها خلال التأسيس الأول للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. في هذا المضمار، أخذ تجاوز التحيّز الوضعي بالتّبَلْوُر على ثلاثة أسس. أمّا أوّلُها فإبستيمولوجي وكان في قلبه النقد العميق لميراث السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا الاستعماريّتين (الفرنسية في المغرب الكبير، والبريطانية فالأمريكية في المشرق والخليج)، ولعدم الانتقال إلى مواقع نقدية تجاه الإحصاء الرّسميّ وتكميم الظواهر، ولوثوقيّة الوثيقة المُحَقَّقَةِ والمُفَهْرَسَة في خزائن «الأرشيفات الوطنيّة الرّسمية»، ولإهمال التركيز، لدى تحليل المجتمع، على تاريخيته، وديناميّته، وتشعّب علاقات القوّة والهيمنة فيه، وللتغاضي عن وقوع كل ذلك تحت أثر تفاوتات اجتماعيّة مختلفة، منها الطّبقيّ، والجيليّ، والمجاليّ-المناطقيّ، والجندريّ. وأمّا ثاني أسس تجاوز التحيّز الوضعيّ فتمثل في العمل على بلورة معرفةٍ أدقّ وأعمق وأشمل وأكثر تفصيلا بأوضاع العلوم الاجتماعية في العالم العربي وأقل انحباسا في أطرها القُطرية والجهوية القديمة بفضل إصدارات من قبيل تقارير المرصد العربي للعلوم الاجتماعية (بامية، ٢٠١٥؛ حمودي، ٢٠١٨؛ دلّال، ٢٠٢٣). وكانت تلك هي خلفية تحرّر المعرفة الاجتماعية العربيّة من أَسْر أسوار الجامعات وضيق قاعات مراكز البحث الأكاديمي وتعليب أروقة الثينك تانك (Think Tank)، وانفتاحها أكثر فأكثر على الإنسانيات والفنون (الصدّة، ٢٠٢٤). وأمّا ثالث أسس تجاوز التحيز الوضعي فمرتبط بالبنية التحتيّة المعرفية، حيث تمّ الانفتاح على مصادر المعرفة غير التقليدية، بما شمل الإثنوغرافيا النقدية، ومنصّات النشر وصِيَغِه و«لغاته» الجديدة، وأصواتها النسائية والنّسوية، والفقيرة، والرّيفيّة والقَرَوِيّة والبَدَوية، والشّابة، وذلك على نَحْوٍ مكّن تلك المعرفة من أن تتّخذ لها مواقع أكثر قربا من الجدل العمومي بعد الثورات -الانتفاضات العربية. وبناء على هذه الأسس، فتحت المعرفة الإنسانية والاجتماعية العربية آفاق منعطفاتٍ سرديّة (في الأنتروبولوجيا) وأنطولوجية (في علم الاجتماع، والدراسات الحضارية، ونقد الاستشراق) وأنتروبولوجية (في التاريخ) واجتماعية- تاريخية (في علم السياسة) وموقعية (معرفة المعيش، معرفة اليومي، المعرفة من تحت، التقاطعية). ولكن القطيعة مع التحيّز الوضعي، وديناميّة الانتقال إلى بارادايم نقدي جديد متفاوتتان ومتباينتان وغير متكافئتين، في وجوهٍ خمسة. أولها أنّ مفهمتهما لا تزال قَيْدَ المُناقشة، وفيها تباينات تمتدّ من «الأسلمة» (حنفي، ٢٠١٦)، إلى «التوطين»، وإلى «الأهْلَنَةِ» (هنية، ٢٠٢٦)، و«التَّبْيِئَةِ»، و«إعادة الصّياغة» وصولا إلى «نزع استعمار العقل» و«فكفكته» و«الديكولونيالية» و «نقض استعمارية المعرفة» (السعيداني، ٢٠٢٦). وثاني الوجوه هو الوقوع تحت أثر العوائق المؤسّسية والسّياسية، بما يمنعُ ظهور «بارادايمات عربيّة» مستقلّة (دلّال، ٢٠٢٣). وثالثها عُسر خلق «فضاء بحثي عربي» ذي بنية تحتيّة صلبة، متكاملة المكوّنات القطرية والجهوية والشاملة لكامل المنطقة، تَسْتَدْمِجُ باحثي الشتات الأكاديمي العربي العامل خارجها، وتمكّن من تدفّق الأفكار بعيداً عن الرّقابة، وتَصُونُ المعرفة تجاه الاعتداءات على الحريّات الأكاديمية، وتقيها مخاطر التلف والإتلاف في خضم الأزمات والحروب العداوية والإبادات الإبستيمية (صون المعرفة، ٢٠٢٦).

ورابعها علاقة هذا التحوّل في إنتاج المعرفة الاجتماعية النقدية الجديدة بتحقيق الانتقال الجيلي فيه. أما خامس الوجوه، فهو تبيان خصوصية القطيعة والدينامية العَرَبِيَّتَيْنِ كليهما ضمن القطائع والديناميات الرّديفة-الشبيهة في كل من أفريقيا، وأمريكا الجنوبية وأرجاء آسيا، وفي مراكز المعرفة النقدية الجديدة في أوروبا وشمال أمريكا.

سيادة الأُحَادِيَّة التَّخَصُّصِيَّةُ وآفاق تجاوزها

ليس المقصود هنا اشتغال الأكاديميين بتخصّص معرفيّ واحد، بل الاشتغال به بعَزْلِهِ عن غيره. وقد كان التحيّز الوضعي السائد في الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية زَمَنَ تأسيسها الأوّل، يحرص على تفرّد كلّ اختصاص بموضوعه، وحماية معالمه، وتسييج حدوده، وفَصْلِه عمّا عداه. كان عزل التخصصات عن بعضها البعض يُقَدَّمُ على أنّه حرص على العلميّة وعلى احترام قواعد البحث كما تعلّمها المدرّسون الجامعيّون والباحثون العرب من معلّميهم المباشرين، الأوروبيين والأمريكيين. كما كان يُقدّم على أنّه طريق الباحثين المثلى إلى نحت مساراتهم الخاصّة حتّى يصيروا متخصّصين في مسائل محدّدة ومن ثمّ في تخصّصات علميّة معيّنة، بأمل ريادتها. وكثيرا ما تُرجم ذلك بإعادة إنتاج خصومات تخصّصية موروثة على الأغلب من أوروبا كما هو حال الخصومة بين ما يُسمّى على العموم «علمَ الاجتماع ذا التقليد الفرنسي» الّذي يقدّم غالبًا على أنّه وضعي، وما يسمّى «علمَ الاجتماع ذا التقليد الألماني» الذي يقدّم على الأغلب على أنّه غير وضعي، وخصومات التنظير في المناهج غير المبنيّة بالضرورة على ممارسات بحثيّة فعليّة، والخصومة بين علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، أو بين علم الاجتماع والتاريخ، مُضافة إليها خصومات المنتِجين بحوثَهم بالفرنسية من جهة وبالإنجليزية من جهة ثانية وبالعربية من جهة ثالثة،... إلخ.

وضمن التأسيس الثاني للأكاديما الإنسانية والاجتماعية العربية، وبإطلاقه النّقدية الجديدة، ارتسمت آفاق تجاوز الأُحاديّة التخصّصيّة، على أساس قراءة الكيفيّات التي تمّ بها بناء المعرفة الأكاديمية العربية الإنسانية والاجتماعية، في تأسيسيها الأول والثاني، تاريخيًّا وسوسيولوجيًّا وأنتروبولوجيًّا، وبما شمل اقتصاد المعرفة، وسياسات إنتاجها واستراتيجياته وحَوْكَمَته. وقد تبيّن (تقارير المجلس العربي للعلوم الاجتماعية) أنه لا يوجد منوالٌ واحدٌ يمكن النسج عليه لتجاوز أُحادية التخصّص، وليست الطريق إليه وَاحِدَةً مُنَمَّطَةً، إذ تتوزّع آفاقه على ثلاثة أبعاد.

أمّا أوّلها فمنهجي، ويتمثل في تَبَنِّ مُتزايد الرّسوخ للتعدّدية المنهجية حيث يدمج الباحثون في علم الاجتماع مثلا، الإثنوغرافيا مع تحليل المضمون والخطاب، والبحث التاريخي لإنتاج سوسيولوجيا تاريخية ذات أساس أنتروبولوجي. ونلاحظ ذلك في السوسيولوجيا التاريخية للمجتمع العراقي (فالح عبد الجبار) أو المغربي أو الخليجي. في مثل هذه السوسيولوجيا يُعمَّقُ تحليل بُنى الدولة والقبيلة والمؤسّسات الدينية والممارسات الاقتصادية، وتُتَتَبَّعُ سيرورات التشكّل التاريخي للهويّات الطائفيّة (أحمد بيضون، لبنان). ويشمل هذا البعد بلورة نقدٍ صارمٍ لمنهجيّات الكتابة العلميّة الاجتماعيّة كما في مثال التّاريخ (كوثراني) بحيث تتوسّع العودة إلى أواخر تاريخ المجتمعات العربيّة «الوسيط» وبدايات تاريخها «الحديث»، بمُرَاعَاةِ ترابط مستوياتها (الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة)، ويُضمّن تجاوز «التّاريخ السّردي»، والنّفاذ إلى تغيّر بُنى المجتمع العميقة ذات الرّسوخ الأنتروبولوجيّ طويل الأمد. وعلى الرّغم من تعدّد مظاهر عدم الانضباط لمقتضيات البحث الكيفيّ المطلوبة، يمثّل اعتماد مَنَاهِجِه مُعطى بارزا ضمن آفاق تجاوز أُحاديّة التخصّص.

وأما ثاني هذه الأبعاد فنظريّ-مفهوميّ، إذ وضعت التحوّلات الاجتماعيّة التي مثّلت سياقا تاريخيّا احتضن التّأسيس الثّاني للأكاديميا الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة، على بساط الدّرس ضرورة إعادة التّفكير في البارادايمات التي لم تعد قادرة على تفسير الدّيناميات الجديدة. وقد ارتبط أحد وجوه هذا الجهد بالعمل على تفكيك المعرفة الاستعماريّة حول القبائل والمجتمعات المحلّية، وبالاشتغال على كيفيّة صياغة الصُّوَر النّمطيّة عن المجتمع من خلال بناء «المسافة النقديّة» مع موضوع البحث (حسن رشيق). ليست هذه المسافة مسألة منهجيّة بل نظرية لأنّها تفترض أن توضَعُ في أساس البحث مقولاتٌ من قبيل التغير الاجتماعي، والتاريخيّة، وكلّية الظّواهر، ...إلخ. ومن متطلّبات ذلك، تأسيس العمل على فهم الحركات الاجتماعية المعاصرة، مثلا، بوصفها من محرّكات دينامية التغير الاجتماعي بالجمع بين «التَّذْوِيتِ» (رُؤى الفاعلين الذّاتية الخاصّة لعوالمهم) و«المَوْضَعَةِ» (إدراج هذه الرؤى في سياق تاريخيّ واجتماعيّ موضوعيّ) (السعيداني، ٢٠٢٠). إن إعادة صياغة العلاقة بين ما هو ذَاتِيٌّ- مُذَوَّتٌ وما هو مَوْضُوعِيٌّ- مُمَوْضَعٌ تستوجب اشتغالا نقديا على المفاهيم ومنها ما يتطّلب تبيئة (المجتمع المدني، العلمانية، العقلانية، الدّولة، البيروقراطية، السّلطة، الدّيمقراطية، الشّعبويّة... إلخ)، ومنها ما يتطّلب ابتداعا (القبيلة، الطّقس، الهيمنة، الاجتماع الإنساني، الثقافة الشعبية، التّحديث (النّفطِيّ مثلا)، التّنمية... إلخ).

وأما ثالث الأبعاد، فيتمثل في تركيز دينامية إطلاق النقديّة الجديدة على تنظير مُعَقْلَنٍ لتنافذ التخصّصات كما في الاشتغال على التاريخ المديد للمجتمع في بناه العميقة (الإيكولوجية، الأنتروبولوجية، الاقتصادية، الثقافية (الدينية وغير الدينية)، أو بوصفه تاريخاً جديداً، وبالتركيز على اليومي والمعيش (عفيفي). وييسّر مثل هذا التنافذ إحداث قطيعة مع التعاطي مع قوالب التّفسير التاريخي الجاهزة (السّردي، الحَدَثي، الاستعماريّ، الاستشراقيّ، الاقتصادوي، السّياسَوِي (في معنييه القومي والوطني)، التّبسيطي، الاختزالي،...). ويمكن، على الإجمال، معاينة آفاق تَجَاوُزِ الأُحَادِيَّة التَّخصّصية في إعادات التعريف المُتَزَايِدَة التي تشهدها العلوم الإنسانية والاجتماعية العربية، وبما يشمل العُدَّة المفهومية، والأدوات النظرية، والأساليب التحليلية، والمقاربات المنهجية وصولا إلى «إعادة تعريف ميدان البحث ذاته». ذلك أن من أمثلة نَوَاتِج هذه الدّيناميّة الجديدة من منظور تنافذ الاختصاصات، تعاظم التوجّه نحو الاشتغال على أنواع عدّة من الأرشيف، غير السّلطويّ منها خاصّة، وبما يشمل الأرشيفات الجديدة على النت، ودمج استنطاق «الوثيقة» التاريخية بالملاحظة السوسيولوجية أو الأنتروبولوجية المباشرة، وخوض تجربة البحث الميداني المعمّقة والمديدة. بهذا المعنى، لا تتميّز العلاقة مع «ميدان البحث» بمجرّد مقاربته بمنظورٍ ومن موقع جَدِيدَيْن، بل وكذلك بكونه، هو ذاته، مُبْتَكَرًا بالنّسبة إلى البحث الأنتروبولوجي، سواء أكان تاريخيا أم اقتصاديا أم دينيا... إلخ. فعلى خلاف ما كان عليه بالنسبة إلى الأنتروبولوجي المستعمر أو الزائر العابر أو الغريب المفتون بالغرائبية، هو ميدان قريب، وبه للباحث العربي صلة حميمة وخاصة (Boukraa, 2026). ومن شأن مثل هذه السمات وغيرها أن تطرح على بساط الدرس من جديد إيتيقا البحث العلمي الإنساني والاجتماعي وأسسها (المجلس العربي للعلوم الاجتماعية, ٢٠٢٤).

سيادة اللاّتاريخيّة وآفاق تجاوزها

ضمن الوضعية التي كانت سائدة في الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية وَقْتَ تأسيسها الأوّل، تمثّل القسم الغالبُ من النّقديّة الثّانية التي صاحبته في نقد «التراث». فمنذ أواخر ستينيات القرن العشرين وحتى بداية الألفية الثالثة، ومن منطلقات مختلفة، ظلت تتوالى كُتُب نَقْدِ ما هو تُراثيّ من العقل (الثّقافي، الفلسفي، السياسي، الأخلاقي)، والفكر (الفقهيّ، الأصوليّ، السّلفيّ، اللاّهوتيّ، الثّابت، الجوهرانيّ، اللاتاريخي، ...إلخ)، والنزعات، والإيديولوجيا، والخطاب، والاتّباع، والإسلام، وحتى النهضة والتحديث والتنوير (العروي، الخطيبي، الجابري، أركون مرُوَّة، تيزيني، طرابيشي، الشّرفي، السيّد، العظمة، أدونيس، حنفي، أبو زيد، النيهوم، الرّفاعي، ... إلخ). استمر هذا الجهد النقدي متزايدُ التعاظم والتشعب على مرّ عقود النصف الثاني من القرن العشرين، مُرَاوِحًا بين التناول الماركسي (المادي التاريخي/المادي الجدلي)، والنصّي الفيلولوجي، والنّفسيّ، واللّساني في عناوين مرحلته الأولى، وصولا إلى الهرمينوطيقي والتأويليّ، والإبستيمولوجيّ، والتّفكيكي السّياقي، والنّقدي الثقافي، والتاريخي الأنتروبولوجي في عناوين مرحلته الثانية. وبُطرُق متعددة ومن مناظير مختلفة ومسافات متباينة، ورثت هذه النقديّةُ بعض سمات النّقدية العربيّة الإسلاميّة الأولى التي تبلورت خلال النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، وكانت على الأغلب إيديولوجيّة-سياسيّة، غلبت عليها مقولات الإصلاح والتّجديد والتمدّن، منقطعة عن معالجة قسم مُحَدّد من التّراث تُمَثّلُه العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة الإسلاميّة الكلاسيكيّة.

من منظور تاريخي إذن، كنّا، خلال ما يقرب من القرنين، إزاء ثلاث موجات نقديّة وتأسيسيْن للأكاديميا. ويمكن أن نعتبر أن التأسيس الأكاديمي الثاني والنّقدية الثّالثة، يتميّزان بثلاث سمات كبرى. أولاها مركزيّة ابن خلدون فيهما بحيث كان في قلب الاشتغال على مختلف قضايا الاجتماع الإنسانيّ القديمة والحديثة وصولا إلى المعاصرة، من خلال إعاداتِ قراءةٍ متواترة ضمن مختلف التخصّصات (التاريخ، علم السياسة، السوسيولوجيا، الأنتربولوجيا، الجغرافيا التاريخية، ... إلخ)، وهو ما يصحّ على المستوى العربي الإسلامي بل بلغ أحيانا مستوى عالميا أوسع (العطاس، ٢٠٢١). ومن أوجه مركزية ابن خلدون وجودُه في صلب ما تسمّيه بعض التجارب التي تهمّ بعض التخصّصات «إنتاج خطاب علميّ (أنتروبولوجي في هذه الحالة) نابع من التراث المعرفي لمنطقتيْ المغرب والمشرق» (حمودي، ٢٠١٧، ١٢) ضمن إعادة صياغة بعض العلوم (الأنتروبوجيا في هذه الحالة (حمّودي، ٢٠١٠).

تندرج الحالة الخلدونية ضمن أفق أوسع مما كان لنمذجة مختلف أجيال النّقدية والأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربيتين وتتجاوز القراءات اللاتاريخية لمكاسبهما وتؤسس لتبيّنها بِصِفَةٍ نسقيَّةٍ. وقد أوردتُ، في العنصرين السابقين، إشارات نظرية ومفهومية ومنهجية وتحليلية تحيل إلى السّمات العامة لهذا التجاوز وانفتاحه على مشاريع تاريخية . ذلك أن من سمات التأسيس الثاني للأكاديميا العربية أنها وسّعت من ممكنات الترابطات المتقاطعة بين التأسيسات والموجات، ربطا مُعَقْلَنًا في مؤسّسات وتجارب بحثية مختلفة، منها الجامعات ومراكز البحث والمجلات وسلاسل الإصدارات، بعد أن كان منحصرا في تنظيرات محلّية كالمغربيّة أو التونسيّة أو المصريّة أو الشاميّة. ويصحّ هذا الأمر على الرغم من استمرار وجود تفاوت بين ما هو «معترف به» ومقبول على نطاق واسع من المفاهيم والمقاربات والمنهجيات المطبّقة على إشكاليات تستند إلى أوضاع قُطْرية (للبلد الواحد) أو إقليمية (لمجموعة بلدان مترابطة جغرافيا-تاريخيا-سياسيا ضمن المنطقة العربية) وبين ما لا يزال غير معترف به ولا مقبول منها. ولكن الأفق الأكبر الذي يمكن أن يكون لتجاوز اللاتاريخية في نمذجة مختلف أجيال النقدية والأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربيتين، هو التعاطي المعرفي مع محورية «الحالة الفلسطينية» التي يزداد تأكّد احتلالها موقع «المختبر الإبستيمولوجي» ضمن مختلف الترابطات المتقاطعة التي أشرتُ إليها. يصح هذا الاعتبار لمركزيتها على ثلاثة مستويات متراكبة. أما الأول، فبوصفها «قضية سياسية» تعيد التأكيد على مركزية ما يتفرع عنها من قضايا الاستعمار وحالاته القديمة والجديدة، وسيروراته التّاريخيّة، وآثاره المتشعّبة المستدامة ضمن الاجتماع الإنساني العربي الراهن. وأما المستوى الثاني، فبوصفها محلاًّ فائق المناسبة لتفكيك مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية واختبار عُدَّاتها المفاهيمية ومناويلها التحليلية وبارادايماتها وتجديدها بحيث تكون أكثر مناسبة لمعالجة هذا الاجتماع. وأما المستوى الثالث، فبوصفها مجالا متراكب المستويات لمكافحة الجَوْرِ الإبستيمي والإبادة المعرفيّة. وخلال العقود الأخيرة جَدَّ تحولٌ بالغ الأثر، وجذريٌّ في تنظير فلسطين من خلال الاختبار الناجع لاستخدام «الاستعمار الاستيطاني» إطارا تحليليا مناسبا لها. سمح هذا الإطار، أولا، بإنتاج أنتروبولوجيا فلسطين، تخصّصا يأخذ بسرديّاتها الكبرى كما الصغرى، ولكن وأيضا بيوميّة الحياة كما تعيشها مدنها وقراها وجماعاتها. وسمح ثانيا، بإنتاج تاريخ فلسطين، لا على أنّه تاريخ سلبي لضحيّة، بل بوصفه تاريخ مقاومة متلاحقة الحلقات من جهة وعميقة الجذور من جهة ثانية (الخالدي، ٢٠٢١). وسمح ثالثا، بالوقوف على الأحداث كما على البُنى الاجتماعية والأنتروبولوجية، وعلى سيرورات الاستعمارين البريطاني ثم الصهيوني كما على سيرورات المقاومة، بحيث تمّ بالتوازي، إنتاج سوسيولوجيا تاريخية للاستيطان الاستعماري الإحلالي الإجلائي ونظام الأبارتهايد الذي بناه وتعهّده و'سوسيولوجيا الفلسطينيين (زريق،١٩٨٠). وتفرّعت عن كلّ هذه الاهتمامات البحثيّة، اشتغالات منها ما كان على قضايا السّيطرة والرّقابة على الفلسطينيين وتحرّرهم منهما، والجغرافيا السّياسيّة-الثّقافية لحركات ذلك التحرّر، وإنجازاتهم المعماريّة والحضريّة، وسمات رواياتهم الشّفوية، و(إعادة) تشكيل أرشيفهم البصريّ (خزائن، ومشاريع التّوثيق الرّقميّ في بيرزيت)، وصون تراثهم الأثريّ،... إلخ. وضمن هذا الجهد، يمكن اعتبار الدّراسات الإسرائيليّة وتفكيك بنى الصّهيونية المختلفة، وتحليل سياسات الاستثناء الاستعماري، على قاعدة تحوّلات الممارسة البحثيّة من خلال الاشتباك الميدانيّ، مُحرِّكًا لإعادة صياغة العلاقة بين التذويت والموضعة، وإنتاج مفاهيم خصوصيّة فلسطينيّة ذات أبعاد «كونيّة».

الخاتمة

لا تفترض أمثولة الفيل والعميان الثلاث، في صيغتها البيداغوجية، تصميم صاحب الفكر الاختزالي المجزّأ على الحفاظ على قناعته مهما كانت الحقائق الماثلة أمامه دامغة في تفنيدها. ولكنها في صيغتها الإنسانية، تعني أن صاحب مثل هذا الفكر لا يقتنع إلا بما يُشبهه، ولا يُعجَب إلا بما يتلاءم مع تصوّره، ولا يحبّ إلا ما يتوافق مع ما يلبّي مطالبه. وهو على ذلك يرتكب تجاه الحقيقة (المعرفة) تحيّزات القياس على الحالة الذّاتية (المركزية)، واختلاق الوهم لتصديقه (الإيديولوجيا) واختزال العادل في ما يحقّق مَصْلَحَتَه (السياسة). ولذلك فإن تخلي كل أعمى عن يقينه المفرد بناب الفيل أو جلده أو أذنه، وعمله على تشبيك معرفته به بمعرفة الآخريْن يجعلهم جميعا في نقطة التّقاطع التي فيها تتأسّس المشروعيّة الإيتيقيّة والأخلاقيّة لعمل الأكاديميين على تجاوز المعرفة المتحيّزة، وبناء نقائضها.

المراجع

المراجع العربية

- باميـة، محمـد. (٢٠١٥). *العلـوم الاجتماعيـة فـي العالـم العربـي: أشـكال الحضـور*. التقريـر الأول للمرصـد العربـي للعلـوم الاجتماعيـة. بيـروت: المجلـس العربـي للعلـوم الاجتماعيـة.
- حجازي، محمد عزت، سالم، ساري، شقرون، محمد، وآخرون. (١٩٨٦). *نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٧). «الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية. خطوة في طريق تأسيس خطاب أنتروبولوجي مستقل»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٥، العدد ١٩، ص ص. ١١-٥٦، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٨). *العلوم الاجتماعية في العالم العربي*. مقاربة الإنتاجات الصادرة باللغة العربية (٢٠٠٠-٢٠١٦). التقرير الثاني للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٠). *في إعادة صياغة الأنتروبولوجيا*، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- حنفي، ساري. (٢٠١٦). «أسلمة وتأصيل العلوم الاجتماعية: دراسة في بعض الإشكاليات»، *المستقبل العربي*، العدد ٤٥١، ص ص. ٤٥-٦٤، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- الخالدي، رشيد. (٢٠٢١). *حرب المائة عام على فلسطين: تاريخ الاستعمار الاستيطاني والمقاومة ١٩١٧-٢٠١٧*، ترجمة عامر شيخوني، بيروت،الدار العربية للعلوم ناشرون.
- خزائن https://www.khazaaen.org/ar.
- الخطيبي، عبد الكبير. (١٩٨٥). *النقد المزدوج*، بيروت، دار العودة.
- دلال، أحمد. (٢٠٢٣). *الفضاءات الأكاديمية والمسارات المهنية لعلماء العلوم الاجتماعية في العالم العربي*. التقرير الثالث للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- زريق، إيليا. (٢٠٢٠). «قضايا في تطور العلوم الاجتماعية في العالم العربي»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٨، العدد ٣١، ص ص. ٥٩-٨٧، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٠). «التذويت والموضعة: الداخلي والخارجي في التحليل العلمي الاجتماعي»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٨، العدد ٣١، ص ص. ٧-٣٠، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٥). «من مواقع ثلاثة: قراءة في التقرير الرابع للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية»، آفاق ثقافية- *المجلة العربية للدراسات الثقافية*، العدد الأول، ص ص. ١٥١-١٥٩، القاهرة، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٦). «عن فلسطين كنايةً عن الجنوب، وعن المعرفة بما هي استعارةٌ للتحرُّر»، الجنوب: *المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية*، العدد المزدوج ٤-٥، ص ص. ٦٥٩-٦٧٢، دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي في القدس.
- الصدة، هدى. (٢٠٢٤). *العلوم الإنسانية في العالم العربي في أوقات الصراع والتغيير*. التقرير الرابع للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- العطاس، سيد فريد. (٢٠٢١). *تطبيق ابن خلدون. إحياء تقليد مهجور في علم الاجتماع*، ترجمة أسامة عباس، بيروت، مركز نهوض للدراسات والبحوث.
- المجلس العربي للعلوم الاجتماعية. (٢٠٢٤). *أخلاقيات البحث في العلوم الاجتماعية في المنطقة العربية: المبادئ التوجيهية الخاصة بالمجلس العربي للعلوم الاجتماعية*. المجلس العربي للعلوم الاجتماعية. https://share.google/ezk3X1CnUxZa7OLTN.
- مهورباشة، عبد الله الحليم. (٢٠٢١). «أزمة العلوم الاجتماعية وميلاد النماذج المعرفية البديلة»، *مجلة جامعة المعارف*، العدد ٤ (سؤال الدين في العلوم الاجتماعية). https://mu-journal.com/index.php/mu/article/view/68.
- هنية، عبد الحميد. (٢٠٢٦). *الأخ والرعية والمواطن. دينامية الوضع السّياسي للفرد في البلاد التونسية*، ترجمة مصطفى التليلي، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

المراجع الإنكليزية

- Boukraa, R. (2026). *Anthropologie du quotidien* (2023–2025). Tunis: Nirvana.
- Subrahmanyam, S. (2022). *Connected History: Essays and Arguments*. London: Verso Books.

مقالات بحثية

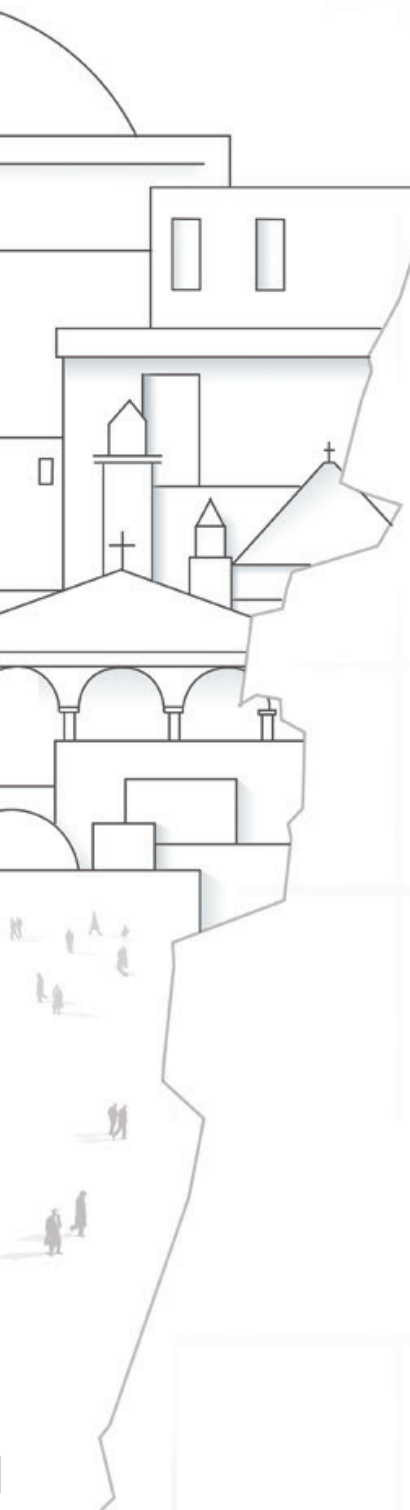

محرم، محمد، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 24-10، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/kzz2zt84

ما هي الإنسانيات الزرقاء (Blue Humanities)؟ نحو أفق معرفي جديد في دراسة الماء والسياسة والثقافة

محمد محرم

الملخص

يسعى هذا البحث إلى سدّ فجوة واضحة في الأدبيات الأكاديمية العربية، حول «الإنسانيات الزرقاء» (Blue Humanities)، وهو حقل معرفي شهد توسعاً سريعاً وملحوظاً في الجامعات الغربية خلال العقدين الأخيرين. ويُعدّ هذا البحث من أوائل الدراسات باللغة العربية التي تقدّم مدخلًا مفاهيميًا ونظريًا إلى هذا المجال الناشئ، منطلقاً من سؤال مركزي هو: كيف يمكن للإنسانيات الزرقاء أن تعيد توجيه دراسة الماء والسياسة والثقافة في السياق العربي؟. ويعتمد البحث منهجية نظرية– مفاهيمية، تجمع بين مراجعة نقدية للأدبيات المؤسسة في الحقل، وتحليل أمثلة عربية مختارة، تعدُّ نماذج استكشافية وليست دراسات حالة مكتملة. ويعيد هذا الحقل توجيه الدراسات الإنسانية والاجتماعية نحو الماء والمحيطات؛ باعتبارها فضاءات مركزية؛ لفهم التاريخ والثقافة والسياسة. كما ينطلق من نقد مركزية اليابسة والدولة القومية في التحليل الأكاديمي، مبيّنًا كيف يتيح التفكير عبر الماء إعادة قراءة العلاقات بين الإنسان والبيئة والاقتصاد والسلطة. ويستعرض أبرز الأطر النظرية التي يقوم عليها هذا الحقل، مثل ما بعد الإنسانية، والأنطولوجيات الرطبة، والنسوية المائية، والنقد البيئي المادي، والتفكير بالماء/ مع الماء، والتفكير الأرخبيلي، والتفكير المحيطي/ الكوكبي. ثم يناقش البحث التطبيقات الاجتماعية والسياسية للإنسانيات الزرقاء، مثل: قضايا المجتمعات الساحلية والمعارف الأصلية، والعدالة المائية، والجيوسياسة البحرية، والهجرة عبر البحار. ويختتم البحث بإبراز إمكانات توظيف هذا الإطار في قراءة السياق العربي من خلال نماذج مثل: القدس وغزة والبحر الأحمر. ومع ذلك، لا يدّعي البحث الإحاطة بجميع أبعاد الإنسانيات الزرقاء؛ بل يقدّم مدخلًا أوليًا، يفتح الباب أمام مزيد من الدراسات المستقبلية العربية في هذا الحقل؛ بغية الوصول نحو «إنسانيات زرقاء عربية» تضع الماء في مركز الاهتمام، وتُتيح فهمًا أعمق لجميع مجالات الحياة اليومية.

الكلمات المفتاحية: الإنسانيات الزرقاء، الجيوسياسة المائية، التفكير عبر الماء، الدراسات الثقافية الزرقاء، التفكير المحيطي، الإنسانيات الزرقاء العربية، النقد البيئي المادي.

What are/ is the Blue Humanities? Towards a New Epistemic Horizon in the Study of Water, Politics, and Culture

Mohammed Muharram

ABSTRACT

This article seeks to fill a clear gap in Arabic scholarship on the Blue Humanities, a field that has rapidly expanded and became increasingly institutionalized in Western academia over the past two decades. It represents one of the first academic texts in Arabic to offer a conceptual and theoretical introduction to this emerging field, beginning from a central question: how can the Blue Humanities reorient the study of water, politics, and culture in the Arab context? The study adopts a theoretical-conceptual methodology that combines a critical review of foundational scholarship in the field with an analysis of selected Arab examples as exploratory models rather than fully developed case studies. The field of the Blue Humanities reorients the humanities and social sciences toward water and oceans as central spaces for understanding history, culture, and politics. It begins by critiquing the dominance of land-based and nation-state frameworks in academic analysis and demonstrates how thinking through and with water enables new interpretations of the relationships between humans, environments, economies, and power. The article also outlines key theoretical frameworks that inform Blue Humanities, including posthumanism, wet ontologies, hydrofeminism, material ecocriticism, thinking with water, archipelagic thinking, and planetary thinking. It then explores the social and political applications of this field, addressing issues such as coastal communities and Indigenous knowledge, water justice, maritime geopolitics, and migration across seas. The study concludes by highlighting how this framework can contribute to rereading the Arab context through examples such as Jerusalem, Gaza, and the Red Sea. However, this study does not attempt to cover all dimensions of the Blue Humanities; rather, it offers an initial conceptual entry point that opens the door wide to further Arabic scholarship in this field, with the aim of advancing toward an "Arab Blue Humanities" that places water at the center of attention and enables a deeper understanding of all aspects of everyday life.

Keywords: Blue Humanities, hydro-politics, thinking with water, blue cultural studies, oceanic thinking, Arabic Blue Humanities, material ecocriticism.

الدكتور محمد محرم، أستاذ مساعد، قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، جامعة ذمار، اليمن؛ وأستاذ مساعد زائر، جامعة بريمن، ألمانيا. للمراسلة: muharram@uni-bremen.de.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).

Dr. Mohammad Moharram, Assistant Professor, Department of English Language and Literature, Dhamar University, Yemen, and Visiting Professor, University of Bremen, Germany. For correspondence: muharram@uni-bremen.de.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

تحتل المنطقة العربية موقعاً بحرياً استراتيجيًا استثنائياً في خريطة العالم؛ إذ تمتد شواطئها من المحيط الأطلسي غرباً إلى المحيط الهندي شرقاً، مروراً بالبحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وخليج عدن وبحر العرب، فيما تخترقها أنهار أسّست الحضارات والمدن على مر التاريخ كالنيل ودجلة والفرات. وعلى امتداد آلاف السنين، شكّلت هذه الفضاءات المائية محوراً حيوياً للتجارة والهجرة والتبادل الثقافي والذاكرة الجماعية، ولم تكن يوماً مجرد خلفية جغرافية؛ بل كانت بنية حضارية أساسية في تشكّل الهوية والاقتصاد والسياسة. غير أن ثمة مفارقة صارخة تستدعي التأمل: فعلى الرغم من هذا الحضور المائي الاستثنائي في الجغرافيا العربية وفي تاريخها وأدبها ولغتها وصراعاتها، يكاد السياق الأكاديمي العربي يغيب كلياً عن حقل معرفي ناشئ يُعنى تحديداً بدراسة العلاقة بين الإنسان والماء والثقافة والسياسة، وهو حقل الإنسانيات الزرقاء (Blue Humanities). فقد تأسّس هذا الحقل في الأكاديميا الغربية منذ مطلع الألفية الثالثة، وراكم خلال عقدين أطراً نظرية وأدوات منهجية وحوارات معقدة ومتشعّبة تتقاطع فيها الدراسات الأدبية والتاريخية والجغرافية والبيئية والسياسية، متخذةً من البحر والنهر والمحيط فضاءات تحليلية لا مجرد خلفيات للأحداث. بيد أن مواضيعه تمركزت في معظمها حول سياقات أوروأطلسية وجنوب آسيوية وأوقيانوسية، في حين ظلّ العالم العربي بفضاءاته المائية الغنية وتاريخه البحري العميق على هامش هذه النقاشات، مُغيَّباً لا بالمعنى الحضاري بل على مستوى التأطير الأكاديمي والمفاهيمي.

من هذه المفارقة تنطلق إشكالية هذا البحث: كيف يمكن توطين الإنسانيات الزرقاء في السياق العربي؟ وما الذي يضيفه هذا التوطين إلى فهمنا للماء؛ بوصفه فضاءً للثقافة والسياسة والذاكرة والصراع في المنطقة العربية؟، وللإجابة عن هذا السؤال، يسعى البحث إلى تحقيق ثلاثة أهداف: أولها تقديم الإنسانيات الزرقاء، وعرض مفاهيمه وأطره النظرية الرئيسية للقارئ العربي، وثانيها استكشاف إمكانات توظيف هذه الأطر في قراءة سياقات عربية محددة، كغزة والقدس والبحر الأحمر وباب المندب؛ وثالثها الإسهام في تأسيس نقاش أكاديمي عربي حول الإنسانيات الزرقاء يُغني الحقل ذاته بمنظور ما بعد استعماري من الجنوب العالمي. وتتوزع مباحث هذا البحث على سبعة أقسام، يتناول الأول مقدمة الدراسة وإشكاليتها، ويعرض الثاني منهجية البحث وحدوده، فيما يستعرض الثالث حقل الإنسانيات الزرقاء ومساره من مركزية البر إلى أفق الماء، ويرصد الرابع أبرز أطره المفاهيمية والنظرية، ويناقش الخامس تطبيقاته وأبعاده الاجتماعية والسياسية، في حين يستكشف السادس حضور الإنسانيات الزرقاء في السياق العربي، من خلال نماذج القدس وغزة والبحر الأحمر وباب المندب، ليختتم القسم السابع بخاتمة تجمع خيوط البحث وتفتح آفاق الدراسات المستقبلية.

منهجية البحث وحدوده

يعتمد هذا البحث منهجية المراجعة النظرية-المفاهيمية النقدية، حيث يتناول الأطر المعرفية والمفاهيمية والنظرية التي يقوم عليها حقل الإنسانيات الزرقاء بالعرض والتحليل والتقييم النقدي، ولا يشمل البحث الميداني أو الكمي. ويُستند في اختيار هذه المنهجية إلى ثلاثة مبررات أساسية: أولها أن حقل الإنسانيات الزرقاء يعدّ حقلًا ناشئًا لا يزال شبه غائب في الكتابة الأكاديمية العربية، مما يجعل تقديمه عبر مراجعة نظرية شاملة أمرًا ضروريًا قبل الشروع في أي بحث تطبيقي متخصص؛ وثانيها أن طبيعة هذه الدراسة مدخليةٌ معرفية تهدف إلى رسم خارطة مفاهيمية للحقل، وتحديد أطره الرئيسية واستكشاف إمكانات توطينه في السياق العربي؛ وثالثها أن المقاربة المفاهيمية النظرية تُتيح الجمعَ بين التحليل الأدبي والفلسفي والجيوسياسي، وهو ما يعكس الطابع متعدد التخصصات الجوهري لهذا الحقل. وتتألف هذه المراجعة من ثلاث خطوات إجرائية مترابطة: أولًا، تتبّع نشأة مصطلح الإنسانيات الزرقاء وتحوّلاته في الأدبيات الغربية الحديثة؛ ثانيًا، تنظيم المفاهيم المركزية في الحقل-كالأنطولوجيا الرطبة، والنسوية المائية، والتفكير مع الماء، والتفكير الأرخبيلي والمحيطي-ضمن خريطة نظرية واضحة؛ وثالثًا، اختبار إمكانات هذه الخريطة من خلال أمثلة عربية مختارة، هي القدس وغزة والبحر الأحمر/باب المندب؛ بوصفها حالات استكشافية لا دراسات حالة مكتملة.

وتعتمد هذه المراجعة على مصادر أولية من مؤسّسي الحقل ومنظّريه الرئيسيين، بالإضافة إلى مصادر ثانوية تشمل مقالات ومراجعات وأعمالًا جماعية محكّمة، وقد جرى اختيارها وفق معيارين: المركزية المفاهيمية في الحقل، والأثر المعرفي في تأسيسه أو توسيعه. غير أن لهذه المنهجية حدودًا واضحة: فهي لا تتضمن بحثًا ميدانيًا أو إثنوغرافيًا أو تحليلًا أرشيفيًا مفصلًا للحالات العربية، كما أنها لا تدّعي الإحاطة الشاملة بجميع أبعاد هذا الحقل الواسع والمتشعّب، وإنما تسعى إلى تقديم مدخل تأسيسي يبرّر الحاجة إلى تطوير هذا الحقل في السياق العربي، ويفتح المجال أمام دراسات مستقبلية أكثر تخصصًا وعمقًا.

ويمكن تنظيم الأسئلة التي تطرحها الإنسانيات الزرقاء ضمن خريطة مفاهيمية موجزة تتكوّن من أربعة محاور مترابطة، المحور الأول: أنطولوجي، ويسأل عن فاعلية الماء والكائنات البحرية والأنهار والجليد، في تشكيل الوجود الإنساني وغير الإنساني؛ والمحور الثاني: معرفي، ويهتم بما تعلّمته المعارف الأصلية والساحلية والبحرية عن التفكير مع الماء بدل التفكير عنه فقط؛ والمحور الثالث: سياسي– اقتصادي، ويركّز على السيادة البحرية، والاقتصاد الأزرق، والحصار، والموانئ، والمضائق، والبنى التحتية المائية؛ أما المحور الرابع: فهو ثقافي– جمالي، ويدرس السرديات البحرية، والفنون تحت الماء، وذاكرة الهجرة والعبودية والعنف البيئي. وبهذا التنظيم لا تظهر الإنسانيات الزرقاء بوصفها قائمة متفرقة من الموضوعات، بل بوصفها إطارًا تحليليًا يربط بين الوجود والمعرفة والسلطة والتمثيل. وتتمثل إشكالية البحث في أن حضور الماء في كثير من الدراسات العربية لا يزال– في الغالب– حضورًا موضوعاتيًا أو بيئيًا عامًا، لا إطارًا نظريًا ومنهجيًا منظّمًا لتحليل الثقافة والسياسة والذاكرة والاقتصاد. لذلك، لا يدّعي البحث أن الكتابة العربية عن الماء غائبة كليًا، بل يجادل بأن الإنسانيات الزرقاء؛ بوصفها حقلًا نقديًا ومفاهيميًا متكاملًا، لا تزال في طور التشكّل داخل السياق العربي. ومن هنا يطرح البحث الأسئلة الآتية: ما المقصود بالإنسانيات الزرقاء؟ وما أبرز أطرها النظرية ومفاهيمها المؤسسة؟ وكيف يمكن لهذا الحقل أن يفتح أفقًا جديدًا لقراءة قضايا عربية مثل القدس وغزة والبحر الأحمر وباب المندب؟.

أولًا: الإنسانيات الزرقاء: من مركزية البر إلى أفق الماء

يغطي الماء أكثر من ٧٠٪ من كوكبنا، كما تسهم المحيطات في إنتاج أكثر من نصف الأكسجين على الأرض (Buchanan and Jeffery, 2019, p. 11). ويشكّل الماء ما يقارب ٧٥٪ من كتلة أجسامنا في مرحلة الطفولة، ونحو ٥٠٪ إلى ٦٠٪ في مرحلة البلوغ (Brinkman, Dorius, and Sharma, 2023, p. 6).

ومن ثمّ، فإننا، كما تقول أستريدا نيمانيس (Astrida Neimanis) «حرفيًا وواقعيًا وتكوينيًا أجسادٌ مائية» (Neimanis, 2024, p. xxiv). وعلى الرغم من هذه الأهمِّيَّة البيئيَّة والثقافيَّة للماءِ، فضلاً عن دورِ المُحيطات في تغيُّرِ المناخ وآثارِه المتعدِّدة، مثل الاحترار العالمي/ الاحتباس الحراريّ وارتفاعِ منسوبِ مياهِ البحارِ والأنهارِ وذوبان الأنهار الجليدية والفيضاناتِ وتسمُّمِ المُحيطاتِ، وتزايد الأعاصير والعواصف، والحرائق الكارثية، إلا أنه من اللافت أن الماء لا يزال مهمشاً في التدريس و البحث العلمي في الإنسانيات و العلوم الاجتماعية مقارنة باليابسة والدولة القومية. فكم عدد المساقات في أقسام اللغة الإنجليزية والدراسات الثقافية وما بعد الاستعمار التي تتناول الماء بوصفه إطارًا تحليليًا، مقارنةً بالمساقات المتمحورة حول اليابسة بوصفها أداةً أساسية للتحليل؟ لقد أشار كثيرٌ من الباحثين في الأدب والتاريخ والنقد البيئي والجغرافيا والعلوم السياسية إلى هذا التهميش بوصفه «سياقًا مفقودًا» (Blum, 2013, p. 151)، وفجوة «تاريخية» و«لغوية» و«تجريبية» في وعينا الجمعي (Foulke, 1997, pp. 45- 46)، و«ثقبًا أزرق» في الإنسانيات البيئية (Gillis, 2011, p. 16)، و«عجزًا محيطيًا» (Dobrin, 2021, p. 1)، ونظرةً «عمياء مائيًا» إلى التاريخ والتطور البشري (Tvedt, 2021, p. 1). ونرى هذا التهميش للماء في الدراسات الثقافية أكثر وضوحًا في السياق العربي، إذ لا يزال البحث الأكاديمي في مجال الإنسانيات الزرقاء (Blue Humanities) في بداياته داخل الجامعات العربية، ولم يتبلور بعد كحقل منهجي مستقل. ومن ثمّ، يسعى هذا البحث إلى الإسهام في سدّ هذه الفجوة المعرفية القائمة في دراسة الماء وتدريسه داخل حقول الإنسانيات والعلوم الاجتماعية في العالم العربي.

وردًّا على هذا التهميش في العالم الغربي، شهدت السنوات الأخيرة تحوّلًا ملحوظًا ومتزامنًا نحو التركيز على دراسة الماء في حقول الإنسانيات والعلوم الاجتماعية والعلوم البحرية على السواء. وهذا التحول المعرفي الجديد هو ما نسمّيه ب «الإنسانيات الزرقاء» (Blue Humanities)، وكما يلاحظ المؤرخ البحري جون جيليس (John Gillis)، فإن هذا «التحول الثقافي نحو البحر» بدأ في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فقد انتقل تركيز علم الآثار مثلاً إلى ما وراء اليابسة نحو البحر، كاشفًا عن جوانب مجهولة سابقًا من عصور ما قبل التاريخ كانت قد ضاعت بسبب ارتفاع مستويات البحار. أما علم الأنثروبولوجيا، الذي نشأ أساسًا في الجزر، فقد أصبح اليوم يركز على البحار التي تفصل بينها. وكان التاريخ البحري في السابق يهتم إلى حدٍّ كبير بما يحدث على سطح الماء، لكنه أصبح الآن معنيًا أيضاً بالحياة داخل المحيط نفسه، بما في ذلك الحياة في قاع المحيط. وأصبح التاريخ البحري يندمج بسرعة مع علم الأحياء البحرية، حتى بات لا يكاد يتميز عن التاريخ الطبيعي. كما أن التاريخ البيئي بدأ اليوم يدرس أنواعًا معينة من الأسماك والثدييات البحرية. وفي الآونة الأخيرة, أكثر من أي وقت مضى، حيث بدأنا نستكشف تاريخ التيارات البحرية، والمدّ والجزر، وحتى الأمواج، وهي ظواهر كان يُظن سابقًا أنها أزلية وثابتة، ك «البحر الأبدي» نفسه (Gillis, 2011, p. 1). وهكذا يقدّم هذا الحقل نفسه؛ بوصفه فرعًا داخل الإنسانيات البيئية، يعيد ترتيب سلّم الاهتمامات المعرفية، بحيث يصبح الماء مركزًا للتحليل لا هامشًا (Kluwick, 2025, p. 1). ويُنسب مصطلح الإنسانيّاتِ الزَّرقاءِ إلى الباحث الأمريكي المتخصص في الأدب الإنجليزي ستيف منتز Steve Mentz، إذ اقترح هذا المفهوم عام ٢٠٠٩ في مقاله المعنون «نحو دراسات ثقافية زرقاء»، وقد عرّفه في مقال آخر بأنه: «مقاربةٌ بحرية تضع التاريخ الإنساني في إطارٍ محيطي بدلاً من إطار أرضي» (Mentz, 2018, p. 69) ونظَّر منتز لهذا المجال بشكل أوسع في كتابه «مدخل الى الإنسانيات الزرقاء» (Mentz, 2024).

ويمكنُ أيضا تعريفُ الإنسانيّاتِ الزَّرقاءِ بأنّها حقلٌ دراسيٌّ بَيْنيٌّ، متعدِّدُ التخصُّصات، وعابرٌ لها, يدرس العلاقات المتبادلة بين الإنسان والماء في الماضي والحاضر والمستقبل، من منظور العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحرية. فهي تربط بين التاريخ والجغرافيا والأدب والسينما والفنون والفلسفة والاقتصاد والأخلاقيات والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ودراسات ما بعد الاستعمار وعلم الآثار، مع الانفتاح في الوقت نفسه على علوم المحيطات والأحياء البحرية والفيزياء البحرية والكيمياء البحرية (Oppermann, 2023, p. 1). ولهذا السبب, برزت في الآونة الأخيرة مصطلحات جديدة تعكس هذا التوجه مثل: التاريخ الأزرق (Matt McKenzie)، والفلسفة الزرقاء (Melody Jue)، واللسانيات الزرقاء (David Harris)، وما بعد الاستعمار الأزرق (Mohammed Muharram & Kerstin Knopf)، والأنثروبولوجيا الزرقاء (Nils Bubandt)، والدين الأزرق (Justine Bakker)، والقوانين الزرقاء (Irus Braverman & Sofie Quist)، والإيكولوجيا الزرقاء (Michael Blackstock). وتمثل هذه الموضوعات فصولًا في الكتاب المرتقب «دليل بلومزبري إلى الإنسانيات الزرقاء» *(The Bloomsbury Handbook to the Blue Humanities)*، الذي يحرّره أربعة من منظّري هذا المجال وهم: ستيف منتز (Steve Mentz)، ومحمد محرم (Mohammed Muharram)، وسيربيل أوبيرمان (Serpil Oppermann)، وساندرا يونغ (Sandra Young). وقد سبق ظهور مصطلحات مشابهة كالنقد البيئي الأزرق Blue Ecocriticism للباحث سيدني دوبرين (Dobrin, 2021) والأنثروبوسين الأزرق Blue Anthropocene للباحثة ميق صامويلسن (Samuelson, 2022).

وتتيح السيولة المفاهيمية لهذا الحقل -التي تعكس سيولة موضوعه- إمكانية الربط بين التخصصات المختلفة. فهو يتميز بما يُعرف بـ«الشعرية السائلة» fluid poetics (Jue & Ruiz, 2021, p. 2) و«السيولة التخصصية» disciplinary fluidity (Bakker, 2019)؛ وهما مفهومان يشجعان التعاون العابر للتخصصات، ويسهمان في إعادة التفكير في العلاقة بين المعرفة العلمية والإنسانية. ولذلك يرى محمد محرم أن الإنسانيات الزرقاء تسد فجوتين أساسيتين في المعرفة البيئية: الفجوة بين الإنسانيات والعلوم الطبيعية، والفجوة بين علماء المناخ والجمهور العام. (Muharram, 2025, p. 1) كما تتيح هذه السيولة للإنسانيات الزرقاء أن «تعبر الحدود» متجاوزة المنهجيات البيئية التقليدية المرتبطة باليابسة أو بالدولة القومية، ومبرزةً الكيفية التي تشكلت بها المحيطات تاريخياً عبر عمليات الاستعمار والترسيم والسيطرة العسكرية (Oppermann, 2023, p. 5; Perez, 2020, p. 2). ومن منطلق التزامها بالشمول، تسعى هذه المقاربة إلى تطوير منهجية عالمية ومتعددة اللغات، وشاملة إبداعياً، ولها القدرة على استيعاب تنوع المعارف والخبرات المرتبطة بالمياه والثقافات البحرية (Mentz, 2024, p. 18).

وبذلك لا تقتصر الإنسانيات الزرقاء على تناول الماء، بوصفه موضوعًا ثقافيًا أو طبيعيًا منفصلًا، بل تنظر إليه بوصفه وسيطًا جامعًا يعيد وصل الحقول المعرفية، ويكشف تشابك التجارب البشرية مع البيئات المائية عبر الأزمنة والسياقات المختلفة. فهي بمثابة جسرٍ يصل بين المعارف و الشعوب، والإنسان والبيئة، وقد عبّر الباحثون عن هذه الميزة بطرق مختلفة. فترى سيربيل أوبرمان (Serpil Oppermann) أن الإنسانيات الزرقاء تقوم على «تقاطُع الحدود وتداخلها» (Oppermann, 2023, p. 5). أما الشاعر والناقد كريغ سانتوس بيريز (Craig Santos Perez) -وهو من السكان الأصليين (شعب تشامورو) في جزيرة غوام- فيوضح ذلك بقوله: «إن الإنسانيات الزرقاء تتدفّق عبر التخصصات، وتغوص في الأعماق البحرية والطبقات المغمورة، وتسبح داخل تشابكات الكائنات المتعددة الأنواع، وتتقاطع مع المعارف النسوية ومعارف الشعوب الأصلية والمعارف المرتبطة بالشتات، وتعترف بفاعلية المحيط الذي يزداد دفئًا ويرتفع منسوبه، كما تُغير أساليبنا في التفكير النقدي وممارسات القراءة» (Perez, 2020, p. 2).

وَمِنَ المصطلحاتِ التي أُطلِقَت على الإنسانياتِ الزرقاءِ نَجِدُ ما يلي: «الثالاسولوجيا الجديدة» (Horden and Purcell, 2006)، و«النقد البيئي البرمائي» (Brayton, 2012)، و«الدراسات النقدية للمحيطات» (DeLoughrey, 2017)، و«الدراسات المحيطية الإنسانية» (Price, 2017)، و«النقد المائي» (Winkiel, 2019)، و«النقد البيئي الأزرق» (Dobrin, 2021) و«الإنسانيات المائية» (De Wolff, Faletti, & López-Calvo, 2022)، ومؤخرًا «دراسة المحيطات النقدية» (Foley & Silver, 2026).

وتُظهر مقاربة الإنسانيات الزرقاء أن النماذج التحليلية التقليدية في الدراسات ما بعد الاستعمار -التي تعتمد على الدولة القومية والحدود البرية- تقيّد فهمنا للعالم لأنها تقوم على تقسيمات ثنائية جامدة مثل الشرق والغرب، والمركز والهامش، والمستعمِر والمستعمَر. في المقابل، تقدّم الإنسانيات الزرقاء منظوراً مختلفاً يقوم على منطق الترابط والدوران البحري، حيث يصبح المحيط فضاءً يربط الشعوب والتواريخ والثقافات، عبر حركات الماء والتيارات البحرية التي تجوب الأرض دون أي حدود. وتعتمد هذه المقاربة على الماء أو المحيط بوصفه منهجاً للتحليل، وهو ما عبّر عنه عدد من الباحثين بوضوح في عنوان كتابهم «المحيط كمنهجية» (Menon et al., 2022)، حيث يُستخدم المحيط كإطار معرفي؛ لفهم التاريخ والثقافة، بعيداً عن الحدود القومية الضيقة. ومن خلال هذا المنظور، تكشف الإنسانيات الزرقاء معاني وروابط تاريخية وثقافية لا يمكن رؤيتها عبر نموذج الدولة القومية، إذ تُظهر كيف ربطت البحار -وخاصة المحيط الهندي- بين شرق أفريقيا وجنوب آسيا والعالم العربي عبر شبكات التجارة والهجرة والاستعمار. وقد استخدم باحثون هذا المنظور البحري لإعادة قراءة العلاقات بين مناطق متباعدة؛ فمثلاً تستخدم إيزابيل هوفماير (Isabel Hofmeyr) المحيط الهندي إطاراً لربط أفريقيا والهند (Hofmeyr, 2012)، كما تبيّن شارن لافيري (Charne Lavery) كيف يربط البحر بين تواريخ وجغرافيات متعددة عبر المحيط الهندي، وكذلك بين أفريقيا و القارة القطبية المتجمدة (Lavery, 2019; Lavery, 2021). وبهذا المعنى، تعيد الإنسانيات الزرقاء تخيّل البحر لا كحدّ فاصل، بل كوسيط تواصل، وهو ما يفتح المجال لفهم شرقٍ أوسطَ عالميّ، وعالم مترابط تحكمه شبكة مائية واحدة، حيث لا توجد محيطات منفصلة بقدر ما يوجد محيط عالمي واحد تتداخل عبره التواريخ والهويات والاقتصادات والثقافات.

وتقدّم الإنسانيات الزرقاء مقاربةً جديدة تعكس تحليلًا أكثر سيولة لكيفية تأثير الماء على الثقافة الإنسانية والتاريخ والبيئة (Steinberg and Peters, 2015؛ Jue, 2020)، وكذلك الكيفية التي تتشكّل بها المخيلة البشرية، والتعبير الفني، والممارسات الثقافية بفعل البيئات المائية (Cohen, 2010؛ Mentz, 2009). ومن خلال فحص السرديات البحرية والاستعارات المحيطية في أشكال تمثيلية متنوعة (Brayton, 2012؛ Frank, 2022)، لا يقتصر هذا المجال المتعدد التخصصات على دراسة العلاقة المعقدة بين الأنشطة البشرية والنظم البيئية البحرية، مما يكشف التأثيرات المتبادلة في المجتمعات (Gilroy, 1993؛ Hau'ofa, 2008)، بل يستكشف أيضًا العلاقات بين الكيانات البشرية وغير البشرية في السياقات المائية (Haraway, 2016؛ Neimanis, 2017). ويركّز هذا المجال على قضايا بيئية، مثل: تحمّض المحيطات، والتلوث البحري، وارتفاع مستويات سطح البحر (DeLoughrey, 2017؛ Yaeger, 2010)، كما يؤكد الدور الحاسم للمحيط في تنظيم المناخ والحفاظ على التنوع البيولوجي (Alaimo, 2019؛ Dobrin, 2021). كذلك تناقش الإنسانيات الزرقاء عصر الأنثروبوسين وتفاعلات الإنسان والطبيعة، من خلال مزج عناصر من النقد البيئي، والإنسانيات البيئية، وما بعد الإنسانية، داعيةً إلى إدارة مستدامة للموارد البحرية وإلى تقدير أكثر عمقًا ودقة لعالمنا المائي (Iovino and Oppermann, 2014؛ Mentz, 2020).

وتناقش الإنسانيات الزرقاء أبعاد الفضاءات المائية المختلفة، بما في ذلك الدلالات السياسية- الاقتصادية والثقافية التي تُشكّل انخراطنا مع المحيطات والمسطحات المائية- من قضايا مثل القانون البحري، واستخراج الموارد، والنزاعات الإقليمية، إلى أدوار المحيطات في العولمة الاقتصادية، فضلًا عن مسائل التراث (Campling and Colás, 2021؛ Hofmeyr, 2019؛ Oruc, 2022؛ Steinberg, 2001). ويتم ذلك عبر منازعة السرديات الأوروبية المركزية (Hau'Ofa, 2008؛ Perez, 2020)، وإدماج منظورات السكان الأصليين أو المنظورات غير الغربية التي تدعم المعارف البيئية التقليدية والفولكلور البحري (Oppermann, 2013؛ Williams, 2013). ويشير مفهوم «العولمة الرطبة» (Wet Globalization)، وهو مصطلح صاغه منتز، إلى أن عمليات العولمة لم تتشكل عبر اليابسة وحدها، بل عبر الشبكات البحرية التي ربطت الموانئ والسواحل والمحيطات، حيث أسهمت طرق الملاحة والتجارة والهجرات العابرة للمحيطات في تشكيل الاقتصاد والثقافة والتاريخ العالمي بطرق لا يمكن فهمها، من خلال نماذج الدولة القومية البرية وحدها (Mentz, 2009; Hofmeyr, 2019; Steinberg, 2001; Campling & Colás, 2021).

وتثير الإنسانيات الزرقاء مجموعة من الأسئلة العميقة التي تعكس اتساع هذا الحقل وجرأته المنهجية، من أبرزها: كيف يصل الماء بين الأزمنة والأمكنة والسرديات وأنماط المعرفة، ويكشف أن ما نعدّه «منفصلًا» ليس كذلك؟ وهل يمكن أن تُفهم الأنهار و الحيتان والشعاب المرجانية، بوصفها كيانات ذات فاعلية وحقوق أمام المحاكم الدولية، لا مجرد موارد يتم استنزافها؟ وما الذي تعلمنا إياه المعارف الأصلانية حين تُعامل الماء كقريب وقرابة، أو كمعلم وكائنٍ قانوني، لا كمادة للاستخدام؟ وكيف تُعيد الأعماق السحيقة، بوصفها مجالًا مظلمًا خارج الضوء وأحيانًا خارج المخيال البشري، تشكيل أسئلتنا عن المعرفة والحدود واللا-مرئي؟ وكيف تكشف أساطير البحر مثل حكاية «حورية البحر» عن تشابكات النوع الاجتماعي والاستعمار والخوف من المجهول؟ ثم كيف يمكن قراءة حبر الحبار العملاق أو جسد قنديل البحر أو ذكاء الأخطبوط؛ بوصفها أشكالًا بديلة للكتابة والمعرفة والذاكرة، وطرائقَ «سائلة» للتفكير تتحدى مركزية الإنسان؟ وما الذي يحدث عندما يوضع الفن تحت الماء كأعمال جيسون ديكيرز تيلور (Jason deCaires Taylor)، الذي يحول تماثيله الأسمنتية العملاقة إلى شعاب مرجانية حية و متاحف تحت الماء، حيث يضعنا هذا الانتقال من ضوء النهار إلى عتمة الأعماق أمام تساؤلٍ وجوديٍّ عميق: هل نحن بصددِ إعادة صياغة الجمال لعين الإنسان الغارقة في الفضول، أم أننا نمدُّ يدَ العونِ للحياة الفطرية بتشييد «أرحامٍ» حجرية تنبضُ بالمرجان؟ وهل هذا الفنُّ في جوهره إلا رسالة اعتذارٍ صامتة، مشفّرةً بلغة الكالسيوم، وموجّهةً إلى قلب المحيط الذي أثقلناه بمخلفاتنا؟ وكيف تعيد سرديات اللاجئين والمهاجرين عبر البحار تعريف الماء لا بوصفه خطرًا أو معبرًا فقط، بل شاهدًا وحافظًا للذاكرة وراويًا؟ وكيف يحمل البحر ذاكرات العنف التاريخي، بما في ذلك حوادث الإلقاء القسري في المحيطات ضمن تاريخ العبودية العابرة للأطلسي، بوصفها «أرشيفًا مائيًا» لا يختفي؟ وأخيرًا، إذا لم يعد مفهوم الأنثروبوسين كافيًا لتفسير كل شيء، فكيف تفتح تصورات جديدة مثل «Oceanocene» (Mentz, 2019) والذي يدعونا لإعادة التفكير في التاريخ البشري من منظور المحيط، أو مفهوم «Hydrocene» الذي طرحته الباحثة براونوين بيلي-تشارتيريس (Bronwyn Bailey- Charteris) لترسيخ دور المياه كقوة فاعلة في تشكيل الوجود، بعيداً عن المركزية البشرية الخانقة (Bailey-Charteris, 2024)؟ وإلى أي حد يمكن للذكاء الاصطناعي وتقنيات البيانات أن توسّع الإنسانيات الزرقاء أو تتحداها أو تعمّق علاقتنا الأخلاقية بالكائنات المائية أكثر- من- البشر؟.

ثانياً: الأطر المفاهيمية والنظرية للإنسانيات الزرقاء

ما بعد الإنسانية المائية (Posthumanism) والوكالة غير البشرية

تنبثق الإنسانيات الزرقاء من صلب تيارات ما بعد الإنسانية (Posthumanism)، حيث تسعى بجدية إلى تفكيك «المركزية البشرية» التي هيمنت طويلًا على فهمنا للعالم. ففي هذا المنظور، لا يُعدُّ المحيط بمياهه وكائناته مجرد «خلفية خاملة» أو مسرحاً محايداً للنشاط البشري، بل هو فاعل حيوي (Agent) يشترك بصورة جذريّة في تشكيل الروابط البيئية والثقافية والسياسية. ويظهر هذا التحول الجذري حتى في التقاليد الأكاديمية الراسخة؛ ففي مقدمة كتابه «الإنسانيات الزرقاء: مقدمة» (2024)، يكسر منتز (Steve Mentz) بروتوكول الشكر التقليدي؛ إذ لا يبدأ بشكر المؤسسات أو الزملاء البشر، بل يستهل شكره بالاعتراف بفضل «غير البشر»؛ من شاطئ منطقته، ومياهه و أسماكه و طيوره، ومحاره، و جميع نباتاته. هذا الفعل يجسد اعترافاً صريحاً بفاعلية الكائنات المائية والأنظمة البيئية؛ بوصفها عناصر شريكة في إنتاج المعنى والسلطة، وليست مجرد كائنات خاضعة للدراسة.

إن هذا التوجه يطبق عملياً دعوة دونا هاراواي (Haraway, 2016) بضرورة الاعتراف بـ«التشابكات» (Entanglements) بين البشر وغير البشر، وهو ما يتقاطع مع رؤية أستريدا نيمانيس (Neimanis, 2017) التي تعيد تعريف البشر بوصفهم «أجساداً مائية» متصلة فيزيولوجياً ووجودياً بدورات المياه الكوكبية، مما يزعزع الحدود الصارمة بين «الإنسان» و«الطبيعة». ومن هذا المنطلق، تتجاوز الإنسانيات الزرقاء التفكير التقليدي المتمحور حول الإنسان، لتعترف بذكاء وتعقيد كائنات مثل الأخطبوط كما في فيلم «أستاذي الأخطبوط» *(My Octopus Teacher)* أو «الذكاء اللا-دماغي» لدى قناديل البحر، التي أظهرت الدراسات الحديثة قدرتها على التعلّم رغم افتقارها إلى دماغ مركزي، ولتقرَّ بـ«الشخصية القانونية» للأنهار و«قرابة» الحيتان في التقاليد الأصلية، مقدمةً بذلك بديلاً للنقد البيئي "الأخضر" يتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية الكلاسيكية (Mentz, 2024).

الأنطولوجيا الرطبة (Wet Ontology)

يُعد مفهوم الأنطولوجيات الرطبة أحد المفاهيم المركزية في التفكير المرتبط بالإنسانيات الزرقاء. فقد طرح فيليب شتاينبرغ وكيمبرلي بيترز (Philip Steinberg & Kimberley Peters) هذا المفهوم للتأكيد على أن البحر ليس مجرد سطح جغرافي يمكن تمثيله على الخرائط، بل فضاء مادي ديناميكي يعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (Steinberg & Peters, 2015). فالفضاءات المائية تتسم بالسيولة والحركة المستمرة، الأمر الذي يزعزع النماذج التحليلية التقليدية القائمة على الثبات والحدود الصلبة المرتبطة بالدولة القومية. ومن خلال هذا المنظور، يصبح البحر مجالًا تتحرك فيه القوى السياسية والاقتصادية والثقافية بطرق يصعب احتواؤها ضمن منطق اليابسة، أو ضمن الأطر الجغرافية التقليدية. ومن ثمّ، تتيح الأنطولوجيات الرطبة إعادة التفكير في الجغرافيا السياسية والاقتصاد العالمي من خلال الاعتراف بسيولة الفضاءات المائية وطبيعتها المتغيرة. وفي إطار الإنسانيات الزرقاء، تنخرط الدراسات الفلسفية كذلك في تأمل طبيعة الماء وصلته بالحياة الإنسانية (Chen et al., 2013)؛ أستريدا نيمانيس (Neimanis, 2012)، مقدّمة مفاهيم نظرية مثل الأنطولوجيات الرطبة (Wet Ontologies) والنسوية المائية (Hydrofeminism) التي تسعى إلى زعزعة الثنائيات الغربية التقليدية بين الإنسان والطبيعة، وبين اليابسة والماء، وإعادة تصور العلاقات بين البشر والأنظمة البيئية المائية بوصفها علاقات ترابط وتداخل مستمر.

النسوية المائية (Hydrofeminism)

طورت أستريدا نيمانيس (Astrida Neimanis) مفهوم النسوية المائية بوصفه إطارًا نظريًا يربط بين الجسد البشري والأنظمة المائية للكوكب. ويؤكد هذا المفهوم أن البشر ليسوا كيانات منفصلة عن البيئة، بل هم أنفسهم مكوَّنون من الماء ومندمجون في دوراته البيئية المتواصلة. (Neimanis, 2017) ومن خلال هذا المنظور، تصبح العلاقات بين البشر والمياه علاقات قرابة بيئية، وليست مجرد علاقات استغلال للموارد، إذ يُعاد تصور الجسد البشري بوصفه جزءًا من شبكة مائية كوكبية تتدفق عبرها المواد والحياة. ويرتبط هذا التصور كذلك بمفهوم التجسد العابر للأجساد (Transcorporeality) الذي طورته ستايسي ألايمو (Stacy Alaimo)، والذي يؤكد أن الأجساد البشرية وغير البشرية ليست كيانات مغلقة، بل تتداخل عبر تدفقات المواد والطاقة والعناصر البيئية، بما في ذلك الماء (Alaimo, 2010). ومن هذا المنظور، يصبح الجسد البشري موقعًا تتقاطع فيه العمليات البيئية والكيميائية والبيولوجية، مما يكشف عن الترابط العميق بين صحة البشر وصحة النظم البيئية المائية. كما توسّع الأدبيات الحديثة هذا التوجه من خلال العمل الجماعي «التفكير النسوي المائي مع المحيطات: إمكانات سياسية ومعرفية» الذي حررته تمارا شيفر، وفيفيان بوزاليك، ونيك رومانو (Shefer, Bozalek and Romano, 2024). حيث يقدم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التي تستكشف الإمكانات السياسية والمعرفية للتفكير الهيدرونسوي مع المحيطات، مؤكدًا أن الماء ليس مجرد موضوع للدراسة، بل وسيطٌ يربط بين الأجساد والبيئات والمجتمعات. كما يبرز الكتاب كيف يمكن للنسوية المائية أن تسهم في إعادة التفكير في قضايا العدالة البيئية، والعلاقات متعددة الأنواع، والمعرفة البيئية، من خلال إبراز الترابط العميق بين الأجساد البشرية والأنظمة المائية للكوكب. وبهذا المعنى، توسّع النسوية المائية أفق الإنسانيات الزرقاء عبر إعادة تصور العلاقة بين الجسد البشري والبيئات المائية بوصفها علاقة تشابك وتدفق مستمرين، مؤكدةً أن التفكير عبر الماء يستلزم أيضًا إعادة النظر في طبيعة الحياة والعلاقات الأخلاقية بين البشر والكوكب.

النقد البيئي المادي (Material Ecocriticism)

يسهم النقد البيئي المادي في تعزيز البعد المادي داخل الإنسانيات الزرقاء. ففي هذا الاتجاه النظري، لا تُفهم الطبيعة بوصفها موضوعًا سلبيًا للتمثيل الثقافي، بل بوصفها كيانًا يمتلك قدرة على الفعل والتأثير. وتشير سيرينيلا يوفينو Serenella Iovino و أوبرمان إلى أن المادة نفسها تحمل قصصًا ومعاني يمكن قراءتها بوصفها جزءًا من الخطاب الثقافي (Iovino & Oppermann, 2014). ومن هذا المنظور، تصبح المياه والبحار والمحيطات حوامل لسرديات بيئية وسياسية تتجاوز التمثيل الرمزي لتشمل أبعادها المادية الفعلية. وتتيح هذه المقاربة فهم التفاعل المتبادل بين الخطاب الثقافي والعمليات البيئية، مما يعزز قدرة الإنسانيات الزرقاء على تحليل العلاقة بين الثقافة والمادة المائية. وتجادل كلويك (Kluwick, 2025, p. 1) أن هذا التوجه يرتبط كذلك بحقل النقد البيئي العنصري (Elemental Ecocriticism) الذي يركز على دراسة العناصر الأساسية للطبيعة، مثل الماء والهواء والنار والتراب؛ بوصفها قوى مادية وثقافية في آنٍ واحد.

وقد أسهم جيفري جيروم كوهين ولويل دوكراي (Jeffrey Jerome Cohen & Lowell Duckert) في تطوير هذا الاتجاه من خلال كتابهما «التفكير البيئي العنصري: التفكير مع الأرض والهواء والماء والنار»، حيث يقترحان التفكير مع العناصر الطبيعية بدلاً من التعامل معها بوصفها مجرد خلفية للأحداث البشرية (Cohen & Duckert, 2015). وفي هذا السياق يكتسب عنصر الماء أهمية خاصة داخل الإنسانيات الزرقاء، إذ يُنظر إليه بوصفه عنصرًا يربط بين البيئات والثقافات والتاريخ البشري عبر تدفقات مادية ورمزية مستمرة. ومن ثمّ، يفتح النقد البيئي العنصري المجال لفهم أعمق لدور العناصر المائية في تشكيل السرديات البيئية والأنماط الثقافية، مما يعزز التكامل بين الدراسات البيئية والنقد الثقافي ضمن إطار الإنسانيات الزرقاء. و تضيف كلويك (Kluwick, 2025, p. 1) أن من أبرز الابتكارات التي تقدمها الإنسانيات الزرقاء في هذا السياق إصرارها على ضرورة إدخال الوظيفة الرمزية للماء في حوار مباشر مع ماديته. و هذا يتماشى مع عبارة هستر بلوم (Hester Blum) المشهورة: «البحر ليس استعارة» (2010, p. 670). فبدلاً من ذلك، تلفت الإنسانيات الزرقاء الانتباه إلى دور المحيط العالمي بوصفه فضاءً للتجربة والتفاعل الثقافي والاجتماعي، ومنطقة تماس بين الإنسان والعالم الأكثر-من-البشري، وكتلة مادية هائلة ثلاثية الأبعاد لا يمكن للمعرفة البشرية الوصول إليها إلا جزئيًا.

التفكير ب/مع الماء Thinking with Water

يدعو عدد من منظّري الإنسانيات الزرقاء إلى الانتقال من التفكير عن الماء؛ بوصفه موضوعًا خارجيًا للدراسة إلى التفكير معه بوصفه وسيطًا معرفيًا يساعد على فهم العالم. ففي هذا الإطار لا يُنظر إلى الماء مجرد عنصر طبيعي، بل بوصفه طريقة لفهم العلاقات المعقدة بين البشر والبيئات المائية. وتشير أوبرمان إلى أن التفكير مع الماء يسمح بإدراك التشابك بين المادي والثقافي في تشكيل هذه العلاقات، مقترحةً التفكير مع المحيطات والبحيرات والأنهار بوصفها قوى قادرة على إعادة تشكيل علاقتنا بالمادة الرطبة على نحو متبادل (Oppermann, 2023, p. 9). كما يؤكد منتز أن هذا المنظور يغيّر الطريقة التي نقرأ بها التاريخ والثقافة، إذ يكشف أن العالم يتشكل عبر التدفقات المائية بقدر ما يتشكل عبر اليابسة (Mentz, 2024). وقد طوّر هذا التوجه نظريًا كتاب التفكير مع الماء *(Thinking with Water)* الذي حررته تشين وماكليود ونيمانيس (Chen, MacLeod, & Neimanis)، حيث يقترح الانتقال من دراسة الماء بوصفه موردًا ماديًا قابلاً للقياس والاستغلال إلى التفكير معه؛ بوصفه شريكًا معرفيًا وثقافيًا في تشكيل طرائق المعرفة والعمل (Chen, MacLeod, & Neimanis, 2013). ومن هذا المنظور يصبح التفكير عبر الماء ممارسةً لـ «تفكير علائقي» يستند إلى مفاهيم مثل السيولة واللزوجة والمسامية التي تكشف الترابط العميق بين البشر والأنظمة المائية (Chen, MacLeod, & Neimanis, 2013, p. 12). وفي سياق الإنسانيات الزرقاء، يفتح هذا المنظور المجال لإعادة التفكير في قضايا مثل السيادة والهجرة والذاكرة والاقتصاد من خلال إدراك الدور المركزي للمياه في تشكيل التاريخ والثقافة. كما يدعو إلى الاعتراف بالبحار والأنهار والبحيرات بوصفها كيانات حيوية لها حقوقها الخاصة، بما في ذلك حق الماء في التدفق دون عوائق وحق الأنهار الجليدية في البقاء (Oppermann, 2023, p. 9). ويرى أندرو بيرو (Andrew Biro) أن التفكير عبر الماء يقتضي أيضًا الانتباه إلى أن المفاهيم التي نستخدمها لتنظيم التدفقات المائية -مثل الأحواض ومستجمعات المياه والخزانات الجوفية- ليست سوى تجريدات مفهومية متجذرة في سياقات ثقافية محددة (Biro, 2013, pp. 166–167). ومن خلال هذا الإطار، تقترح الإنسانيات الزرقاء طرائق جديدة للتفاعل مع الماء وتمثيله سرديًا، بما يكشف عن تشابك القوى البيولوجية والجيولوجية والكيميائية والمناخية والاقتصادية والسياسية في تشكيل علاقات البشر بالمياه في عصر الأنثروبوسين، الذي يظهر أثره بوضوح في المحيط العالمي (Chaturvedi, 2022, p. 164). كما يتيح التفكير مع الماء تجاوز بعض حدود خطاب الأنثروبوسين ذاته عبر إعادة تصور العلاقة بين الإنسان والأنظمة البيئية المائية بوصفها علاقة ترابط وتفاعل مستمرين (Oppermann, 2018).

التفكير الأرخبيلي (Archipelagic Thinking)

يمثل التفكير الأرخبيلي إطارًا نظريًا مهمًا لفهم العلاقات المكانية والثقافية في الإنسانيات الزرقاء. فقد اقترح إدوارد جليسون (Édouard Glissant) مفهوم الفكر الأرخبيلي بوصفه بديلًا للنماذج الفكرية القارية التي تقوم على المركزية والثبات، حيث يؤكد أن الأرخبيلات -بوصفها شبكات من الجزر المتصلة بالمياه- تقدم نموذجًا لفهم العالم بوصفه شبكة علاقات متحركة ومتشابكة (Glissant, 1997). وفي السياق ذاته، تشير إليزابيث ديلوغريه (Elizabeth DeLoughrey) إلى أن التفكير الأرخبيلي يسمح بإعادة قراءة التاريخ الاستعماري والشتات الثقافي من خلال الشبكات البحرية التي ربطت بين المجتمعات والجزر والموانئ عبر المحيطات (DeLoughrey, 2017). وبهذا المعنى، يقدم هذا الإطار تصورًا للعالم يقوم على الاتصال والتعدد بدل الانفصال والحدود الصلبة.

كما توسّعت دراسات التفكير الأرخبيلي في السنوات الأخيرة لتشمل مقاربات مقارنة عابرة للمناطق، حيث يُنظر إلى الأرخبيلات؛ بوصفها شبكات من الجزر والعلاقات المائية التي تُنتج أنماطًا خاصة من المعرفة والاتصال الثقافي والتاريخي، لا بوصفها وحدات جغرافية معزولة، بل كنماذج لفهم العالم عبر علاقات الترابط والحركة بين الجزر والبحار (Stephens & Martínez-San Miguel, 2020). وقد توسّعت دراسات التفكير الأرخبيلي في السنوات الأخيرة لتتجاوز السياق الكاريبي الذي انطلقت منه، لتصبح إطارًا مقارنًا عابرًا للمناطق يُستخدم لفهم شبكات العلاقات بين الجزر والبحار عبر فضاءات عالمية متعددة. وينظر هذا المنظور إلى الأرخبيلات ليس بوصفها جزرًا معزولة، بل كنماذج معرفية تكشف أنماط الترابط والحركة والتبادل بين الجزر والبحار، وهو تصور يتقاطع مع رؤية «Epeli Hau'Ofa» الذي قدّم المحيط بوصفه فضاءً رابطًا يكوّن هوية وثقافة شعوب الجزر في أوقيانوسيا، ومع طرح Craig Santos Perez الذي يرى أن المحيطات تشكّل شبكات ثقافية وبيئية عابرة للحدود القومية (Hau'Ofa, 2008; Perez, 2020; Stephens & Martínez-San Miguel, 2020).

كما تؤكد دراسات التفكير الأرخبيلي المعاصرة أن هذا المنظور يسعى إلى إعادة رسم الخرائط المعرفية في الإنسانيات العالمية، عبر تجاوز المركزية القارية التي تعطي الأفضلية لليابسة على الجزر. فبدل النظر إلى الجزر بوصفها فضاءات هامشية أو معزولة، يدعو التفكير الأرخبيلي إلى فهمها ضمن شبكات من العلاقات والحركات المائية المتعددة، حيث تُبرز العلاقات بين الجزر نفسها -لا بين الجزيرة والقارة فقط- بوصفها أساسًا لفهم التاريخ والثقافة والتبادل عبر البحار. ومن خلال التركيز على الاتصال، والتعدد، والحركة، يسعى هذا المنظور إلى تحرير المعرفة من السرديات القومية والاستعمارية التي ركزت على الحدود البرية والكيانات المفردة مثل الدولة أو اللغة أو الأمة (Stratford et al, 2011).

التفكير المحيطي و الكوكبي Oceanic and Planetary Thinking

يمثل التفكير المحيطي أحد المرتكزات الأساسية للإنسانيات الزرقاء، فقد دعا منتز إلى إعادة توجيه الدراسات الإنسانية نحو المحيطات بوصفها فضاءات مركزية لفهم التاريخ والثقافة والبيئة (Mentz, 2024). ويرى منتز أن البحر ليس مجرد خلفية للأحداث البشرية، بل فضاء ديناميكي يعيد تشكيل العلاقات بين البشر والبيئة عبر الزمن. كما تؤكد إليزابيث ديلوغري (Elizabeth، DeLoughrey) أن المحيطات تمثل أرشيفًا تاريخيًا وثقافيًا يحمل آثار الاستعمار والهجرة والتبادل الثقافي عبر القرون (DeLoughrey, 2017). ومن خلال هذا المنظور، تسمح الإنسانيات الزرقاء بإعادة قراءة التاريخ العالمي عبر الشبكات البحرية التي ربطت القارات والمجتمعات قبل ظهور الدولة القومية الحديثة. ومع تطور الحقل في العقدين الأخيرين، توسع هذا التفكير المحيطي ليأخذ بعدًا كوكبيًا يتجاوز دراسة البحار؛ بوصفها مساحات جغرافية إلى فهم الماء بوصفه نظامًا كوكبيًا متعدد الأشكال. ففي مقالته حول «شاعرية الماء الكوكبي (A Poetics of Planetary Water)» يوضح منتز أن الإنسانيات الزرقاء لم تعد تركز فقط على المحيطات والسفر عبرها، بل بدأت تهتم أيضًا بأشكال أخرى من الماء الكوكبي مثل المياه الموجودة في أجساد البشر، والجليد القطبي، وبخار الماء في الغلاف الجوي (Mentz, 2023). ويقترح منتز مفهوم «الشاعرية الكوكبية للماء» بوصفه إطارًا نظريًا لفهم العلاقات المعقدة بين البشر والمياه عبر مقاييس متعددة، من التجربة اليومية الصغيرة إلى العمليات البيئية الكوكبية. ويؤكد هذا التصور أن الماء، بوصفه المادة الطبيعية الوحيدة التي توجد في حالات ثلاث -السائلة والغازية والصلبة- يشكل الثقافة البشرية بطرق متعددة؛ فالمحيطات تمثل النظام المائي الأكبر على الكوكب، بينما يشكل بخار الماء والسحب ما يمكن تسميته «محيط الهواء»، في حين تلعب الأنهار الجليدية والكتل الجليدية دورًا ديناميكيًا في تنظيم المناخ الكوكبي. ومن خلال هذا المنظور، تسعى الإنسانيات الزرقاء إلى ربط التجارب البشرية اليومية بالمياه -مثل السباحة أو مشاهدة الفيضانات- بالقوى الكوكبية الكبرى التي تحكم النظام المائي للأرض (Mentz, 2023). كما تتقاطع هذه الرؤية مع دراسات حديثة حول الشاعرية الكوكبية للماء التي تؤكد أن التحول المعاصر في الدراسات البيئية يتمثل في الانتقال من التركيز على اليابسة إلى التركيز على المحيطات، ومن السرديات الخضراء إلى السرديات الزرقاء. وتشير هذه الدراسات إلى أن الإنسانيات الزرقاء تسهم في تعزيز الوعي بالمحيطات وبأهمية المعرفة البحرية (Ocean Literacy)، كما تدعو إلى إعادة التفكير في علاقتنا بالبيئات البحرية من أجل تحقيق الاستدامة البيئية وحماية التنوع الحيوي البحري (Preethamol, 2026). ومن خلال الجمع بين التفكير المحيطي والتفكير الكوكبي، تقترح الإنسانيات الزرقاء إطارًا معرفيًا جديدًا لفهم العالم بوصفه شبكة مترابطة من الأنظمة المائية التي تربط بين البيئات والثقافات والتاريخ البشري عبر مقاييس محيطية وكوكبية في آن واحد.

ثالثاً: تطبيقات وأبعاد اجتماعية وسياسية للإنسانيات الزرقاء

المجتمعات الساحلية والمعارف الأصلية

تقع المجتمعات الساحلية والشعوب الأصلية في قلب العديد من القضايا التي تعالجها الإنسانيات الزرقاء، إذ تعتمد هذه المجتمعات تاريخيًا على البيئات البحرية والنهرية في أنماط عيشها وثقافاتها ومعارفها البيئية. غير أن هذه المجتمعات تُعدّ من أكثر الفئات تأثرًا بآثار التغير المناخي، مثل ارتفاع مستوى سطح البحر، وتدهور النظم البيئية البحرية، وتغير أنماط الصيد والموارد الساحلية (Allison et al., 2020؛ DeLoughrey, 2019). وغالبًا ما تواجه هذه المجتمعات تحديات مرتبطة بحقوق الأراضي والوصول إلى الموارد ونقص التمثيل السياسي، مما يعيق قدرتها على التكيف مع التحولات البيئية المتسارعة (Ostler & Estes, 2019). كما أن السياسات المركزية كثيرًا ما تتجاهل المعارف البيئية التقليدية التي تمتلكها المجتمعات الساحلية، الأمر الذي يؤدي إلى حلول سياسية وتنموية منفصلة عن الواقع المحلي واحتياجات هذه المجتمعات (Valandra et al., 2019). وفي هذا السياق، تسهم الإنسانيات الزرقاء في إبراز ما تسميه كارين أيميموتو إنغرسول (Karin Amimoto Ingersoll) بـ «إبستمولوجيات المشهد البحري» (Seascape Epistemologies). وهي أنماط معرفية طورتها المجتمعات الأصلية في علاقتها الطويلة بالمحيطات والسواحل (Ingersoll,2016). وتشير إنغرسول إلى أن البحر في هذه الرؤى ليس مجرد مورد اقتصادي أو فضاء جغرافي، بل هو مجال معرفي وثقافي وروحي، تُبنى من خلاله العلاقات الاجتماعية والهوية الجماعية. وتشمل هذه المعارف أنظمة معقدة لفهم التيارات البحرية، ومواسم الصيد، وأنماط الهجرة الحيوانية، إضافة إلى تقاليد ملاحية وثقافية متوارثة عبر الأجيال. ومن خلال الاعتراف بهذه الإبستمولوجيات البحرية الأصلية، تسعى الإنسانيات الزرقاء إلى إعادة الاعتبار للمعرفة المحلية بوصفها مصدرًا أساسيًا لفهم النظم البيئية المائية وإدارتها بشكل أكثر عدالة واستدامة. وفي هذا الإطار، ربما يمكن توسيع تطبيق هذه المقاربة، لتشمل مجتمعات أصلية أخرى، ترتبط تاريخيًا ببيئاتها الساحلية، مثل المجتمع الفلسطيني على ساحل البحر المتوسط، حيث تشكل العلاقة مع البحر جزءًا من الذاكرة الثقافية وأنماط العيش المحلية. ومن هذا المنظور، تسمح الإنسانيات الزرقاء بإعادة قراءة هذه العلاقة في سياق أوسع يرتبط بتاريخ الاستعمار الاستيطاني والصراع على الموارد الساحلية، مظهرةً كيف يمكن للمعارف البيئية المحلية أن تسهم في فهم الأبعاد البيئية والثقافية والسياسية للفضاءات البحرية في السياقات الاستعمارية المعاصرة.

العدالة المائية وعدم المساواة البيئية

تركّز الإنسانيات الزرقاء أيضًا على قضايا العدالة المائية؛ بوصفها جزءًا من النقاش الأوسع حول العدالة البيئية. فالوصول إلى الموارد المائية والبحرية لا يتوزع بشكل متساوٍ بين المجتمعات، بل يتأثر بعلاقات القوة السياسية والاقتصادية وبأنماط الاستعمار التاريخي والتنمية غير المتكافئة. ومن خلال هذا المنظور، تكشف الإنسانيات الزرقاء كيف تُنتج السياسات الاقتصادية العالمية، وعمليات استخراج الموارد البحرية، وأنظمة الإدارة البيئية أشكالًا جديدة من عدم المساواة بين المجتمعات الساحلية والدول المختلفة (Campling & Colás, 2021؛ Steinberg, 2001). كما تسعى هذه المقاربة إلى إدماج أصوات المجتمعات المحلية والمعارف الأصلية في النقاشات المتعلقة بإدارة الموارد البحرية وصياغة السياسات البيئية (Oppermann, 2023).

الجيوسياسة المائية والسيادة البحرية

تسهم الإنسانيات الزرقاء في إعادة تعريف مفهوم السيادة من خلال التركيز على الفضاءات المائية بوصفها مواقع أساسية لتشكّل السلطة. فبدل التركيز الحصري على الحدود البرية، تنقل هذه المقاربة التحليل إلى البحار والمحيطات حيث تُمارَس السلطة عبر طرق الملاحة

والمضائق البحرية والقوانين البحرية والبنى التحتية المرتبطة بالماء (Dobrin, 2026). ومن هذا المنظور، لا تُقرأ البحار بوصفها فراغات فاصلة بين اليابسات، بل بوصفها فضاءات كثيفة تتقاطع فيها التجارة العالمية والهجرة والذاكرة التاريخية والنزاعات الجيوسياسية (Hofmeyr, 2019؛ Mentz, 2024). وهكذا تبرز الجيوسياسة المائية؛ بوصفها إطارًا لفهم كيفية تشكّل القوة السياسية والاقتصادية، عبر الشبكات البحرية العابرة للحدود. و توسّع الإنسانيات الزرقاء مفهوم الجيوسياسة ليشمل الفضاءات المائية؛ بوصفها مواقع مركزية لتشكّل السلطة. فبدل التركيز على الحدود البرية فقط، يدعو هذا المنظور إلى تحليل طرق الملاحة، والمضائق البحرية، والبنى التحتية المرتبطة بالماء بوصفها أدوات للهيمنة الاقتصادية والسياسية (Dobrin, 2026). وتشمل هذه الديناميات التحكم في طرق التجارة العالمية، واستخراج الموارد البحرية، وتطبيق القوانين البحرية، إضافة إلى الوجود العسكري في الفضاءات المائية. ومن خلال هذا التحليل، تكشف الإنسانيات الزرقاء أن البحر ليس مجرد مسرح للأحداث الجيوسياسية، بل فاعل مادي وثقافي يعيد تشكيل العلاقات بين الدول والمجتمعات والبيئات الساحلية.

الهجرة والذاكرة عبر البحار

تشكل البحار أيضًا فضاءات مركزية لحركات الهجرة والشتات الثقافي، حيث لعبت المحيطات دورًا تاريخيًا في نقل البشر والأفكار والثقافات عبر القارات. وقد أبرزت دراسات الإنسانيات الزرقاء كيف تعمل البحار بوصفها أرشيفات للذاكرة الجماعية المرتبطة بتاريخ العبودية والهجرة والتبادل الثقافي عبر الأطلسي والمحيط الهندي (Gilroy, 1993؛ DeLoughrey, 2017). ومن خلال هذا المنظور، يصبح البحر ليس مجرد مسار عبور، بل فضاءً يحمل آثار التجارب الإنسانية المتراكمة، ويعيد تشكيل الهويات والروابط الثقافية، عبر الحدود القومية. وفي هذا السياق، تشير العديد من الدراسات إلى أن المحيطات لا تُعدّ مجرد خلفية جغرافية للهجرة، بل هي عناصر فاعلة في تشكيل التجربة التاريخية والإنسانية نفسها. فقد حملت السفن عبر البحار ملايين البشر في سياقات مختلفة، من تجارة الرقيق عبر الأطلسي إلى الهجرات العمالية والتجارية عبر المحيط الهندي، مما أسهم في نشوء شبكات ثقافية عابرة للقارات. ومن هنا يصبح البحر فضاءً للذاكرة المتحركة، إذ تختزن مياهه قصص المعاناة والاقتلاع، كما تحمل في الوقت ذاته إمكانات التواصل والتبادل الثقافي. كما يفتح منظور الإنسانيات الزرقاء المجال لفهم الهجرة؛ بوصفها تجربة مائية، بقدر ما هي تجربة اجتماعية أو سياسية، حيث تتشكل الهويات الجماعية في سياق الرحلات البحرية والعبور، عبر الموانئ والسواحل. وتكشف هذه المقاربة أن البحار ليست فقط طرقًا للهجرة، بل هي أيضًا فضاءات تُعاد فيها صياغة الانتماءات الثقافية والذاكرة التاريخية، بحيث تتقاطع فيها روايات الألم والنجاة والاختلاط الثقافي، لتُنتج هويات هجينة تتجاوز حدود الدولة القومية.

البنية التحتية المائية والاقتصاد الأزرق

تولي الإنسانيات الزرقاء اهتمامًا متزايدًا بالبنية التحتية المرتبطة بالماء، مثل الموانئ وشبكات المياه والسدود والبنى اللوجستية البحرية، بوصفها عناصر محورية في تشكيل الاقتصاد العالمي والسلطة السياسية. وتشير بعض الدراسات إلى ما يمكن تسميته بـ«الهيدرولوجيا الاستعمارية»، أي الكيفية التي يُعاد بها تنظيم الفضاءات الحضرية والاجتماعية من خلال التحكم في مصادر المياه ومساراتها وإمكانيات الوصول إليها (Dobrin, 2026). ومن هذا المنظور، لا تُفهم البنية التحتية المائية بوصفها عناصر تقنية محايدة، بل بوصفها أدوات لإنتاج أنماط من السيطرة والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي. كما يرتبط هذا النقاش ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الاقتصاد الأزرق، الذي يشير إلى الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالمحيطات والبحار مثل النقل البحري، والصيد، والطاقة البحرية، والسياحة الساحلية، واستغلال الموارد البحرية. وقد بيّنت بعض الدراسات أن الاقتصاد الأزرق لا يقتصر على كونه إطارًا للتنمية المستدامة، بل يمثل أيضًا ساحة للتنافس الجيوسياسي، وإعادة تشكيل علاقات القوة بين الدول والشركات العالمية (Silver et al., 2015؛ Voyer et al., 2018). ومن هنا تسعى الإنسانيات الزرقاء إلى تحليل الخطابات والسياسات المرتبطة بالاقتصاد الأزرق، للكشف عن التوترات القائمة بين أهداف التنمية الاقتصادية والحفاظ على النظم البيئية البحرية وحقوق المجتمعات الساحلية. وتكشف هذه المقاربة أن البنية التحتية المائية- من الموانئ الكبرى إلى شبكات الأنابيب والمنصات البحرية- ليست مجرد أدوات تقنية لخدمة التجارة العالمية، بل هي أيضًا فضاءات تُعاد من خلالها صياغة الجغرافيا الاقتصادية والسياسية للعالم. فالموانئ، على سبيل المثال، تعمل بوصفها نقاط التقاء بين الاقتصاد العالمي والفضاءات المحلية، حيث تتقاطع فيها عمليات العولمة والتجارة البحرية مع قضايا العمل والهجرة والبيئة، مما يجعلها مواقع حاسمة لفهم العلاقة بين الماء والسلطة والاقتصاد في العصر المعاصر.

السياسات البيئية وحوكمة المحيطات

مع تزايد التحديات البيئية المرتبطة بالمحيطات، مثل التلوث البحري وتحمّض المحيطات وارتفاع مستوى سطح البحر، تسعى الإنسانيات الزرقاء إلى المساهمة في تطوير سياسات أكثر استدامة لإدارة الموارد البحرية. ويشمل ذلك تعزيز التعاون بين العلوم الطبيعية والإنسانيات الاجتماعية والثقافية من أجل فهم أعمق للعلاقة بين البشر والعوالم المائية (Allison et al., 2020؛ McKinley et al, 2023). ومن خلال هذا التكامل المعرفي، يمكن للإنسانيات الزرقاء أن تسهم في صياغة سياسات بيئية أكثر حساسية للبعد الثقافي والاجتماعي، بما يعزز حماية المحيطات والتنوع البيولوجي البحري على المستوى العالمي (Solnit, 2023؛ Strohmeyer, 2020). كما تؤكد هذه المقاربة أن حوكمة المحيطات لا يمكن أن تعتمد على الحلول التقنية أو العلمية وحدها، بل تحتاج أيضًا إلى فهم الأبعاد الثقافية والأخلاقية والسياسية المرتبطة باستخدام البحار ومواردها، إذ ترتبط قرارات إدارة المصايد البحرية، وحماية الشعاب المرجانية، وتنظيم الملاحة واستخراج الموارد بقضايا العدالة البيئية وحقوق المجتمعات الساحلية والأصلية التي تعتمد على البحار في سبل عيشها. ومن هنا تدعو الإنسانيات الزرقاء إلى نماذج حوكمة تشاركية، تأخذ في الاعتبار المعارف المحلية والتقاليد الثقافية إلى جانب المعطيات العلمية الحديثة (Christie et al., 2017؛ Steinberg, 2019)، كما تسهم في توسيع النقاش حول حوكمة المحيطات ليشمل إعادة التفكير في علاقة البشر بالمحيطات بوصفها أنظمة بيئية وثقافية مترابطة، بحيث لا تُفهم المحيطات بوصفها موارد اقتصادية فحسب، بل بوصفها فضاءات للحياة والذاكرة والثقافة، الأمر الذي يستدعي سياسات بيئية تتجاوز منطق الاستغلال نحو مقاربات تقوم على الاستدامة والعدالة البيئية والمسؤولية المشتركة تجاه الكوكب.

رابعاً: الإنسانيات الزرقاء في السياق العربي/ نحو الإنسانيات الزرقاء العربية

مع التوسّع السريع لحقل الإنسانيات الزرقاء خلال العقدين الأخيرين، لم يعد هذا الحقل مقصورًا على إطار نظري عام، بل بدأت تظهر داخله اتجاهات إقليمية متعدّدة، تعكس خصوصيات البيئات البحرية والثقافات المحلية والتجارب التاريخية المختلفة. فقد برزت «الإنسانيات الزرقاء

الأسترالية» (Australian Blue Humanities) التي تركّز على المحيط الهادئ، والاستعمار البحري، وعلاقة السكان الأصليين بالمياه (Newlands & Hansen, 2025). كذلك بدأت تتشكّل «الإنسانيات الزرقاء النوردية» (Nordic Blue Humanities) التي تدرس البيئات البحرية الشمالية وعلاقتها بالتغيّر المناخي والذاكرة البيئية والثقافات الساحلية في الدول الإسكندنافية (Briens, 2026). وفي هذا السياق المتنامي، تبرز الحاجة إلى «إنسانيات زرقاء عربية» امتدادًا نقديًا ومعرفيًا لهذا الحقل العالمي، من خلال إعادة قراءة التاريخ والثقافة والأدب العربي، من منظور بحري ومائي، يعيد الاعتبار للمحيطات والبحار والموانئ والممرات المائية؛ بوصفها فضاءات مركزية في تشكيل العالم العربي وتفاعلاته العابرة للحدود.

لكن حضور الإنسانيات الزرقاء في النقاش الأكاديمي العربي لا يزال غائبا بشكل كبير، على الرغم من أن المنطقة العربية، الممتدة من الخليج إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط، توفّر مادة غنية لتوطين حقل الإنسانيات الزرقاء، نظرًا لتشابك الماء فيها مع قضايا السيادة والتجارة والهجرة والذاكرة والاستعمار والبنية التحتية والعدالة البيئية. فهذه التشابكات تفتح إمكانات واسعة لإعادة قراءة التاريخ العربي والثقافة والسياسة في المنطقة، من منظور مائي، يتجاوز النموذج القومي الضيق المتمركز حول اليابسة، ويعيد إبراز الشبكات البحرية التي ربطت الموانئ والمدن العربية ، عبر قرون من التجارة والهجرة والتبادل الثقافي. غير أن ثمة إسهامات أكاديمية عربية ناشئة بدأت تكسر هذا الغياب وتُرسي أسس هذا الحقل في سياقاتها المحلية، و ربما يأتي في مقدمتها هذا البحث بوصفه خطوةً أولى في مسار بناء إنسانيات زرقاء عربية (Arabic Blue Humanities) متجذّرة في سياقاتها المحلية؛ إنسانيات تتميز بأنها لا تكتفي بنقل الأطر النظرية الغربية، بل تسعى إلى توطينها انطلاقاً من مياه المنطقة العربية وذاكرتها وصراعاتها. وبهذا تُسهم في إغناء النقاش الأكاديمي العالمي بصوت عربي يرى الماء بوصفه مرآةً للثقافة والسياسة والهوية.

ومن أبرز هذه البدايات و على الصعيد الأدبي الفلسطيني تحديداً ظهر مفهوم «الإنسانية الزرقاء الفلسطينية» (Palestinian blue humanism) الذي قدمه مؤخراً الأكاديمي الفلسطيني أيمن أبو شومر، بوصفه إطارًا نقديًا يجمع بين النقد البيئي ما بعد الاستعماري والعدالة البيئية و الإنسانيات الزرقاء في قراءته لرواية سوزان أبو الهوى «الأزرق بين السماء و الماء» *(The Blue Between Sky and Water)* من منظور بيئي أخلاقي. ويرى أبو شومر أن الرواية لا تصوّر غزة بوصفها إقليمًا محاصرًا فحسب، بل بوصفها عالمًا بيئيًا مدمَّرًا عمدًا، تتشابك فيه مجتمعات الصيد والأنهار ومخيمات اللاجئين والخيال المحيطي، في نسيج واحد من العنف البطيء والمقاومة الإيكولوجية (Abu-Shomar, 2026, pp. 3 -4). والأهم في هذا السياق أن الدراسة تُقدّم «الإنسانية الزرقاء الفلسطينية» بوصفها موضوعًا ومنهجًا في آنٍ واحد: موضوعًا يعبّر عن أفق أخلاقي متجذّر في الانتماء الهش إلى الشاطئ المحاصر، ومنهجًا يدعو إلى أخذ امتداد غزة البري- البحري بوصفه موقعًا جوهريًا لفهم تشابكات الرأسمالية العرقية والاستعمار الاستيطاني والعنف البيئي (Abu-Shomar, 2026, pp. 11–10). وبهذا يُمثّل هذا العمل نموذجًا استكشافيًا لما يمكن أن تُنتجه الإنسانيات الزرقاء حين تُوطَّن في السياق العربي وتنطلق من مياهه ومشكلاته وسردياته. وفي تطويرٍ لاحق لهذا المفهوم، وسّع أبو شومر بالتعاون مع الأكاديمي وائل جميل سلام أفق «الإنسانية الزرقاء الفلسطينية» ليشمل الأبعاد الجندرية والعابرة للأجيال، مع التركيز على دور المسطحات المائية بوصفها حوامل للذاكرة وأدوات للمقاومة المناهضة للاستعمار. ومن خلال دراسة فضاءَي نهر السقرير والبحر الغزّي، يبيّن الباحثان كيف أسهم الماء في تشكيل الهوية الفلسطينية عبر الزمن؛ فالنهر قبل النكبة يرمز إلى الانسجام الاجتماعي والروحي وإلى الحضور الفلسطيني الأصيل في المكان، لكنه تحوّل بفعل الاستعمار الاستيطاني إلى أرشيف للصدمة والفقد والاقتلاع. أما بحر غزة فيحمل دلالة مزدوجة؛ إذ يشكّل في آنٍ واحد فضاءً للمقاومة والصمود، ومسرحًا لمعاناة النساء وتجاربهن اليومية، قبل أن يتحول تحت وطأة الحصار إلى ما يشبه «السجن المائي» الذي يعكس أشكال العنف الاستعماري المستمرة (Salam & Abu-Shomar, 2026). وبهذا يرسخ الباحثان الماء بوصفه وسيطًا للذاكرة والهوية والعدالة البيئية، ويمنحان مفهوم «الإنسانية الزرقاء الفلسطينية» أبعادًا نسوية وتاريخية أكثر اتساعًا.

وإذا كانت هذه المقاربات تستثمر البُعد الأدبي والنقدي للإنسانيات الزرقاء، فإن المؤرخ الكويتي فهد بشارة (Fahad Bishara) قدم نموذجاً مهماً لدراسة تاريخ الخليج من منظور محيطي، من دون أن يستخدم مصطلح الإنسانيات الزرقاء صراحة. وقد ألف أبحاثا عدة باللغة الانجليزية تتناول تاريخ الخليج من منظور المحيط الهندي، معتمداً على البحر نفسه بوصفه إطاراً للتحليل، وأحياناً على وحدات تحليل أصغر مثل البازارات والأسواق التجارية، والسفن، والوثائق البحرية، والرحّالة أنفسهم/الناخوذة (nakhodas) بوصفهم فاعلين في شبكات الحركة والتبادل. ويستخدم بشارة مصطلح «خليج المحيط الهندي» (Indian Ocean's Gulf) ليؤكد أن تاريخ الخليج يرتبط ارتباطاً تاريخياً عميقاً بعالم المحيط الهندي وشبكاته التجارية والبحرية، أكثر مما يرتبط بالإطار الجغرافي والسياسي الضيق لما يُسمّى بالشرق الأوسط (Bishara, 2017; 2020; 2021; 2022; 2023). وقد تُرجم كتاب بشارة المعنون «بحر من الديون: القانون والحياة الاقتصادية في غرب المحيط الهندي، 1780-1950» إلى العربية على يد المؤرخ البحري الاماراتي أحمد يعقوب المازمي (بشارة، 2023).

وقد تعمّق هذا المنعطف البحري حين أجرى ستة باحثون (المازمي، وفهد بشارة، وتمارا فرناندو، وماندانا ليمبرت، ومايكل كريستوفر لو، ونانسي أُوم) ورشة علمية بعنوان «العربية المحيطية» (Oceanic Arabia)، ناقشت التحول المتزايد في الدراسات حول الخليج والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية نحو قراءة محيطية تربط المنطقة بشبكات المحيط الهندي وحركة الناس والبضائع والأفكار، وتستكشف آفاق هذا المنعطف البحري ومصادره الأرشيفية وإمكاناته المستقبلية في دراسة تاريخ المنطقة من منظور بحري أوسع (AlMaazmi et al., 2025). وعلى المستوى اليمني، نجد مبادرات بحثية مثل مشروع اليمن المحيطي (Oceanic Yemen) للباحثة جوخ أمين الشايف (Gokh Amin Alshaif) التي تسعى إلى إعادة التفكير في اليمن من منظور اليمن المحيطي بدل الاقتصار على اليمن الإقليمي المرتبط بإطار دراسات الشرق الأوسط، وذلك عبر توجيه النظر جنوبًا نحو عالم المحيط الهندي. ومن خلال هذا المنظور تظهر شبكات أوسع من التفاعلات مع شرق أفريقيا وجنوب وجنوب شرق آسيا، مما يكشف أدوار فاعلين تاريخيين متنوعين، مثل: التجار الحضارمة، وعاملات الزّار الأفريقيات، وعمال موانئ عدن، وتجار قهوة المخا، ويُبرز اليمن بوصفه فضاءً تاريخيًا متغيرًا ومتشابكًا يتجاوز الحدود التقليدية لدراسات المناطق.

كما بدأت تظهر مبادرات بحثية، تهدف إلى توطين و تطوير هذا الحقل في السياق العربي و منها إسهامات الأكاديمي اليمني محمد محرم التي تشمل طيفًا واسعًا من المقاربات المرتقبة (Muharram, forthcoming a-n)، التي تسعى إلى تطبيق أدوات «الإنسانيات الزرقاء» في السياق العربي؛ حيث يظهر هذا التنوع بدايةً في الأطر المفاهيمية والمنهجية التي يطرحها كتابه «مقدمة في الإنسانيات الزرقاء العربية» *(An Introduction to Arabic Blue Humanities)* (دار بلومزبري) ضمن سلسلة الإنسانيات الزرقاء التي يحررها منتز وأوبيرمان، ويسعى الكتاب إلى تقديم مدخل مفاهيمي؛ لدراسة العلاقة بين الماء والثقافة والسياسة في العالم العربي.

ويتناول كل فصل من فصوله فضاء مائيا عربيا كالبحر الأحمر والمتوسط ونهر النيل ودجلة والفرات وحتى المحيط الهندي، مع التركيز على العلاقة التبادلية بين الانسان العربي وهذه الفضاءات المائية في الأدب والشعر والفن والموسيقى والسياسة والتاريخ وغيرها من مجالات الحياة المختلفة. إضافة إلى ذلك يدرس محرم التاريخ الشفهي والسرد الساحلي في مضيق باب المندب. كما يمتد هذا المنظور البحري ليتتبع قراءة الروابط العابرة للمحيطات كالعلاقات العربية-الأسترالية في الرواية اليمنية، والامتداد المحيطي الهندي في مدينة «المخا» التاريخية، فضلاً عن مقاربة العلاقات العربية-الإيرانية ودراسات الخليج من منظور مائي. وفي سياق متصل، يتناول محرم قضايا الذاكرة والشتات العابر للبحار، عبر تحليل الفضاء السردي والرقمي للشتاتين السوري واليمني في البحر المتوسط، وإعادة قراءة تاريخ «البحارة اليمنيين» في الدراسات العربية الأمريكية، تزامناً مع تقاطع أبحاثه مع «الإنسانيات الخضراء» لبحث الذاكرة البيئية في الرواية العُمانية (أدب جوخة الحارثي)، وتتبع الذاكرة السينمائية للحرب العالمية الثانية من عدن إلى أوروبا. ولا تقتصر هذه المعالجات على الجوانب الثقافية والتاريخية، بل تركز أيضاً على البيئة والعدالة المناخية من خلال دراسة إشكالية «التهجير المناخي» في روايات الخيال العلمي العربي التي تتناول مدناً ساحلية كالإسكندرية، وصولاً إلى فحص تمثيلات الطفولة والذاكرة في سياق الحرب اليمنية ضمن أدب الأطفال المنشور باللغة العربية؛ وهي موضوعات يقدم تنوعها في المجمل إطاراً تطبيقياً يوسع من استخدامات الإنسانيات الزرقاء، كأداة تحليلية لفحص قضايا الهوية والتاريخ والبيئة في المنطقة العربية ومحيطاتها. وتكشف هذه الإسهامات مجتمعةً أن الإنسانيات الزرقاء بدأت تشقّ طريقها في الأكاديميا العربية، وإن ظلّت في بداياتها؛ و يُؤمَل أن يشهد هذا الحقل في المستقبل القريب اهتمامًا متزايدًا في السياق العربي، بما يسهم في توسيع النقاشات العلمية حول الماء والثقافة والسياسة في المنطقة، وفتح آفاق جديدة للبحث والدراسة. وانطلاقًا من هذه البدايات الواعدة، يسعى هذا القسم إلى استكشاف إمكانات توظيف الإنسانيات الزرقاء في قراءة بعض السياقات العربية، مثل: القدس وغزة والبحر الأحمر وباب المندب بوصفها فضاءات تتقاطع فيها المياه مع التاريخ والسياسة والبنية التحتية والاقتصاد، بما يفتح إمكانات جديدة لفهم التفاعلات الاجتماعية والثقافية في المنطقة.

القدس بوصفها فضاءً مائيًا

يمكن إعادة قراءة القدس لا بوصفها فضاءً دينيّاً أو قوميّاً فحسب، بل بصفتها أيضاً فضاءً مائيّاً سيالاً، أو نظام تدفقات هيدرولوجية تتداخل فيه الآبار التاريخية والينابيع مثل عين سلوان مع شبكات الأنابيب الحديثة والبنية التحتية المائية. ففي هذا المنظور، لا تعود البنية التحتية مجرد خدمة تقنية، بل تتحول إلى أداة سيادة تُمارَس من خلالها السلطة، وتُنتَج عبرها أنماط من اللامساواة المكانية والاجتماعية. وقد أشار إريك سوينغيداو (Erik Swyngedouw) إلى أن المدينة يمكن فهمها بوصفها «نتاجًا هيدرولوجيًا-اجتماعيًا»، حيث إن التحكم في تدفق المياه في البيئات الحضرية، يمثل في جوهره ممارسة سياسية، تعكس علاقات القوة والطبقية وأشكال الهيمنة الاستعمارية (Swyngedouw, 2004). ومن هنا تكشف مقاربة الإنسانيات الزرقاء كيف تُعاد هندسة الفضاء الحضري في القدس، من خلال ما يمكن تسميته بالهيدرولوجيا الاستعمارية، أي التحكم في مصادر المياه ومساراتها وإمكانيات الوصول إليها في سياق الاحتلال الإسرائيلي، بما يؤدي إلى إنتاج حدود غير مرئية داخل المدينة نفسها وأنماط من التفاوت في الوصول إلى الموارد الحيوية. وفي هذا السياق، لا يُنظر إلى المدينة بوصفها كتلة معمارية صلبة فحسب، بل بوصفها نظام تدفقات يشمل الماء والطاقة والنفايات والحركة البشرية ورؤوس الأموال، الأمر الذي يضع مسألة اللامساواة المائية في قلب التحليل الحضري: من يحصل على الماء؟ ومن يُحرم منه؟ وكيف تُستخدم البنية التحتية المائية كأداة للتمييز المكاني والاستعماري؟ وتظهر هذه الهيدرولوجيا الاستعمارية بوضوح في التباين بين وفرة المياه في المستوطنات الإسرائيلية مقابل ندرتها في العديد من الأحياء الفلسطينية، حيث يتحول الماء إلى ما يشبه «حدودًا سائلة» تعيد رسم ديموغرافيا المدينة وتعيد تنظيم المجال الحضري. ويمكن قراءة هذه الظاهرة في ضوء مفهوم العنف البنيوي الذي ناقشه روب نيكسون (Rob Nixon) في سياق «العنف البطيء»، حيث يظهر الحرمان من المياه كشكل من أشكال العنف البيئي طويل الأمد المرتبط بالبنى السياسية والاقتصادية للاحتلال، وهو عنف لا يترك آثارًا درامية فورية لكنه يقوّض شروط الحياة اليومية وإمكانيات الاستدامة الحضرية للفلسطينيين (Nixon, 2011). وفي الوقت ذاته، تسمح الإنسانيات الزرقاء بزعزعة القراءة الأرضية الصرفة لفلسطين، بما في ذلك القدس، عبر تجاوز ما يسميه بعض الباحثين بالتمركز الأرضي وإعادة وصل المدينة بالمتوسط وبالتواريخ البحرية وشبكات الحركة الساحلية التي همّشتها السرديات البرية. وفي هذا الإطار، يشير منتز إلى أن تفكيك هيمنة المنطق البري، يسمح برؤية التاريخ بوصفه شبكة من الاتصالات والتدفقات المفتوحة، وهو ما يتيح إعادة فهم فلسطين ليس فقط كأرض متنازع عليها، بل أيضًا كجزء من فضاء متوسطي أوسع من الحركات البحرية والتبادلات الثقافية، الأمر الذي يساعد على تجاوز العزلة الجغرافية والسياسية التي يفرضها الاحتلال، عبر إعادة إدراج فلسطين ضمن شبكات بحرية وتاريخية أوسع (Mentz, 2009). ومن هذا المنظور، تتقاطع الإنسانيات الزرقاء مع دراسات التخطيط الحضري العابر للاستعمار في قراءة المدينة؛ بوصفها فضاءً يتشكل عبر التدفقات -تدفقات ماء وسكان وتجارة ورؤوس أموال- لا عبر الحدود الصلبة وحدها، الأمر الذي يوسّع أفق النقد الحضري بإدخال مفاهيم العدالة المائية والهشاشة البيئية وسياسات البنية التحتية إلى قلب النقاش حول السيادة والحيز في فلسطين، وينقل النقاش من إطار النزاع العقاري الضيق إلى إطار أوسع يتعلق بالحق في الماء والبيئة والحياة الحضرية الكريمة.

غزة: قراءة زرقاء للصراع والسيادة

في السياق الغزّي، لا يمكن اختزال الصراع في حدوده البرية، إذ يتيح منظور الإنسانيات الزرقاء قراءة البحر بوصفه جزءًا من بنية الصراع ذاتها. فالساحل الغزّي يمثل فضاءً تُنتج داخله السلطة عبر التحكم في مدى الإبحار، وحقوق الصيد، والوصول إلى الموارد البحرية، بما يجعل البحر مجالًا لسيادة مقيدة، ومصدرًا للرزق اليومي، وحدًّا أمنيًا مراقبًا، وأفقًا للهجرة، وحيزًا للذاكرة في آن واحد (Dobrin, 2026, p.7; Abu Shomar, 2026, p.3). وفي هذا السياق، يصبح البحر عنصرًا فاعلًا في تشكيل الجغرافيا السياسية للحصار، إذ تُمارَس السيطرة ليس فقط على الأرض والحدود، بل أيضًا على الفضاءات المائية التي تحيط بالمدينة الساحلية. وتفيد كلوويك بأن العلاقة بين الماء والمجتمع علاقة تكوينية متبادلة، أي أن الماء والمجتمع يتخلّقان عبر تفاعلهما لا بوصفهما كيانين منفصلين (Kluwick, 2025, p. 2). وعليه، يصبح البحر في غزة ليس مجرد خلفية جغرافية، بل فاعلًا سياسيًا وثقافيًا يشكّل الحياة اليومية ويعيد تعريف العلاقة بين السيادة والحصار والحركة والرزق. كما تسمح الإنسانيات الزرقاء بقراءة البحر هنا بوصفه مشاعًا مائيًا تُمارَس عليه السلطة من خلال التحكم في الوصول والاستعمال والتمثيل (Dobrin, 2026, p. 7; Abu-Shomar, 2026, pp. 7–8). ويتجلى هذا البعد أيضًا في أحداث مثل أسطول الصمود (Gaza Freedom Flotilla)، حيث لم يكن البحر مجرد ممر جغرافي، بل ساحةً تتقاطع فيها السيادة، والشرعية الدولية، وحرية الملاحة،

والمقاومة الرمزية. ومن منظور الإنسانيات الزرقاء، لا يُقرأ هذا الحدث كواقعة سياسية فحسب، بل بوصفه لحظة تكشف أن البحر ذاته فضاء تفاوض وصراع ومعنى. كما تفتح المقاربة الزرقاء المجال لإعادة التفكير في الروابط التاريخية الأوسع التي ربطت غزة بشبكات بحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، بما في ذلك علاقاتها التاريخية مع اليمن. فقد أشارت بعض الدراسات الأثرية والتاريخية إلى وجود تشابهات لافتة بين أسماء نساء من غزة ظهرت في النقوش أو السجلات الأثرية، وبين أسماء منقوشة على أبواب خشبية ومخطوطات ومكتشفات أثرية في اليمن، الأمر الذي يوحي بإمكانية وجود تواصل تاريخي عبر طرق التجارة البحرية. وتلمّح هذه الشواهد إلى أن البحر لم يكن مجرد حد جغرافي، يفصل بين هذه المناطق، بل كان وسيطًا للحركة والتبادل الثقافي والبشري. ومن هذا المنظور، يمكن قراءة هذه التشابهات بوصفها آثارًا بعيدة لشبكات بحرية قديمة ربطت شرق المتوسط بالبحر الأحمر واليمن عبر مسارات التجارة والهجرة، وهو ما يعزز رؤية الإنسانيات الزرقاء للبحار؛ بوصفها فضاءات اتصال وتفاعل تاريخي تتجاوز الحدود السياسية المعاصرة.

البحر الأحمر وباب المندب: الجيوسياسة المائية في السياق اليمني

يبرز البحر الأحمر، ولا سيما مضيق باب المندب، بوصفه مثالًا واضحًا على ما يمكن تسميته الجيوسياسة الزرقاء، حيث تتقاطع المياه مع السلطة والتجارة العالمية والصراعات الإقليمية. فالمضيق ليس مجرد ممر بحري ضيق يفصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، بل يمثل إحدى أهم نقاط الاختناق البحرية التي تربط المحيط الهندي بالبحر المتوسط عبر قناة السويس، مما يجعله عقدة مركزية في سلاسل الإمداد العالمية وتدفقات الطاقة والتجارة الدولية. ومن منظور الإنسانيات الزرقاء، لا يُفهم هذا الفضاء المائي بوصفه فراغًا بين اليابسات، بل بوصفه بنية سياسية واقتصادية تتشكل عبرها علاقات القوة والحركة. وقد أشار فيليب شتاينبرغ (Philip Steinberg) إلى أن البحار ليست مجرد مساحات طبيعية، بل فضاءات اجتماعية وسياسية تُنتَج فيها السلطة عبر تنظيم الحركة البحرية والتحكم في الموارد المائية (Steinberg, 2001). وفي السياق ذاته، يوضح ليام كامبلينغ (Liam Campling) وأليخاندرو كولاس (Alejandro Colás) أن الرأسمالية العالمية اعتمدت تاريخيًا على البحار بوصفها بنية تحتية أساسية لتدفق السلع والطاقة، حيث تشكل الممرات البحرية والمضائق الاستراتيجية عناصر حاسمة في الاقتصاد السياسي العالمي (Campling & Colás, 2021). ومن هذا المنظور، يتحول باب المندب إلى فضاء تتقاطع فيه التدفقات البحرية، والتنافس العسكري، والبنية التحتية العالمية للنقل البحري. غير أن مقاربة الإنسانيات الزرقاء تدفع التحليل إلى ما هو أبعد من الجغرافيا الاستراتيجية، إذ تسلط الضوء أيضًا على العلاقة بين البحر والمجتمعات الساحلية والبيئات البحرية. فالمياه هنا ليست مجرد ممر للتجارة أو مسرح للتنافس العسكري، بل فضاء معيشة وثقافة وذاكرة لمجتمعات البحر الأحمر، بما في ذلك المجتمعات اليمنية التي ارتبط تاريخها بالبحر عبر الصيد والتجارة والهجرة. وفي هذا الإطار، تؤكد إليزابيث ديلوغري (Elizabeth DeLoughrey) أن المحيطات تكشف عن تاريخ طويل من التفاعلات بين البيئة والسياسة والاستعمار، حيث تتداخل الحركات البحرية مع شبكات السلطة والاقتصاد والثقافة (DeLoughrey, 2017). وعليه، يكشف المثال اليمني أن السلطة لا تُمارَس فوق الماء فحسب، بل من خلاله، وأن المضائق البحرية ليست مجرد تفاصيل جغرافية، بل بنى مركزية تعيد تشكيل خرائط القوة العالمية وتؤثر مباشرة في الحياة اليومية للمجتمعات الساحلية وفي التوازنات السياسية والاقتصادية الإقليمية. وبهذا المعنى يتيح باب المندب قراءة يمنية وعربية للإنسانيات الزرقاء، تربط بين الجغرافيا البحرية والحرب والتجارة والذاكرة الساحلية، وتدعو إلى دراسات لاحقة أكثر تفصيلًا حول الصيادين، والموانئ، والتهريب، والهجرة، والبيئة البحرية في البحر الأحمر.

الخاتمة

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن سؤال مركزي طالما غاب عن النقاش الأكاديمي العربي: ما الذي يمكن أن تضيفه الإنسانيات الزرقاء إلى فهمنا للماء؛ بوصفه فضاءً للثقافة والسياسة والذاكرة والصراع في المنطقة العربية؟ وقد كشفت المقاربات التطبيقية التي اقترحها البحث -من القدس بحقولها الهيدرولوجية الاستعمارية، إلى غزة بشاطئها المحاصر وصياديها المكبَّلين، إلى باب المندب بجيوسياسته المائية المتشابكة- أن الماء في السياق العربي ليس عنصراً طبيعياً محايداً، بل بنية سياسية وثقافية وأخلاقية تُشكّل الحياة اليومية وتُنتج أنماط الهيمنة والمقاومة على حدٍّ سواء. وقد تبيّن أن الإنسانيات الزرقاء توفّر أدوات تحليلية قادرة على تجاوز النماذج المتمركزة حول اليابسة والدولة القومية، وتُتيح إعادة قراءة التاريخ العربي والأدب والجغرافيا السياسية من منظور مائي يكشف ما تحجبه الحدود البرية عن الأنظار: الشبكات البحرية التاريخية، والذاكرة الساحلية، وأشكال العنف البيئي المائي، والهويات المحيطية التي صنعتها حركة الناس والبضائع والأفكار عبر البحار.

غير أن هذا البحث لا يدّعي الاستيفاء؛ فهو خطوة أولى في مسار أطول يحتاج إلى دراسات عربية متخصصة تتناول كل فضاء مائي بعمق أكبر: النيل وسياسات المياه الأفريقية، والخليج وتاريخه المحيطي الهندي، والمتوسط وسردياته الاستعمارية وما بعد الاستعمارية، واليمن بحضارته الساحلية المنسية. ويظل غياب الإنسانيات الزرقاء عن الكتابة الأكاديمية العربية تحدياً معرفياً يستدعي استجابة جماعية من الباحثين والباحثات العرب في الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم السياسية والدراسات البيئية-استجابةً لا تكتفي باستيراد الأطر الغربية؛ بل تُغنيها وتُساءلها وتُعيد توطينها انطلاقاً من خصوصية المياه العربية وذاكرتها وصراعاتها.

المراجع

المراجع العربية

- بشارة، فهد أحمد. (٢٠٢٣). *بحر من الديون: القانون والحياة الاقتصادية في غرب المحيط الهندي، ١٧٨٠–١٩٥٠*. ترجمة أحمد يعقوب المازمي، دار المحيط للنشر.

- محرم، محمد. (مرتقب ٢٠٢٦). عين بثينة: قراءات في تمثيل الطفولة والذاكرة في حرب اليمن من منظور الإنسانيات الزرقاء. *طيف*. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.

المراجع الأجنبية

- Abu-Shomar, A. (2026). Palestinian blue humanism: ecocritical ethics and environmental violence in Susan Abulhawa's *The Blue Between Sky and Water. Cogent Arts & Humanities,* 13(1), Article 2670157. https://doi.org/10.1080/23311983.2026.2670157.

- Alaimo, S. (2010). *Bodily natures: Science, environment, and the material self*. Indiana University Press.

- Alaimo, S. (2019). Introduction: Science studies and the blue humanities. *Configurations*, 27(4), 429–432. https://dx.doi.org/10.1353/con.2019.0028.

- AlMaazmi, A. Y., Bishara, F. A., Fernando, T., Limbert, M., Low, M. C., & Um, N. (2025). Oceanic Arabia: A roundtable. *Monsoon: Journal of Indian Ocean Rim*, 3(2), 125–137. https://doi.org/10.1215/2834698X-11954462.

- Allison, E. H., Kurien, J., Ota, Y., Adhuri, D. S., Bavinck, J. M., Cisneros-Montemayor, A., Fabinyi, M., Jentoft, S., Lau, S., Mallory, T. G., Olukoju, A., van Putten, I., Stacey, N., Voyer, M., & Weeratunge, N. (2020). The human relationship with our ocean planet. *World Resources Institute*. https://oceanpanel.org/publication/human-relationship-our-ocean-planet/.

- Bailey-Charteris, B. (2024). *The Hydrocene: Eco-aesthetics in the age of water*. Routledge.

- Bakker, J. (forthcoming 2026). Blue religion. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.

- Bakker, J. M. (2019, November 6). Offshore: Descending into the Blue Humanities. *Counterpoint: Navigating Knowledge.* http://www.counterpointknowledge.org/offshore-descending-into-the-blue-humanities/.

- Biro, A. (2013). River-adaptiveness in a globalized world. In C. Chen, J. MacLeod, & A. Neimanis (Eds.), *Thinking with water* (pp. 166–184). McGill-Queen's University Press.

- Bishara, F. (2017). *A sea of debt: Law and economic life in the Western Indian Ocean, 1780–1950*. Cambridge University Press.

- Bishara, F. (2020). The many voyages of Fateh Al-Khayr: Unfurling the Gulf in the age of oceanic history. *International Journal of Middle East Studies*, 52(3), 397–412. https://doi.org/10.1017/S0020743820000367.

- Bishara, F. (2021). History at sea: Route and world on an Indian Ocean dhow. *Matatu*, 52, 9–34. https://doi.org/10.1163/18757421-05201001.

- Bishara, F. (2022). Circulation and capitalism in a maritime bazaar: Notes from a pearl merchant's chest. *Comparative Studies in South Asia, Africa and the Middle East*, 24(1), 107–117. https://doi.org/10.1215/1089201X-9698138.

- Bishara, F. A. (2023). The Sailing Scribes: Circulating Law in the Twentieth-Century Indian Ocean. *Law and History Review*, 41(3), 587–604. https://doi.org/10.1017/S0738248022000402.

- Blackstock, M. (forthcoming 2026). Blue ecology. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.

- Blum, H. (2010). The Prospect of Oceanic Studies. *PMLA/Publications of the Modern Language Association of America*, 125(3), 670–677. https://doi.org/10.1632/pmla.2010.125.3.670.

- Blum, H. (2013). Introduction: oceanic studies. *Atlantic Studies*, 10(2), 151–155. https://doi.org/10.1080/14788810.2013.785186

- Braverman, I., & Quist, S. (forthcoming 2026). Blue law. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), The *Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.

- Brayton, D. (2012). *Shakespeare's ocean: An ecocritical exploration*. University of Virginia Press.

- Briens, S. (2026). *Nordic Blue Humanities*. https://www.etudes-nordiques.fr/nordic-blue-humanities/

- Brinkman, J. E., Dorius, B., & Sharma, S. (2023). Physiology, body fluids. In *StatPearls*. StatPearls Publishing. https://www.ncbi.nlm.nih.gov/books/NBK482447/.

- Bubandt, N. (forthcoming 2026). Blue anthropology. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), The *Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.
- Buchanan, I., & Jeffery, C. (2019). Towards A Blue Humanity. *Symploke*, 27(1-2), 11–14. https://www.proquest.com/scholarly-journals/towards-blue-humanity/docview/2311126155/se-2?accountid=14136.
- Campling, L., & Colás, A. (2021). *Capitalism and the sea: The maritime factor in the making of the modern world*. Verso.
- Chen, C., MacLeod, J., & Neimanis, A. (Eds.). (2013). *Thinking with water*. McGill-Queen's University Press.
- Christie, P., Bennett, N. J., Gray, N. J., Wilhelm, T. A., Lewis, N., Parks, J., Ban, N. C., Gruby, R. L., Gordon, L., Day, J., Taei, S., & Friedlander, A. M. (2017). Why people matter in ocean governance: Incorporating human dimensions into large-scale marine protected areas. *Marine Policy*, 84, 273–284. https://doi.org/10.1016/j.marpol.2017.08.002.
- Cohen, J. J., & Duckert, L. (Eds.). (2015). *Elemental Ecocriticism: Thinking with Earth, Air, Water, and Fire*. University of Minnesota Press.
- Cohen, M. (2010). Literary Studies on the Terraqueous Globe. *PMLA*, 125(3), 657–662. http://www.jstor.org/stable/25704462.
- De Wolff, K., Faletti, R. C., & López-Calvo, I. (Eds.). (2022). *Hydrohumanities: Water discourse and environmental futures*. University of California Press.
- DeLoughrey, E. (2017). *Allegories of the Anthropocene*. Duke University Press.
- DeLoughrey, E. (2017). Submarine futures of the Anthropocene. *Comparative Literature*, 69(1), 32–44. https://doi.org/10.1215/00104124-3794589.
- Dobrin, S. I. (2021). *Blue ecocriticism and the oceanic imperative*. Routledge.
- Dobrin, S.I. (2026). Blue Humanities. In: *Encyclopedia of the Anthropocene*. Springer, Cham. https://doi.org/10.1007/978-3-031-51703-7_106-1.
- Foley, P., & Silver, J. J. (Eds.). (2026). *Routledge handbook of critical ocean studies*. Routledge.
- Foulke, R. (1997). *The sea voyage narrative*. Routledge.
- Frank, S. (2022). *A poetic history of the oceans: Literature and maritime modernity*. Brill.
- Gillis, J. R. (2011). Filling the Blue Hole in Environmental History. *RCC Perspectives*, 3, 16–18. http://www.jstor.org/stable/26240275.
- Gilroy, P. (1993). *The Black Atlantic: Modernity and double consciousness*. Harvard University Press.
- Glissant, E. (1997). *Poetics of relation* (B. Wing, Trans.). University of Michigan Press.
- Haraway, D. J. (2016). *Staying with the trouble: Making kin in the Chthulucene*. Duke University Press.
- Harris, D. (forthcoming 2026). Blue linguistics. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.
- Hau'Ofa, E. (2008). *We are the ocean: Selected works*. University of Hawai'i Press.
- Hofmeyr, I. (2012). The complicating sea: The Indian Ocean as method. *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 32(3), 584–590. https://doi.org/10.1215/1089201X-1891579.
- Hofmeyr, I. (2019). Literary ecologies of the Indian Ocean. *English Studies in Africa*, 62(1), 1–7. https://doi.org/10.1080/00138398.2019.1629677.
- Horden, P., & Purcell, N. (2006). The Mediterranean and "the new thalassology." *The American Historical Review*, 111(3), 722–740. https://www.jstor.org/stable/10.1086/ahr.111.3.722.
- Iovino, S., & Oppermann, S. (2014). Introduction: Stories come to matter. In S. Iovino & S. Oppermann (Eds.), *Material ecocriticism* (pp. 1–17). Indiana University Press.
- Jue, M. (2020). *Wild blue media: Thinking through seawater*. Duke University Press.
- Jue, M. (forthcoming 2026). Blue philosophy. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.
- Jue, M., & Ruiz, R. (Eds.). (2021). *Saturation: An elemental politics*. Duke University Press. https://doi.org/10.1215/9781478013044.
- Kluwick, U. (2025). Blue humanities. In *The living handbook of environmental humanities* (pp. 1–6). Springer. https://doi.org/10.1007/978-3-662-70886-6_14-1.

- Lavery, C. (2019). Antarctica and Africa: Narrating alternate futures. *Polar Record*, 55(5), 347–350. https://doi.org/10.1017/S0032247419000743.
- Lavery, C. (2021). *Writing ocean worlds: Indian Ocean fiction in English*. Palgrave Macmillan.
- McKenzie, M. (forthcoming 2026). Blue history. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.
- McKinley, E., Burdon, D., & Shellock, R. (2023). The evolution of ocean literacy: A new framework for the United Nations Ocean Decade and beyond. *Marine Pollution Bulletin*, 186, 114467.
- Mentz, S. (2009). Toward a blue cultural studies: The sea, maritime culture, and early modern English literature. *Literature Compass*, 6(5), 997–1013. https://compass.onlinelibrary.wiley.com/doi/abs/10.1111/j.1741-4113.2009.00655.x.
- Mentz, S. (2019). *Break up the Anthropocene*. University of Minnesota Press.
- Mentz, S. (2020). *Ocean*. Bloomsbury Academic.
- Mentz, S. (2023). A poetics of planetary water: The blue humanities after John Gillis. *Coastal Studies & Society*, 2(1), 137–152. https://doi.org/10.1177/26349817221133199.
- Mentz, S. (2024). *An introduction to the Blue Humanities*. Routledge.
- Muharram, M. (2025). Making the invisible visible: How the Blue Humanities translate climate change to the public. *Public Humanities*, 1, e120, 1–22. https://doi.org/10.1017/pub.2025.10046.
- Muharram, M. & K. Knopf (forthcoming 2026a). Blue postcolonialism. In S. Mentz, M. Muharram, S. Oppermann, & S. Young (Eds.), *The Bloomsbury handbook to the Blue Humanities*. Bloomsbury.
- Muharram, M. (forthcoming 2026b). *Arabic Blue Humanities: An introduction*. Bloomsbury.
- Muharram, M. (forthcoming 2026c). Voices of Bab al-Mandab: Oral poetry and coastal storytelling as participatory Blue Humanities methodologies. In E. McKinley & K. Alexander (Eds.), *Handbook on innovative marine social sciences.* Edward Elgar Publishing.
- Muharram, M. (forthcoming 2026d). Centring peripheries, transcending boundaries through the Blue Humanities: Arab Australian oceanic encounters in fiction on Yemen. In *The Palgrave Handbook of Global Oceanic Encounters*. Palgrave Macmillan.
- Muharram, M. (forthcoming 2026e). Memory studies and the Blue Humanities: The Mediterranean as a narrative nexus in Syrian and Yemeni diaspora's transmedia postdigital storytelling. In *Writing diaspora in the 21st century: Transmedial passages in postdigital times*. Brill.
- Muharram, M. (forthcoming 2026f). Re-imagining Arab American studies from a Blue Humanities perspective: Yemeni sailors as a case study. In *Re-Imagining Arab American Studies*. University of Texas Press.
- Muharram, M. (forthcoming 2026g). When the land meets the sea: Green and Blue Humanities perspectives on eco-diaspora and environmental memory in Jokha Alharthi's *Celestial Bodies*. In *Green Humanities*. Authorspress.
- Muharram, M. (forthcoming 2026h). From Aden to Europe via transoceanic currents: A comparative Blue Humanities reading of cinematic global memory of war. In *World War II – Through the Eyes of the Arts of the World*. Fink Publishing.
- Muharram, M. (forthcoming 2026i). Two futures for Alexandria: Blue Humanities, climate displacement, and Arabic climate fiction. *Public Humanities*.
- Muharram, M. (forthcoming 2026j). Blue postcolonialism and climate change in Arabic fiction. In *Encyclopedia of the Anthropocene*. Springer.
- Muharram, M. (forthcoming 2026k). Arabic Blue Humanities and the Indian Ocean in *Mocha City* (2022) and In *an Antique Land* (1992). *Journal of South Asian Studies*.
- Muharram, M. (forthcoming 2026l). Oceanic borderlands and Arabic Blue Humanities: Reading Yemen's *Mocha City.* In F. Bille (Ed.), *Intersections*. Oxford University Press.
- Muharram, M. (forthcoming 2026m). Applying Blue Humanities to Gulf studies through the Yemeni novel *Mocha City*. Al-*Muntaqa: New Perspectives on Arab Studies*. Doha Institute for Graduate Studies.
- Muharram, M. (forthcoming 2026n). Iran–Arab relations through the Blue Humanities. *Siyasat Arabiya*. Doha Institute for Graduate Studies.

- Neimanis, A. (2017). *Bodies of water: Posthuman feminist phenomenology*. Bloomsbury Academic.
- Neimanis, A. (2024). Foreword. In T. Shefer, V. Bozalek, & N. Romano (Eds.), *Hydrofeminist thinking with oceans: Political and scholarly possibilities*. Routledge.
- Newlands, M., & Hansen, C. (Eds.). (2025). Routledge environmental humanities. *Critical approaches to the Australian blue humanities*. Routledge Taylor & Francis Group.
- Oppermann, S. (2013). Enchanted by Akdeniz: The Fisherman of Halicarnassus's narratives of the Mediterranean. *Ecozon@: European Journal of Creative Writing and Nature*, 4(2), 100–116. https://doi.org/10.37536/ECOZONA.2013.4.2.531.
- Oppermann, S. (2023). *Blue humanities: Storied waterscapes in the Anthropocene*. Cambridge University Press.
- Oruc, F. (2022). Thalassological worldmaking and literary circularities in the Indian Ocean. *Comparative Literature*, 74(2), 147–155. https://doi.org/10.1215/00104124-9543818.
- Perez, C. S. (2020). "The Ocean in Us": Navigating the Blue Humanities and Diasporic Chamoru Poetry. *Humanities, 9(3),* 66. https://doi.org/10.3390/h9030066.
- Preethamol, M. K. (2026). Discourse on the poetics of planetary water: A study on blue humanities. *Literary Voice*, 26(1). https://doi.org/10.59136/lv.2026.26.1.43.
- Price, R. (2017). Afterword: The last universal commons. *Comparative Literature*, 69(1), 45–53. https://doi.org/10.1215/00104124-3794599.
- Salam, W. J., & Abu-Shomar, A. (2026). Decolonizing the Blue Humanities: The Palestinian journey of displacement, expulsion and homelessness in Susan Abulhawa's *The Blue Between Sky and Water. Arab Studies Quarterly*, 48(1), 5–27. https://doi.org/10.13169/arabstudquar.48.1.0002.
- Samuelson, M. (2022). The blue Anthropocene and the oceanic south: Reading containerisation and inundation diffractively. In *Water lore* (1st ed., pp. 147–154). Routledge.
- Silver, J. J., Gray, N. J., Campbell, L. M., Fairbanks, L. W., & Gruby, R. L. (2015). Blue economy and competing discourses in international oceans governance. *The Journal of Environment & Development*, 24(2), 135–160. https://doi.org/10.1177/1070496515580797.
- Steinberg, P. E. (2001). *The social construction of the ocean*. Cambridge University Press.
- Steinberg, P., & Peters, K. (2015). Wet ontologies, fluid spaces: Giving depth to volume through oceanic thinking. *Environment and Planning D: Society and Space*, 33(2), 247–264. https://doi.org/10.1068/d14148p.
- Stephens, M., & Martínez-San Miguel, Y. (Eds.). (2020). *Contemporary archipelagic thinking: Toward new comparative methodologies and disciplinary formations*. Rowman & Littlefield.
- Stratford, E., Baldacchino, G., McMahon, E., Farbotko, C., & Harwood, A. (2011). Envisioning the archipelago. *Island Studies Journal*, 6(2), 113–130. https://doi.org/10.24043/isj.253.
- Swyngedouw, E. (2004). *Social power and the urbanization of water: Flows of power*. Oxford University Press.
- Tvedt, T. (2021). *Water and society: Changing perceptions of societal and historical development*. I.B. Tauris.
- Valandra, E., Estes, N., & Dhillon, J. (2019). Mni Wiconi: Water is [more than] life. In N. Estes & J. Dhillon (Eds.), *Standing with Standing Rock*: Voices from the #NoDAPL movement (pp. 71–89). University of Minnesota Press.
- Voyer, M., Quirk, G., McIlgorm, A., & Azmi, K. (2018). Shades of blue: What do competing interpretations of the Blue Economy mean for oceans governance? *Journal of Environmental Policy & Planning*, 20(5), 595–616. https://doi.org/10.1080/1523908X.2018.1473153.
- Williams, R. (2013). *The fisherman of Halicarnassus: The man who made Bodrum famous*. Bristol Book Publishing.
- Winkiel, L. (Ed.). (2019). Hydro-criticism. *English Language Notes*, 57(1). https://doi.org/10.1215/00138282-7309633.
- Yaeger, P. (2010). Editor's column: Sea trash, dark pools, and the tragedy of the commons. *PMLA*, 125(3), 523–545. https://www.jstor.org/stable/25704454.

عبيد، إبراهيم، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 42-26، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/1wjbb159

نظرية الردع في العلاقات الدولية: استراتيجية الردع الأمريكية في مواجهة التهديد الصيني بضم تايوان، (دراسة حالة)

إبراهيم عبيد

الملخص

تُعد نظرية الردع بمجملها عمليةً ديناميكيةً متكاملةً، تتداخل في صياغتها العديد من الدوافع والأهداف، وتأخذ أشكالاً وأنماطاً متعددة. مارست الدول قديماً هذه الاستراتيجية، بهدف منع قيام طرف بتهديد مصالح طرف آخر، واعتمدت على الردع العسكري بالدرجة الأولى، والردع الاقتصادي في أحيانٍ أخرى. ومع تطور الأنظمة السياسية، وتنوع أساليب وأدوات الردع -سعت الدول الكبرى لفرض هيمنتها على النظام الدولي معتمدةً على القوة، وقوة الردع. ومن هنا، سعت الدراسة لتناول نظرية الردع في العلاقات الدولية، مسلطةً الضوء على استراتيجية الردع الأمريكية تجاه المساعي الصينية لضم تايوان التي تُشكل أهميةً جيواستراتيجية للصين والولايات المتحدة في آنٍ واحدٍ. توصلت الدراسة لاستنتاجات، أبرزها: أن الولايات المتحدة وجدت صعوبةً كبيرةً في ممارسة الردع تجاه الصين، لأن الأخيرة تتعامل باستراتيجية دقيقة ومدروسة؛ تقوم على المصلحة الوطنية الصينية أولاً، بالإضافة لما تمتلكه من قدراتٍ وإمكاناتٍ (اقتصادية وبشرية وتقنية)، ما تواجه به استراتيجية الردع الأمريكية، وهذا ما يجعل قدرة الولايات المتحدة الامريكية على ردع الصين محدودة، ومدروسة بدقة متناهية.

الكلمات المفتاحية: العلاقات الدولية، نظرية الردع، الصين، الولايات المتحدة الأمريكية، تايوان.

The Theory of Deterrence in International Relations: The U.S. Deterrence Strategy in Confronting the Chinese Threat to Annex Taiwan (A Case Study)

Ibrahim Obaid

ABSTRACT

Deterrence theory as a whole is a dynamic, integrated process whose formulation is intertwined with multiple motives and objectives, taking political, economic, military, and cultural forms. States have historically practiced this strategy to prevent one party from threatening the interests of another. They relied primarily on military deterrence and, at times, on economic deterrence. With the development of political systems and the diversification of deterrence methods and tools, major powers have sought to impose their hegemony over the international system through force and deterrence. This study addresses deterrence theory in international relations, highlighting the U.S. deterrence strategy regarding China's ongoing efforts to annex Taiwan, a territory of geostrategic importance to both countries. The study reached several conclusions, the most prominent being that the U.S. has faced, and continues to face, great difficulty in implementing a deterrence strategy toward China, which pursues a precise, well- calculated approach based on its supreme national interests and substantial capabilities to confront American deterrence. This renders the U.S. ability to deter China limited, with its measures applied with extreme caution.

Keywords: International relations, deterrence theory, China, United States of America, Taiwan.

الدكتور إبراهيم يوسف عبيد، أستاذ مشارك في العلاقات الدولية- جامعة الأقصى، غزة، فلسطين. للمراسلة: Ibrahim281179@hotmail.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس, (www.alquds.edu).

Dr. Ibrahim Yousef Obaid, Associate Professor in International Relations, Al-Aqsa University, Gaza, Palestine. For correspondence: Ibrahim281179@hotmail.com.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

تتنوع الاستراتيجيات والأدوات التي توظفها الدول في إدارة صراعاتها ضمن أنساق البيئتين الإقليمية والعالمية/الدولية. وتسعى الدول في البحث عن الوسائل الدبلوماسية (العقلانية والرشادة) للوصول لحلٍ رادعٍ لهذا الطرف أو ذاك، وقد تفشل وسائل الردع ذات الطابع السلمي في تحقيق الغاية المطلوبة. لذلك، تتجه الدول إلى استخدام وسائل أكثر خشونةً (الردع الاقتصادي والعسكري) الذي يتضمن المزيد من التصعيد. ومن هنا، تعددت النظريات التي تناولت إدارة الصراع، وأدواته، وحرصت الدول الكبرى على استخدامه بما يحقق مصالحها، ويحافظ على ميزان القوة لصالحها. لذلك، برزت نظرية الردع؛ كإحدى النظريات التي استخدمت خلال الحرب الباردة، لمنع الخصم من القيام بأعمال تهدد مصالح الطرف الآخر.

لكن، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالتحكم في مدخلات ومخرجات النظام الدولي، سعت الأخيرة لاستخدام الردع كأداةٍ لمنع تفوق القوى الدولية الأخرى عليها، ومنعها من التأثير في تفاعلات وبُنية النسق الدولي، لا سيما الصين؛ التي بدأت تنافس الولايات المتحدة في آسيا الوسطى، والشرق الأوسط، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ومنطقة الكاريبي، فضلاً عن محاولات المنافسة معها في مناطق التخوم الصينية كجزيرة تايوان، وبحر الصين الجنوبي.

وفي إطار هذا التنافس، لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى توظيف استراتيجية الردع بشقيها (الاقتصادي والعسكري) تجاه الصين، من خلال السلوك الأمريكي تجاهها فيما يتعلق بتايوان التي تعتبرها الصين جزءاً من الوطن الأم، في حين لا تتوانى الإدارات الأمريكية المتعاقبة عن تجديد تحالفها ودعمها لتايوان، وإبرام صفقات دفاعية واقتصادية معها؛ ضمن استراتيجية ردع تهدف لمنع الصين من ضمها (سلماً أو حرباً).

وشكلت مسألة تضاد الاستراتيجيات الصينية والأمريكية تجاه تايوان، واحتمالية انعكاسها على الأمن الإقليمي والدولي والنظام العالمي دافعاً لهذا العمل البحثي. تأسيساً على ما سبق، سعت الدراسة إلى استعراض وتحليل نظرية الردع في العلاقات الدولية، مع تسليط الضوء على استراتيجية الردع الأمريكية لمنع الصين من ضم تايوان.

مشكلة الدراسة

تُشكل جزيرة تايوان رمزاً حيوياً للصين في مسيرة نهضتها الوطنية، كما تُشكل رمزاً للهيمنة الأمريكية على العالم، مما شكل لها دافعاً لاتباع استراتيجية شملت سلسلة متنوعة من التدابير والإجراءات الردعية في تقييد، ومواجهة توجه الصين وتهديدها بضم تايوان. وينبثق من هذه المشكلة التساؤل المحوري الرئيس:

ما أشكال وأساليب إجراءات استراتيجية الردع الأمريكية في مواجهة التوجه الصيني بضم جزيرة تايوان؟

ويتفرع عن التساؤل الرئيس؛ التساؤلات الفرعية التالية:

ماذا يعني مفهوم وماهية الردع في حقل/ نظرية العلاقات الدولية؟

ما أساليب وأدوات الردع الأمريكية خلال وبعد حقبة الحرب الباردة؟

ما احتمالية إقدام الصين على عملية عسكرية لضم جزيرة تايوان؟

كيف سيكون الرد الأمريكي على عمل عسكري صيني في تايوان؟

ما مدى نجاح أو فشل استراتيجية الردع الأمريكية تجاه الصين في مساعيها لضم جزيرة تايوان؟

أهداف الدراسة

توضيح مصطلح الردع لغةً واصطلاحاً، مع التركيز على نظرية الردع في سياق حقل العلاقات الدولية.

التعرف على نماذج من استراتيجية الردع الأمريكية تجاه العديد من الدول خلال مرحلة الحرب الباردة، وما بعدها.

رصد وتحليل وتقييم استراتيجية الردع الأمريكية تجاه الصين لمنعها من ضم جزيرة تايوان.

بيان الأهمية الاستراتيجية لجزيرة تايوان في المنظور الإستراتيجي لكل من الصين والولايات المتحدة.

تشخيص مدى نجاح وفشل إجراءات الردع الأمريكية ضد الصين في ثنيها عن ضم تايوان.

وضع سيناريو احتمالية قيام الصين تنفيذ تهديدها بضم تايوان من خلال عملية عسكرية.

تحليل احتمالية الرد الأمريكي على تنفيذ الصين لتهديدها بضم تايوان.

فرضية الدراسة

انطلقت الدراسة من فرضية مفادها: أن نظرية الردع ما تزال قائمة وتُمارس في العلاقات الدولية المعاصرة، وتسعى من خلالها الدول إلى تحقيق مصالحها الحيوية. وقد دفعت الثورة التكنولوجية الدول الكبرى للاستفادةِ من قوة الردع في مواجهة أطراف دولية، وخاصةً الصين التي تتطلع لتصبح قوةً مؤثرةً على الساحة الدولية. ولعل هذا التوجه ما يدفع الصين لاستعادة جزيرة تايوان باعتبارها جزءاً من الصين الأم، ومكانتها في الإدراك الاستراتيجي الصيني نظراً لأهميتها الجيواستراتيجية والجيواقتصادية. وهذا ما يتناقض مع الإدراك الاستراتيجي الأمريكي تجاه الجزيرة، مما دفع الولايات المتحدة لاتباع استراتيجيات ردعية متنوعة تهدف لتقويض المساعي الصينية.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في نقطتين أساسيتين، الأولى أن الولايات المتحدة ما تزال تنظر لنفسها كدولةٍ مهيمنةٍ ومسيطرةٍ على النسق الدولي، وبالتالي تستطيع -من خلال ما تمتلكه من قوة وتأثير على الساحتين الإقليمية والدولية- أن تفرض رؤيتها على منطقة شرق وجنوب شرق آسيا، بما يُمكنها من محاصرة الصين، وتحجيم دورها الإقليمي والدولي عبر حلفائها في المنطقة لا سيما؛ اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايوان. والثانية أن تايوان تُشكل أهميةً كبيرةً بالنسبة للصين من الناحيتين التاريخية والاستراتيجية، وبالتالي لن تقف الصين مكتوفة الأيدي تجاه السلوك الأمريكي، فهي تسعى لتغيير هذا السلوك من خلال تعظيم قوتها الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية، مستفيدةً في الوقت ذاته من امتلاكها للقوة البشرية الديموغرافية. ومن هنا، فإن الدراسة تُمثل أهميةً ستساهم في تحليل استراتيجية الردع الأمريكية تجاه الصين التي تهدف إلى محاصرتها، والتلويح بمواجهتها عسكرياً، وعزلها دولياً، إذا أقدمت على ضم تايوان، أو انتهاك سيادتها.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة على عدة مناهج في تحليل نظرية الردع، واستراتيجية الردع الأمريكي، وهي:

١- المنهج الوصفي التحليلي: يقوم هذا المنهج على تحديد مجموعةٍ من الخصائص، حول العلاقة بين المتغيرات من أجل الفهم الدقيق والإحاطة بالأبعاد الواقعية لهذه العلاقة. ويرتكز على تحديد الظواهر المراد بحثها، وجمع المعلومات عنها، وفحصها، ومحاولة الإحاطة بالأبعاد الأخرى من أجل الانتقال من الفهم البسيط إلى الفهم المركب (الرافعي، ١٩٩٨، ص. ١٢٢). وقد تم توظيف هذا المنهج في استعراض وتحليل استراتيجية الردع الأمريكية، من خلال التطرق لأبرز الأدوات والوسائل التي استخدمتها في تنفيذ هذه الاستراتيجية.

٢- المنهج التاريخي: يقصد به، الطريقة التي تعمل على تحليل وتفسير الحوادث التاريخية كأساسٍ لفهم المشاكل المعاصرة، والتنبؤ بما ستكون عليه الأحداث المستقبلية، وقد عرفه الدكتور «حسين نزار» بأنه: مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي والمؤرخ للوصول الى الحقيقة التاريخية، واعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه (إدريس، ٢٠٠٨، ص. ٢١٥)، كما عرفته الدكتورة «فتحية فرحاتي»، بأنه: وضع الأحداث والوقائع التي حدثت في الماضي القريب أو البعيد موضوع الفحص والتقصي العلمي، بغية فهمها وتفسيرها، والوقوف على أسبابها وأثارها على حياة المجتمع والأفراد، أو التأكد منها، أو نفيها أو تعديلها، وإعادة بنائها (حوتية، ٢٠٢٠، ص. ٢١٨). وقد تم توظيف هذا المنهج في استعراض حالات ونماذج الردع التي مارستها القوى الكبرى خلال المراحل التاريخية المنصرمة.

٣- المنهج الفلسفي: يهدف المنهج إلى تطوير معايير الصواب والخطأ؛ بغرض إجراء تقييمات مفاهيمية ونقدية، كما يشير إلى الجهود المبذولة للوصول إلى الحقيقة من خلال استخدام العقل. ويوضح خبير الفلسفة السياسية «لفيرنون فان دايك»، بأن هدف المنهج الفلسفي بهذا المعنى هو: وضع معايير للخير والحق والعدل، وتقييم أو وصف الممارسات السياسية في ضوء هذه المعايير (Burroughs, 2022, p .6). لذا، وظفت الدراسة هذا المنهج واستخدمته في تفسير المفاهيم واستضاحها.

٤- منهج المصلحة القومية (الوطنية): يستند المنهج على أن الهدف الرئيس للسياسة الخارجية هو: تحقيق المصلحة القومية العليا للدولة. وبالتالي، فإن المصلحة القومية هي القوة المحركة والموجهة للسياسة الخارجية، وهي المقياس العام الذي يُمكن بواسطته الاستدلال على العوامل التي تحدد السلوك الخارجي لأي دولةٍ عضوٍ في المجتمع الدولي (مقلد، ١٩٩١، ص. ٢٢). وقد تم توظيف هذا المنهج، لفهم العوامل والأسباب والخلفيات التي دفعت الولايات المتحدة إلى انتهاج استراتيجية الردع تجاه الصين.

٥- نظرية الصراع: تتمحور هذه النظرية -كمقترب في العلاقات الدولية- حول تصارع الإرادات الوطنية، وهو التصارع الناتج عن الاختلاف في دوافع الدول، وتصوراتها، وأهدافها، وتطلعاتها. وكذلك، في مواردها وإمكاناتها، مما يؤدي في النهاية إلى اتخاذ قرارات، أو انتهاج سياسات خارجية تختلف أكثر مما تتفق (مقلد،١٩٩١، ص. ٤٤٥)، وقد تم توظيف هذه النظرية في تحليل ظاهرة التنافس الصراعي الصيني-الأمريكي.

٦- المنهج الاستشرافي: يهدف المنهج إلى الكشف عن المشكلات ذات الطبيعة المستقبلية، والعمل على إيجاد الحلول العملية لها، كما يهدف إلى تحديد اتجاهات الأحداث، وتحليل المتغيرات المتعددة للموقف المستقبلي، الذي يمكن أن يكون له تأثير على مسار الأحداث في المستقبل (جندلي، ٢٠١٧، ص. ٣٠). وقد وظّفت الدراسة هذا المنهج في استشراف فاعلية الردع الأمريكي تجاه الصين.

الأدبيات السابقة

تناولت دراسة تامر محمد عبد اللطيف، «الاستراتيجية الأمريكية تجاه طموحات الصعود الصيني» (٢٠٢٤)، الصراع الاستراتيجي الأمريكي- الصيني على الهيمنة على النسق الدولي، وذلك في سياق عمل الولايات المتحدة في الحفاظ على مكانتها كدولةٍ مهيمنةٍ على النسق الدولي، وعلى خلفية الصعود الصيني- والذي تعتبره الولايات المتحدة الأمريكية تهديداً استراتيجياً خطيراً لها، ومحاولةً لمنعها من الوصول إلى مكانة الدولة المهيمنة باعتبار الصين دولة تعديلية تسعى لتعديل ترتيب سلم القوى في النسق الدولي بما يتوافق مع مصالحها، وبما ينهي الهيمنة الأمريكية– وهذا ما تتناوله هذه الدراسة، من خلال تسليط الضوء على الاستراتيجيات الأمريكية المتتالية والمختلفة التي تبنتها لتحجيم الصعود الصيني، وكبح جماحه بما يضمن استمرار التفوق الأمريكي، والمحافظة على حرمان الصين من أي ميزةٍ تنافسيةٍ معها، وبالتالي ضمان بقاء ترتيب سلم القوى في النسق الدولي بالشكل الذي يحافظ على الهيمنة الأمريكية، وكذلك بالأسلوب الذي يضمن إبعاد المنافسين الاستراتيجيين الرئيسيين. وبينت الدراسة، أن الجهد الأمريكي حقق نجاحاً في تحقيق أهداف الولايات المتحدة، وذلك بالرغم من استمرار الصعود الصيني، وبالرغم من أن الصين هي ثاني أكبر دائن للولايات المتحدة، واستمرار تحقيق الميزان التجاري بين الولايات المتحدة والصين فائضاً كبيراً لصالح الصين. وبينت الدراسة أيضاً، أن المجهود الأمريكي حقق نجاحاً في تحقيق أهداف الولايات المتحدة (نسبياً). أما دراسة إس تشايس مايكل وتشان آرثر، «نهج الصين المتطور إزاء الردع الاستراتيجي المتكامل» (٢٠١٦)، فقد استندت على سلسلةٍ من المنشورات العسكرية الصينية، تتعلق بمفاهيم الردع الاستراتيجي في الصين الآخذة في التطور كاستجابة للتغيير الملحوظ في تقييم الصين لبيئتها الأمنية الخارجية، والتركيز المتنامي على حماية مصالحها المتزايدة في الفضاء، والفضاء الإلكتروني. وفي الوقت نفسه، محاولة الصين التعافي مما كان يُعرف بالفجوة الكبيرة ما بين قدرات الأسلحة الاستراتيجية التي يمتلكها جيش التحرير الشعبي الصيني من جهةٍ، والمفاهيم الراسخة حيال الردع الاستراتيجي من جهةٍ أخرى. وتؤكد الدراسة؛ أن لدى الصين مفهوم واسع للردع الاستراتيجي: فهو يتضمن مجموعة متعددة الأبعاد من القدرات العسكرية، وغير العسكرية التي تجتمع معاً لتشكل موقف «الردع الاستراتيجي المتكامل» اللازم لحماية مصالح الأمن القومي في الصين عبر وضع مجموعة شاملة ومتناسقة من قدرات الردع الاستراتيجية، وعلى وجه الخصوص؛ القدرات العسكرية متعددة الأنواع -بما فيها القدرات النووية والقدرات التقليدية، والقدرات الفضائية، وقوات الفضاء الإلكتروني- التي تشكل مكوناتٍ هامةٍ للردع الاستراتيجي الجدير بالثقة.وتوصلت الدراسة لنتيجة مفادها: أن الاستراتيجيين الأمريكيين ينظرون إلى الردع الاستراتيجي على أنه يشمل الثلاثي النووي، بالإضافة إلى قدرات أخرى؛ كالضربات الجوية بعيدة المدى، والفضاء الإلكتروني، والدفاع الصاروخي، وأنظمة الفضاء. ناهيك عن القدرات الدبلوماسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية- التي تساهم أيضاً في الردع الاستراتيجي إلى جانب القدرات العسكرية. ودراسة رايان هاس وجود بالنشيت, «الطريقة الصحيحة لردع الصين عن مهاجمة تايوان القوة الصلبة الأمريكية ليست كافية»، (٢٠٢٣)، فرصدت المساعي الأمريكية المتزايدة الهادفة لردع الصين عن غزو تايوان أو حصارها. معتمدةً على السلوك الصيني، وسعي القيادة الصينية للسيطرة على تايوان، والردود الأمريكية

على هذه التهديدات، عبر تحذير القادة العسكريين الأمريكيين كرئيس القيادة الأمريكية في المحيطين الهندي والهادئ، الأدميرال «ديفيدسون»، ورئيس العمليات البحرية الأدميرال «مايك جيلداي»- من أن الصين قد تهاجم تايوان بحلول عام ٢٠٢٧م، وبموجب سياسة »صين واحدة». في المقابل، تحتفظ الولايات المتحدة بوجودٍ عسكريٍ كبير في غرب المحيط الهادئ. ولكن مع تزايد التحركات الصينية في مضيق تايوان ومحيطه. وقد توصلت الدراسة لعدة نتائج، أهمها: أن صانعي السياسات في الولايات المتحدة يعتقدون أن حسم الصراع بين الصين وتايوان سيدفع الولايات المتحدة إلى استخدام القوة الصلبة في مواجهة هذه المساعي.

قدمت الدراسات السابقة كماً (معرفياً وتحليلياً) وافراً عن استراتيجيات الولايات المتحدة في مواجهة التوسع الصيني المتنامي، والمساعي الأمريكية لمحاصرتها. وفي هذا الإطار، تسعى هذه الدراسة إلى سد الفجوة البحثية- جزئياً- من خلال تأصيل وتحليل لنظرية الردع عموماً، واستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة التهديد الصيني المتنامي تجاه تايوان، والمحاولات والتهديدات الصينية الرامية لضمها على وجه الخصوص، وهو ما يميز هذه الدراسة، والتي تسلط الضوء بشكلٍ مفصلٍ على الجهد الأمريكي بشقيه الاقتصادي والعسكري في مواجهة المساعي الصينية الهادفة لضم تايوان، كما تأمل الدراسة أن تخرج بنتائج توضح مسار وجدوى الردع الأمريكي ومآلاته.

نظرية الردع (إطار نظري)

تتعدد الاستراتيجيات والوسائل التي تُستخدم في إدارة النزاعات والصراعات الدولية؛ فعادةً ما تلجأ الدول للبحث عن الوسائل السلمية للوصول إلى حلٍ يُرضي كافة أطراف النزاع أو طرفيه، وأحياناً تفشل هذه الجهود، ويتجه أطراف النزاع إلى المزيد من التصعيد. ومن هنا، تعددت النظريات التي تناولت الردع، وتنوعت الأدوات المستخدمة في تنفيذه. فالدول الكبرى مثلاً؛ تحرص على استخدامه ضمن إستراتيجياتها بهدف المحافظة على استمرار تفوقها وهيمنتها. وقد برزت نظرية الردع كإحدى النظريات التي استخدمت خلال الحرب الباردة- وما بعدها- لمنع الخصم تهديد مصالح الطرف الآخر. من هذا المنطلق، تناولت الدراسة مفهوم الردع كمصطلح ونظرية، مع تسليط الضوء على نظرية الردع في العلاقات الدولية، وذلك من خلال العناصر التالية:

أولاً- مفهوم الردع وتفسيراته

الردع لغةً: عرّف أهل اللغة الردع بأنه: الكف والمنع، فيقال: ردعته عن الشيء ردعاً فارتدع، أي: كففته فكف (الجوهري، ٢٠٠٩، ص. ٤٣٦)، وقيل إن الرادع، هو المانع والزاجر؛ أي ما يردع عن فعل أمراً ما، فنقول: عقوبة رادعة، وقانون رادع، ورادع أخلاقي، ورادع ديني، ويقال أيضاً: الإجرام بحاجة إلى رادع (المنجد، ٢٠٠١، ص. ٤٥٤)، أي أن المقصود بالردع عموماً هو المنع. **والردع اصطلاحاً:** يعني الامتناع عن الاعتداء خوفاً من عاقبة الرد التي ستكون في نتائجها أقوى وأبلغ أثراً، ويحتاج الردع إلى قوةٍ ماديةٍ ملموسةٍ ممثلة في الأفراد والعدد والعتاد، كما يحتاج إلى قوةٍ معنوية محسوسة، متمثلة في الشجاعة والإقدام والصبر والمثابرة والمهارة والحنكة والدهاء (الخولي، ٢٠٢٠، ص. ٣٠). ويُعّرف الردع في الفقه الإستراتيجي؛ بأنه: «نمط وقائي يهدف إلى منع أي عدوٍ محتملٍ من التحرك عسكرياً، أو التهديد بالانتقام الذي يُمثل في نتائجه المادية المتوقعة خطراً قياساً بالأهداف السياسية التي يرغب هذا العدو في تحقيقها من مبادرته العدوانية» (دورتي، وبالستغرام، ١٩٨٥, ص. ٢٤٥).

وقد أشار القرآن الكريم لضرورة امتلاك القوة، بما يساهم في ردع المعتدين، فقال تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وكلمة «ترهبون» هنا تحمل معنى الردع بشكلٍ واضحٍ. فإذا شعر الآخرون بأن لدى المسلمين منَعةً وقوةً؛ قد يدفع ذلك العدو للتراجع عن استهدافهم، لأن ذلك سيكون مكلفاً للعدو، وبالتالي ستردعهم هذه الرهبة عن البدء بالعدوان (الشهابي، ٢٠٢٣، ص. ٢٣). لذلك، جاء في القول المأثور: إن الله يزعُ بالسلطان ما لا يزع بُالقرآن؛ أي أن قوة السلطان وسطوته تجعل المذنب والمخالف يخشاه أكثر من خشيته وخوفه من العقوبة التي نص عليها القرآن الكريم.

نظرية الردع في العلاقات الدولية: تُعد نظرية الردع من الخطط التي تُبنى على فرضية تهديد الخصم بالخسائر التي قد تلحق به إذا ما أقدم على القيام بأعمالٍ تضر بأمن الدولة الرادعة، وتلجأ الدولة الرادعة لعدة وسائل لتثني الخصم عن تهديد مصالحها أو التسبب في نشوب حرب بينهما. إن فكرة الردع هي فكرة قديمة، وقيل: «إذا كنت تريد السلام، فعليك التجهز للحرب» فالقلاع الرومانية مثلاً، وخط ماجينو الفرنسي الدفاعي، وما قاله ليوني بأن: «إثبات القوة كي لا يكون ثمة حاجةً لاستعمالها». إن هذه الأدلة تؤكد بأن استراتيجي عصر (ما قبل النووي) كانوا يطبقون فكرة الردع. فقد كان الردع موجوداً على الرغم من أن مفهومه يُعد من المفاهيم الحديثة، وذلك لأن «الردع النووي» هو من الأسلحة غير التقليدية، مع أنه يلعب، مثل الأسلحة الباقية دوراً سياساً وعسكرياً، فإن دوره الأساسي يقوم -وهنا تبرز جديته واختلافه مع الأسلحة التقليدية- في وجوده، وليس في استخدامه (العقابي، ٢٠١٠، ص. ٢٢١). وتتراوح أساليب القيام بذلك، من استخدام القوة، إلى استخدام الوسائل الدبلوماسية.

مارست الإمبراطوريات القديمة هذه النظرية وطبقتها في سياستها الخارجية، فقد أورد المؤرخ والفيلسوف ريجيرد «بأن الإغريق اتبعوا هذه الخطط في الصراع بين الأثينيين والإسبارطيين»، وأكد ذلك المؤرخ الإغريقي «ثوقيديدس» بالقول: «عندما يكون هناك خوف متبادل، يفكر الرجال مرتين قبل أن يهاجموا بعضهم البعض» (Lebow, 2018). لذلك كان القادة العسكريين في الإمبراطورية الرومانية يقولون: «إذا رغبت في السلم فاستعد للحرب» (عبد الحق، ٢٠١٩، ص. ٢٧٠).

لم يقتصر استخدام هذا المصطلح عند الإغريق فحسب، بل استخدمه الصينيون القدامى، فقد ذكر «سون أتزو» عام ٥١٢ ق.م في كتابه «فن الحروب»: «إن هزيمة العدو دون قتال تتطلب مهارةً أكبر من المهارة المطلوبة لتحقيق النصر في ميدان المعركة» (Tuz, 1910, p. 10) وفي إطار هذا التفسير، يعتقد «أتزو»: أن القتال والانتصار في جميع المعارك لا يعد مهارةً، فالمهارة تتمثل في كيفية كسر إرادة العدو دون الدخول معه في قتال، والاحتفاظ بجاسوس في الداخل يعادل جيش بأكمله (Tuz, 1910, p. 172)، أي إذا نجحت الدولة في كسر رغبة خصومها في الحرب، فهو يعد انتصاراً يفوق في مكاسبه خوض الحرب والانتصار فيها. وبذلك فهو يركز على المناورة أكثر من قوة النيران، والمناورة تتضمن أساليب سياسية ودبلوماسية، وبالتالي فإن «أتزو» يفضل أن يهزم القائد العسكري خصمه دون اللجوء إلى القتال (Gartzke, 2014, p. 9)، بمعنى آخر، أن القادة القدماء كانوا مدركين خطورة الحرب بأبعادها السياسية والعسكرية، وأهمية المناورة والدبلوماسية في اقناع الخصم بعدم الانجرار وراء الحرب، لما لها من تداعيات عميقة وخطيرة على كلا الطرفين. أما «نيقولا ميكافيللي» فقد ذكر في كتابه «فن الحرب»: «إن الحروب أصابت الأمراء بالفقر، تماماً كما أصابت المهزومين به أيضاً» (ميكافيللي، ٢٠١٥، ص. ٢٠)، وهي إشارة عن حجم الخسائر الكبيرة التي تلحق بالمعتدي والمعتدى عليه بسبب الحرب، فتجنب الحرب، وعدم الانجرار وراءها دون حساب قيمة الربح والخسارة، يوصل المهزوم إلى معادلة صفرية.

مُورست نظرية الردع أيضاً في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد وصف «كارل كلاوفيتز» مفهوم إحالة الخصم بالخطر الذي لا يهيمن على القائد من خلال تهديده فقط، بل من خلال تهديد كافة من معه فيما يملك (The Carter Center, 2020)، كما استعمل الأميرال «ألفريد ماهان» مصطلح الردع عام ١٨٩٥م مراتٍ عدة في تفسيره لنظرية الحصار البحري، وكان يُفهم منه؛ استعمال القوات اللازمة والضرورية في المكان المناسب، والتي من شأنها أن تغير اتجاه الإجراءات العسكرية المتخذة من طرف الخصم (لزهر، ٢٠٢٠، ص. ٢٤٥).

وتحدث الخبير البحري البريطاني «جوليان ليب» عن القوة الرادعة، ونصح المارشال الفرنسي «فيليب بيتان» -خلال الحرب العالمية الأولى- بضرورة إعداد قوة جوية مستقلة قادرة على تهديد ألمانيا بقنبلة ردعية، وخلال الحرب العالمية الثانية؛ قررت الولايات المتحدة الأمريكية تعزيز قدراتها الردعية عبر نقل الأسطول الأمريكي إلى ولاية هاواي ليكون قريباً من اليابان بهدف ردعها، وبالفعل استخدمت الولايات المتحدة الردع بإلقاء القنبلة الذرية على مدينتي «هيروشيما وناغازاكي»، وأجبرت اليابان على الاستسلام (عبد الحق، ٢٠١٩، ص. ٢٧٠).

وفي إطار هذه النظرية، فسّر وزير الدفاع الأمريكي الأسبق «أشتون كارتر» الخوف الناتج من الردع، بأنه: «يحتوي على كلمة الإرهاب، وهذا يعني القيام بإرهاب شخص ما كي لا يقوم بفعل شيء لا ترغب بأن يقوم به من خلال العواقب التي قد تترتب على قيامه بهذا العمل. وبالتالي، فهو يجني نتائج ما قام به» (The Carter Center, 2020)، وهذا يعني؛ أن القدرة على إقناع الخصم بعدم اتخاذ قرار؛ قد تؤدي إلى استخدام القوة ضده، وفي حال اتخذ القرار بالمواجهة فإن الخسارة التي سوف يجنيها من وراء هذا الفعل تفوق المكاسب. ويصف قائد الجيوش الأمريكية الحالي الجنرال «مارك ميلي» الردع، بأنه: «أحد أهم عناصر الردع؛ هو: التأكد من أن خصمك يعرف أن تكلفة هذا العمل تتجاوز المنفعة» (مجدوبي، ٢٠٢٣، ص. ١٠).

وعرّف رئيس المخابرات المصرية الأسبق «أمين هويدي» الردع بأنه: «منع الأطراف من اللجوء إلى القوة، أو فن عدم استخدام القوة بالرغم من وجودها، أو فن تجنب القتال» (هويدي، ١٩٨٣، ص. ٣٢). ويفسر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «هنري كيسنجر» الردع بأنه: «يستلزم تركيبة قوة، وإرادة لاستعمالها، وتقدير المعتدي مادياً، فالردع هو مادةً لهذه العوامل، وليس مقداراً، فإذا لم يتوفر عامل من هذه العوامل، فإن الردع يفشل»، في حين يفسره الجنرال الفرنسي «لوسيان بواريه» بأنه: «استراتيجية تقوم على اتصال ندّين، يسعى كلٌ منها لإظهار القوة، والآثار التي قد تترتب عليها حال استخدامها» (لزهر، ٢٠٢٠، ص. ٢٤٩). فالردع في تفسير «بواريه»: «يعتبر نمطاً وقائياً لاستراتيجية غير الممكن، عن طريق استهداف تغيير سلوك الطرف الآخر بإقناعه بعقلانية الحركة التي ينوي القيام بها.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبحت الولايات المتحدة في وضعٍ يؤهلها لإعادة تأهيل العالم وفق رؤيتها، وهذا ما أكده «هنري كيسنجر»: «أدت نتائج الحرب العالمية الثانية أن تصبح أمريكا مؤهلةً لإعادة صب العالم بأسره وفق القالب الأمريكي» (علي، ٢٠٠٩، ص. ٥). وقد استند كيسنجر على التفوق الأمريكي العسكري (امتلاك الأسلحة النووية) والاقتصادي (إعادة إعمار أوروبا) معتقداً أن هذا التفوق سيساهم في هيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي، لكن وجود الاتحاد السوفيتي -القوة الموازية- شّكل عائقاً أمام الطموح الأمريكي في السيطرة على العالم وقيادته وقتئذٍ (Jervis, 2003, p. 83). وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي زال ما كان يحد من الهيمنة الأمريكية لتعود هذه الفكرة من جديد بعد انتهاء العوامل المسببة. وفي ضوء هذه التفسيرات، يمكن تعريف الردع بأنه: مفهوم سياسي يبحث في الوسائل الكفيلة بمنع الخصم من البدء بهجومه خوفاً من الرد عليه بطريقة تسبب له خسائر فادحة على كافة المستويات.

اجمالاً، إن الردع يعني تقديم أدلة للعدو لا يمكن إخفاؤها عن توفر المقدرة الثأرية التي تكفل معاقبته بشدة عن أي محاولةٍ من جانبه لإثارة الحرب لتحقيق مكاسب معينة على حساب الدولة الرادعة، وبالتالي، فإن الردع يمتلك أبعاداً سيكولوجيةً بالأساس مرتبطة بشخصية صانع القرار ومحيطه، ولا يمكن تحقيقها إلا عبر أسلوب التهديد، الذي لا بد أن يرافقه دليل مرئي، وتصميم يؤكد ترجمة هذا التهديد إلى واقعٍ عملي، وفعل مادي. وليس بالضرورة أن يصل الردع إلى مستوى استخدام القوة، وإنما قد يُرّكز بالأساس على حشد عناصر القوة والتلويح بها. لذلك، فإن الردع هو تهديد جدي، وعلى الخصم أن يأخذه بعين الاعتبار. وقد أخذ الردع أهميته في وقتنا الراهن، بسبب وجود السلاح النووي، وهو ما يعرف بـ«الردع النووي» في ظل التطور الكيفي والكمي في إنتاج هذا النوع من الأسلحة.

ثانياً: مفهوم الاستراتيجية وتفسيراتها

تعدد وتباين مفهوم الاستراتيجية تبعاً لتطورها عبر المراحل الزمنية المختلفة، وطبقاً لأفكار ومعتقدات المفكرين. وفي ضوء هذا التباين تتناول الدراسة في هذا القسم مفهوم الاستراتيجية لغةً واصطلاحاً، مع إجراء مقاربة بين مدارس الفكر الإستراتيجي الصيني والأمريكي المتعلقة بالردع.

الاستراتيجية لغةً: وجد مصطلح الاستراتيجية في العديد من اللغات الأوروبية بشقيها، الإغريقي واللاتيني؛ فعلى سبيل المثال: تجد في الألمانية «Strategie»، وفي الروسية «Strategija»، وفي الهنغارية «Strategi»...إلخ، والثابت أن لفظ الاستراتيجية مشتق أساساً من اللغة الإغريقية؛ وهي كمفردة «Strato»، تعني الجيش، وكمفهوم «Strategos» تعني فن القيادة، وتشير إلى الخدعة القتالية عندما تشتق من المصطلح «Strategem»، وقد نقلها الرومان عن الإغريق من خلال كتابات القائد الروماني «سيكستوس» عام ١٠٠ ق.م، مستفيدين من عمليات المخادعة والمراوغة العسكرية التي استخدمتها سيكستوس وقادته العسكريين في معاركهم ضد أعدائهم. أما في اللغة الإنجليزية فقد استخدم لفظ الاستراتيجية لأول مرة عام ١٦٨٨م، وفي اللغة الفرنسية استخدمت عام ١٧٨٩م، أما العرب والمسلمون فقد وظفوا هذا المصطلح للدلالة على الفروسية والاقتتال، كما عّربت دولٍ أخرى أصل المصطلح باللغة الأجنبية ليصبح الاستراتيجية، ودول أخرى استخدمت مصطلح «السوق» لتعني فن تحريك الجيوش وإدارة المعارك، ومصطلح التعبئة ليقابل مصطلح التكتيك (الكبيسي، ٢٠١٠، ص. ٦). **والاستراتيجية اصطلاحاً:** وتأثر مفهوم الاستراتيجية -أسوةً بالمصطلحات الأخرى في مجال العلوم الاجتماعية عبر المراحل الزمنية والمكانية- بعمليات التطوير التحديث، ولم يستقر المصلح على حالٍ واحدةٍ، فقد تباينت تعريفات المفكرين والسياسيين والعسكريين من المدرستين الشرقية والغربية، وكذلك المفكرين العرب.

فعلى مستوى المدرسة الشرقية؛ عرفها الزعيم الروسي «فلاديمير لينين» بأنها: «التي تتضمن تأخير العمليات إلى الوقت الذي يسمح فيه الانهيار المعنوي للخصم للضربة المميتة بأن تكون سهلةً وممكنةً»، في حين عرفها الزعيم الصيني «ما وتسي تونغ» بأنها «دراسة قوانين الوضع الكلي للحرب» (باسط، ٢٠١٦، ص. ٢٤)، أما على مستوى المدرسة الغربية؛ فقد عرفها «كلازويتر» بأنها: «فن الاستخدام في المعارك، كوسيلة للكسب أو الوصول إلى هدف الحرب» (باسط، ٢٠١٤، ص ص. ٢٢-٢٣). أما «فون درغولتر»، فقد عرفها بأنها: «التدابير الواسعة التي تستخدم في تحريك القوات إلى الجهة الحاسمة في أكثر الظروف ملاءمة، ويمكن أن يُسمى علم القيادة» (وادي، ٢٠١٣)، في حين عرفها «هاليدل هارت»، بأنها: «توظيف المعارك كوسيلة لتحقيق الهدف من الحرب» (الساعدي، ٢٠١٣، ص. ١١٢)، وعرفها «ريمون آرون» بأنها: «قيادة وتوجيه مجمل العمليات العسكرية، أما الدبلوماسية فهي توجيه العلاقات مع الدول الأخرى، على أن تكون الاستراتيجية والدبلوماسية تابعين للسياسية» (وادي، ٢٠١٣). أما هيئة أركان الحرب للقوات المسلحة الأمريكية، فقد أعطت تعريفاً للاستراتيجية عام ١٩٥٩م بأنها: «فن وعلم استخدام القوات المسلحة للدولة، بغرض تحقيق أهداف السياسة القومية عن طريق القول أو التهديد باستخدامه» (الكبيسي، ٢٠١٠، ص. ٩). اجمالاً، ارتبط مصطلح الاستراتيجية بالحروب العسكرية، ومع تطور العلوم الاجتماعية، ما صاحبها من تطوراتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعلميةٍ وتكنولوجيةٍ، وديموغرافيةٍ... إلخ، برزت قضايا جديدة كالجريمة المنظمة ومكافحة الإرهاب، ومشاكل البيئة، والمرأة، والصراعات الإثنية وغيرها من القضايا والتحديات العالمية، التي استوجبت بلورة إستراتيجيات تتماشى وتتناغم مع طبيعة التحديات والظواهر المستجدة، ولعل ذلك ما ساهم في تعدد وتباين وبروز تعريفات جديدة للاستراتيجية.

مقاربة بين مدارس الفكر الإستراتيجي الصيني والأمريكي

أولاً- المدرسة الصينية: مثّلت أفكار «سون تزو» الإطار الفكري والفلسفي الضابط للمدرسة الصينية، التي نظّر لها في كتابه: «فن الحرب»، وهو بمثابة الأرضية الممهدة لظهور هذه المدرسة، لما يحتويه من مبادئ الحرب. كما أن أفكار وأطروحات «ما وتسي تونغ» كانت لها إسهاماتٍ كبيرةٍ في تطور المدرسة الصينية، حيث حاول تونغ أن يؤسس لحرب العصابات بطريقة علمية، وهو صاحب شعار «محاصرة المدينة عن طريق الأرياف» (زروقة، ٢٠١٦، ص. ٢١). ويمكن أن نجمل أفكار المدرسة الصينية الاستراتيجية في عدة نقاط (غاني، ١٩٩٧، ص. ١٧١):

- الاستراتيجية توضع في أوقات السلم لتنفذ في أوقات الحرب.
- هدف الاستراتيجية يجب أن يُبنى على الجانب الجغرافي ومناطق النفوذ.
- العمل الإستراتيجي ينطلق من المحيط إلى المركز.
- اعتمد منطق التفكير الإستراتيجي الصيني على نوع من الفصل بين المناطق الأكثر اقتراباً من حدود الصين، وتلك التي تتميز ببعدها الجغرافي من حيث دلالاتها المرتبطة بمفاهيم الأمن الوطني ومدركاته.
- تعتمد الاستراتيجية الصينية على إقامة علاقات صداقة وحسن جوار مع الدول المحيطة بها، ففي ظل ظروف الحرب الباردة أصبح الواقع يحتم على الصين أن تجعل من أولوياتها الاستراتيجية تطوير علاقات تعاون أمني ثنائي، وعلاقات جوار مع الدول القريبة.
- تجنب أي نزاعاتٍ حدوديةٍ مسلحة مع الدول المجاورة بغية التفرغ لمشكلات تعدها القيادة الصينية أكثر إلحاحاً كمشكلة تايوان، وتوطيد أقدام الوجود الصيني من بحر الصين الشرقي والجنوبي، ومعالجة حقوق التنقيب عن النفط في المناطق البحرية المتنازع عليها هناك.

ثانياً- المدرسة الأمريكية

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى نهاية مرحلة الحرب الباردة، كانت الاستراتيجية الأمريكية في مواجهة الاتحاد السوفيتي قائمة على مبدأين، هما (زروقة، ٢٠١٦، ص. ٢٩):

- احتواء المجال الجيوبولتيكي الشيوعي.
- ردع القوة السوفييتية التقليدية والنووية.

بيد أن انهيار الاتحاد السوفيتي، أنتج فراغ إستراتيجي لبناء تصور للمستقبل، مما دفع مستشارة الأمن القومي الأمريكي آنذاك «كوندوليزا رايس» بالقول: «إن الولايات المتحدة الأمريكية تجد صعوبةً فائقةً في تحديد مصلحتها القومية، في غياب القوة السوفيتية» (Lemann , 2002, p. 44). لذلك، نسمي فترة التسعينيات «بفترة الحيرة الاستراتيجية، أو اللايقين الإستراتيجي»، كما عبر عنها البعض الآخر بالأزمة التي يواجهها الغرب في عقيدته العسكرية والاستراتيجية بعد زوال الاتحاد السوفيتي (عنتر، ٢٠٠٢، ص. ٨٩)، وهو ما جعل مستشار الرئيس السوفيتي السابق غورباتشوف «جورجي اباتوف» يقول لأحد المسؤولين الأمريكيين عند نهاية الحرب الباردة: «سوف نُشكل لكم مشكلةً كبيرةً، فنحن نجردكم من العدو» (نقرش، ٢٠٠٢، ص. ١١). وتجدر الإشارة إلى أفكار «موئيل هنتنغتون» في استحالة توجيه المصالح الأمريكية، ووضع استراتيجية متماسكة في غياب العدو، كما قال في نفس السياق «جاك اتالي»: «إن إدارة بيل كلينتون تريد أن تفرض حلولاً مؤقتةً، لا ترتكز إلى رؤية استراتيجية متماسكة» (زروقة، ٢٠١٦، ص. ٢٩).

أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م والتحول في الفكر الإستراتيجي الأمريكي

مع وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وما ترتب عليها من تداعياتٍ من تغيراتٍ في أشكال التهديد الذي لم يعد يحمل صفة العدو الخارجي المباشر مثلما كان عليه الأمر طوال مرحلة الحرب الباردة، حيث أصبح التهديد داخلياً، فقد كان من الضروري أن تُصاغ استراتيجية جديدة تتلاءم مع طبيعة هذه المتغيرات. ويمكن رصد معالم التوجه الأمريكي على أساس مقاربتين لا يجب النظر لهما باعتبارهما منفصلتين، ففي أحيانٍ كثيرةٍ كانت الأمور تسير بنوع من التقاطع بإحداث المزاوجة في التطبيق لتحقيق أكبر قدر من الأهداف، وربما هذا هو الجانب الحركي في الاستراتيجية الأمريكية (زروقة، ٢٠١٦، ص. ٣٠):

المقاربة الاستراتيجية: ويعبر عنها في وثيقة «استراتيجية الأمن القومي» الشاملة والمرتبطة بالمرحلة المباشرة لأحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م، وحالة الدعم الدولي غير المحدود الذي حظيت به الولايات المتحدة في حربها على «الإرهاب». وقد جاءت هذه المقاربة في سياق التكيّف مع الأشكال الجديدة للتهديد الأمني، ومن تجلياتها على أرض الواقع؛ نجاح الولايات المتحدة الأمريكية في توطين تواجدها العسكري المباشر في بعض المناطق؛ كأفغانستان والعراق، والغير مباشر من خلال تعزيز قواعدها العسكرية في منطقة الشرق الأوسط.

المقاربة الفكرية: ويُعبر عنها بـ«الاستراتيجية الصغرى»، وهي ملازمة للمرحلة الأولى، ونابعة أساساً من الرؤية الأمريكية للفضاء الدولي باعتباره يعيش حالة من الفراغ الإستراتيجي التي تقود إلى وضعٍ أمني مضطرب يشكل تهديداً أمنياً للحضارة الغربية عموماً، وللولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص. عموماً، في ضوء هاتين الإستراتيجيتين، من الواضح أن الصين والولايات المتحدة تسعيان إلى تطوير قدراتهما العسكرية والأمنية وتطوير استراتيجياتهما بهدف الحفاظ على أمنهما القومي من ناحية، وتوسيع مناطق نفوذهما في مناطق جديدة في العالم من ناحيةٍ أخرى.

نماذج تطبيقية لنظرية الردع الأمريكي

مارست الولايات المتحدة نظرية الردع تجاه العديد من الدول، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، ولا تزال هذه النظرية تمارس حتى وقتنا الراهن، وتهدف من ورائها إلى ردع خصومها، دون الدخول في مواجهة عسكرية مباشرة، وقد تنوعت استراتيجيات الردع الأمريكي ما بين الاقتصادي العسكري، ويمكن استعراض نماذج من الردع الأمريكي، وذلك على النحو التالي:

أولاً-الردع الاقتصادي: حظي مفهوم الردع الاقتصادي باهتمام خاص في نظريات العلاقات الدولية، انطلاقاً من أهميته كأداة شائعة الاستخدام من قِبَل كيانات المجتمع الدولي لتغيير المواقف السياسية للدول المخالفة للأعراف والقوانين الدولية. ويشير المفهوم العام للردع الاقتصادي: بأنه عبارة عن جهود وسياسات تهدف لإجبار دولةٍ ما على تعديل سلوكها السياسي أو العسكري، بيد أن هناك قلقاً متنامياً بشأن نجاحها كأداة رادعة، فلا توجد أي إحصائيات مبنية على اختبارات عملية حول فاعلية العقوبات الاقتصادية، وظهر هذا النمط من العقوبات بعد الحرب العالمية الثانية؛ كإحدى أدوات السياسة الخارجية الفاعلة، وكبديل عن الحل العسكري ضد دول معينة، أو خوض حروب ضدها، ومن ثم فهي قلصت من فرص اندلاع الحروب والمواجهات العسكرية. على اعتبار أن التدخل العسكري سيكون مكلفاً (المساح، ٢٠٢٣، ص ص. ٣-٤).

تعددت أشكال الردع التي مارستها الولايات المتحدة بحق الدول المناهضة لها، وتنوعت لتشمل العقوبات الاقتصادية والعسكرية والسياسية.. إلخ. وارتبط الردع الاقتصادي على مر التاريخ الأمريكي الحديث بالحرب، واعتبر أداة فعالة من أدوات الردع بوصفها مرحلةً مبكرةً من الحرب، قد انتهت بعضها بالنجاح وبعضها بالفشل، ويمكن استعراض الردع الاقتصادي الذي مارسته الولايات المتحدة تجاه هذه الدول على النحو التالي:

الردع الاقتصادي الأمريكي ضد كوبا: فرضت الولايات المتحدة عام ١٩٥٩م، سلسلة من العقوبات اعتبرت هي الأطول في التاريخ، عندما فرضت حظراً على توريد السلاح إلى الحكومة الكوبية بعد الثورة التي قادها «فيدل كاسترو»، ضد حكومة «باتيستا» الموالية لها، واصطفافه التدريجي مع الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب الباردة (Schneir, 1981, p. 451).

العقوبات الاقتصادية الأمريكية على فنزويلا: هدفت هذه العقوبات لتدمير صناعة النفط الفنزويلية والاضرار بالنظام الحاكم المعادي لها على مدار العقود الماضية، حيث ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في تأجيج الكارثة الإنسانية فيها. وتتعلق مجمل هذه العقوبات، بعدم تعاون فنزويلا في جهود مكافحة المخدرات والإرهاب، وقد طالت هذه العقوبات عام ٢٠٠٥م ٢٢ شخصية لها صلات بالحكومة الفنزويلية، و٢٧ شركة. وفي العام ٢٠٠٦م، اتخذ وزير الخارجية الأمريكي قراراً سنوياً صنف فيه فنزويلا بالدولة الغير متعاونة مع الجهود الأمريكية لمكافحة الإرهاب، ونتج عن هذا القرار حظر جميع مبيعات الأسلحة الأمريكية، كما فُرض حظراً على أشخاص، ووكالتين للسفر بحجة دعمهما حزب الله اللبناني (لامه، ٢٠٢٣، ص. ٤٤٤). ساهمت العقوبات في هجرة أكثر من ٧ ملايين فنزويلي اعتباراً من عام ٢٠١٩م، بسبب تدهور الأوضاع المعيشية، وزيادة الفقر (Lopez, 2019, p. 9). وفي إطار هذه العقوبات؛ لفتت مجلة «فورين بوليسي» الأمريكية أن إدارة الرئيس الأسبق «باراك أوباما» سعت إلى تقليص نفوذ فنزويلا في المنطقة، وفرضت عقوبات على المسؤولين الفنزويليين، وضغطت على دول الكاريبي لتحويل وارداتها من المنتجات البترولية بهدف تدمير الاقتصاد الفنزويلي، ونفذت في عهد الرئيس «دونالد ترامب» هجوماً اقتصادياً ضد فنزويلا بدأ بفرض عقوبات اقتصادية على مؤسساتها المالية، ثم عقوبات اقتصادية خانقة ضد شركة النفط الحكومية، وقد أدت هذه العقوبات -حسب المجلة- إلى مقتل أكثر من ٤٠ ألف فنزويلي بين عامي ٢٠١٧-٢٠١٨م (Kirschner, 2021).

العقوبات الاقتصادية على العراق: تعرّض العراق لأسوأ أدوات الردع الأمريكي الاقتصادي بين عامي ١٩٩٠-٢٠٠٣م بعد غزوه للكويت، حيث كانت العقوبات شاملةً وقاسيةً، وكانت تهدف للسيطرة على النفط العراقي، كثاني احتياطي نفطي في العالم الذي يبلغ حجمه حوالي ١١٢ مليار برميل، مما سيغير من المعادلة النفطية العالمية، وكذلك تأمين مصادر النفط الذي تتزايد حاجة الولايات المتحدة لاستيراده مع قرب نضوب احتياطاتها النفطية. وقد أدت هذه العقوبات في نهاية المطاف إلى احتلاله عسكرياً في آذار/مارس ٢٠٠٣م (سرور، ٢٠١٠، ص. ٦٦).

العقوبات على سورية: تعود هذه العقوبات لعام ١٩٧٩م، عندما صنفت الولايات المتحدة سورية «كدولةٍ راعيةٍ للإرهاب». وكرد على الأنشطة السورية في لبنان، وبرنامج أسلحة الدمار الشامل الخاص بسورية طبقاً للادعاء الأمريكي، وفي العام ٢٠٠٤م تعرضت سورية لسلسلة من العقوبات الأمريكية شملت قيوداً على المساعدات الحكومية الأمريكية، وحظر توريد الأسلحة، كما فرضت عقوبات شملت عدداً من المسؤولين والمؤسسات السورية التي تتهمها الولايات المتحدة بالتورط في أعمال عدائية، وبعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م صنفت سورية ضمن «محور الشر»، وبموجب هذا التصنيف؛ ازدادت قساوة العقوبات لتشمل فرض إجراءات مراقبة قصوى على المصارف الأمريكية فيما يتعلق بالمعاملات الخاصة بالحكومة السورية. ازدادت العقوبات شدةً في عهد الرئيس «بوش الابن» وكان أشهرها «قانون محاسبة سورية» عام ٢٠٠٤م، الذي فرض قيوداً صارمة على تصدير معظم السلع الأمريكية لسورية باستثناء المواد الغذائية والأدوية، كما شمل القانون فرض حظراً على شركات النقل الجوي ومنعها من السفر إلى الولايات المتحدة، وكذلك ضد مسؤولين سوريين (The Carter Center, 2020, p. 7). ومنذ اندلاع الاحتجاجات في سورية عام ٢٠١١م، توسعت دائرة العقوبات الأمريكية على سورية، لتشمل أشخاص وشركات ومؤسسات ذات صلة بالحكومة السورية، فخلال الفترة من ٢٠١١ إلى ٢٠١٩م أضافت الولايات المتحدة عقوبات شاملة، توجت بقرار الكونغرس الأمريكي أواخر العام ٢٠١٩م «بقانون قيصر» لحماية المدنيين السوريين، وبموجبه أضيفت عقوبات جديدة على سورية، شملت مزيداً

مـن الأعمـال التجاريـة، وأصبـح القانـون سـاري المفعـول منـد حزيران/يونيـو ٢٠٢٠م، وقـد نتـج عـن مجمـل هـذه العقوبـات أثـاراً اقتصاديـةً وصحيـةً وإنسـانيةً خطيـرة، قيـدت التنميـة فـي سـورية بشـكلٍ عـام (Leclerc , 2023, pp. 3-5).

العقوبـات الاقتصاديـة ضـد كوريـا الشـمالية: وهـي محاولـة لردعهـا عـن الاسـتمرار فـي تجاربهـا النوويـة والصاروخيـة، حيـث أثـرت هـذه العقوبـات بشـكلٍ سـلبي علـى الأوضـاع المعيشـية فيهـا. ووفقـاً لتقريـر مؤشـر الخطـورة الـذي أعـده مشـروع تقييـم القـدرات (ACAPS) فـي جنيـف، تواجـه كوريـا الشـمالية مسـتوى مرتفعـاً مـن حـدة الأزمـات الإنسـانية. فالعقوبـات الأمريكيـة قيـدت اسـتيراد كوريـا الشـمالية للسـلع الإنسـانية، وأثـرت علـى وصولهـا للكوريين، وصنفـت كوريـا الشـمالية مـن بيـن الـدول التـي تعانـي مـن قيـود عاليـة فـي وصـول المسـاعدات الإنسـانية، وانعـدام الأمـن الغذائـي، ومحدوديـة الوصـول إلـى الخدمـات الأساسـية، كالرعايـة الصحيـة، والميـاه النظيفـة، وتركـت أكثـر مـن ١٠ ملاييـن شـخص فـي حاجـة إلـى المسـاعدات الإنسـانية (لامـه، ٢٠٢٣، ص. ٤٤١).

العقوبـات ضـد إيـران: تُعـد إيـران مثـالاً علـى شـدة وقسـاوة العقوبـات الأمريكيـة، فقـد عانـت مـن بلـوغ الأزمـة الاقتصاديـة مسـتوى غيـر مسـبوق، فالتضخـم وتدنـي العملـة أمـام الـدولار، ومـا أفرزتـه مـن تداعياتٍ خطيرةٍ علـى المسـتوى الداخلـي والخارجـي، وأجبرتهـا علـى الدخـول فـي مفاوضـات مـع الاتحـاد الأوروبـي وروسـيا والصيـن لتفكيـك برنامجهـا النـووي، وأنتجـت المفاوضـات اتفاقـاً لمـدة ١٠ سـنوات عـام ٢٠١٥م مـع الـدول ٥+١ للقيـام بتفكيـك برنامجهـا النـووي -قبـل انسـحاب إدارة ترامـب منـه عـام ٢٠١٨م- وقـد دفعـت هـذه العقوبـات رئيـس لجنـة التربيـة والتعليـم فـي البرلمـان الإيرانـي «حميـد رضـا» إلـى التصريـح: «بـأن مـا يقـارب ٤٠ مليـون إيرانـي باتـوا اليـوم فـي حاجـة إلـى تلقـي مسـاعدات ماليـة عاجلـة» (Iran International , 2021). مـا أدى إلـى تقلـص الناتـج المحلـي الإجمالـي الإيرانـي بمـا يقـدر بـ ٨,٤٪ فـي عـام ٢٠١٨م، وانكمـش إجمالـي الناتـج بنسـبة ٥,٩٪ عـام ٢٠١٩م -وفقـاً لصنـدوق النقـد الدولـي-، وارتفـع معـدل البطالـة مـن ٥,١٤٪ عـام ٢٠١٨م، إلـى ٨,١٦٪ عام ٢٠١٩م (حجازيـن، ٢٠٢١، ص. ١٢٢).

العقوبـات الاقتصاديـة الأمريكيـة علـى روسـيا: خاصـةً بعـد ضـم الأخيـرة لشـبه جزيـرة القـرم فـي ١٨ أذار/مـارس ٢٠١٤م، حيـث فرضـت عقوبـات اقتصاديـة شـديدةً وقاسـيةً علـى روسـيا شـملت؛ أفـراداً مـن الحكومـة الروسـية، ورجـال أعمـال مرتبطيـن بهـا، وحظـراً تجاريـاً علـى قطاعـات مختلفـة فـي مجـال الاسـتيراد والتصديـر، وبنـوكاً روسـية، وتصديـر التكنولوجيـا، ووصـل عـدد العقوبـات إلـى ٢٦٩٥ عقوبـة (Castellum.AI , 2023).

التدخـل العسـكري الـروسي في أوكرانيـا، ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٢٢م: مارسـت الولايـات المتحدة إجـراءاتٍ قويـةٍ مـن الـردع الاقتصادي ذو التأثـر المتشـابك والكبيـر علـى الاقتصـاد الروسـي؛ شـملت عـدة قطاعـات سياسـية واقتصاديـة وثقافيـة ورياضيـة، حتـى وصلـت إلـى «الخيـار النـووي» الاقتصادي، وفصـل بنـوك روسـية مـن نظـام «SWIFT»، وعقوبـات علـى البنـك المركـزي الروسـي، وتجميـد أرصـدة وأصـول ماليـة روسـية فـي الخـارج (المسـاح، ٢٠٢٣، ص. ٤)، كمحاولـة لعـزلها ومعاقبتهـا علـى قرارهـا بغـزو أوكرانيـا. وأصبحـت روسـيا هدفـاً لنحـو ١٤,٨٨٧ عقوبـة جديـدة بدايـةً مـن ٢٤ شـباط/فبراير ٢٠٢٢م، وبذلـك تصبـح روسـيا فـي مقدمـة الـدول المتلقيـة للعقوبـات متجاوزة بذلـك إيـران وكوريـا الشـمالية (Castellum.AI , 2023). وتعـد هـذه العقوبـات الأسـوأ والأوسـع علـى الإطـلاق علـى روسـيا، وتهـدف لردعهـا، والضغـط عليهـا للانسـحاب مـن أوكرانيـا، وكذلـك إلحـاق أكبـر قـدرٍ مـن الضـرر بالاقتصـاد الروسـي.

ثانيـاً- الـردع العسـكري: يتمثـل فـي الإجـراءات الدفاعيـة التـي تهـدف بالأسـاس لمنـع حـدوث عمـل عدائـي ضـد دولـةٍ مـا، وتجنـب حـدوث حـرب، واختيـار القـوة عـن طريـق التهديـد والتلويـح المسـتمر بهـا. وفـي هـذا الإطـار، يمكـن اسـتعراض نمـاذج مـن الـردع العسـكري الأمريكـي الـذي طبقتـه الولايـات المتحـدة، لإرهـاب الـدول، ومنعهـا مـن تهديـد مصالحهـا الحيويـة فـي العالـم، وذلـك علـى النحـو التالـي:

الوجـود الأمريكـي فـي منطقـة الخليـج العربـي: تشـكيل «قـوة المهـام ٥٩» التـي أعلنـت عنهـا القيـادة المركزيـة للقـوات البحريـة الأمريكيـة فـي منطقـة الخليـج العربـي فـي ٩ أيلول/سـبتمبر ٢٠٢١م، بقيـادة «مايـكل براسـور»، بهـدف زيـادة قـدرة الأسـطول الأمريكـي الخامـس علـى الـردع، ودمـج الأنظمـة غيـر المأهولـة والـذكاء الاصطناعـي فـي نطـاق عملياتـه. هـذه القـوة سـتكون الأولـى مـن نوعهـا التابعـة للبحريـة الأمريكيـة، تسـتخدم الطائـرات المُسـيّرة وغيرهـا مـن الوسـائل التـي لا تحتـاج إلـى تدخـل العنصـر البشـري، لتحقيـق عـدد مـن الأهـداف باسـتخدام التقنيـات التكنولوجيـة المتقدمـة فـي تلـك القـوة، وتهـدف إلـى تفعيـل الـردع الأمريكـي ضـد إيـران، ومراقبـة أنشـطتها العسـكرية، والمراقبـة المسـتمرة لمنطقـة الخليـج العربـي عبـر تعزيـز القـوة العسـكرية الأمريكيـة البحريـة المُسـيّرة فيهـا (Nadimi, 2021, pp. 2-3).

الوجـود الأمريكـي فـي شـرق الفـرات: وذلـك عبـر بنـاء تشـكيلات عسـكرية مـن المكـون العربـي رداً علـى مخطـط إيرانـي-روسـي يهـدف إلـى اسـتنزاف القـوات الأمريكيـة، ودفعهـا إلـى الخـروج مـن المنطقـة عبـر تشـكيلات يجـري تأسيسـها تحـت اسـم «المقاومـة الشـعبية»، وتهـدف الولايـات المتحـدة مـن هـذه التحـركات، إلـى ردع إيـران بالدرجـة الأولـى، ومـن ثـم روسـيا، وإرسـال رسـالة إليهمـا مفادهـا: أن القـوات الأمريكيـة باقيـة، كمـا تهـدف إلـى اسـتباق التطـورات الإقليميـة المتمثلـة باحتمـالات الانفتـاح التركـي-السـوري، فضـلاً عـن دعـم الموقـف التفاوضـي الأمريكـي مـع إيـران وسـورية، والتضييـق علـى أذرع إيـران الإقليميـة (مركـز الإمـارات للسياسـات، ٢٠٢٣).

الوجـود الأمريكـي فـي بحـر الصيـن الجنوبـي: تمـارس الولايـات المتحـدة الـردع بمفهومـه المتكامـل فـي بحـر الصيـن الجنوبـي ضمـن سلسـلة مـن الإجـراءات العسـكرية والتقنيـة فـي محاولـة لمنـع فـرض النفـوذ العسـكري الصينـي فـي المنطقـة عبـر إثـارة الخلافـات، وتغذيـة النـزاع حـول السـيادة الإقليميـة فـي المنطقـة الحيويـة التـي تفصـل بيـن المحيطيـن الهنـدي والهـادئ، والتـي تعـد معبـراً حيويـاً للتجـارة الدوليـة بقيمـة ٥ تريليـون دولار سـنوياً، مـن خـلال تسـيير دوريـات بحريـة بصـورة شـبه يوميـة، بغـرض تأميـن قـوة إقليميـة واسـعة مناهضـة للنفـوذ العسـكري الصينـي، والحيلولـة دون سـيطرتها علـى تايـوان، وكذلـك مزاحمتهـا فـي بحـر الصيـن الجنوبـي مـن خـلال تنفيـذ دوريـات يوميـة تقـوّض خـط النقـاط التسـعة باعتبارهـا حـداً فاصـلاً لحـدود الصيـن البحريـة، وهـو مـا توفـره خريطـة الانتشـار العسـكري الأمريكـي فـي شـمال وجنـوب الفلبيـن، وتتوقـف فاعليـة الـدور الأمريكـي (بعيـد المـدى) علـى إمكانيـة بنـاء تحالـف أمنـي يضـم قـوى إقليميـة تتماشـى مـع اسـتراتيجيتها فـي المحيطيـن (مركـز المسـتقبل للأبحـاث المتقدمـة،٢٠٢٣، ص ص. ٢-٣).

تعزيـز الوجـود العسـكري فـي المحيطيـن الهنـدي والهـادي: حافظـت الولايـات المتحـدة علـى مـدار ٧٥ عـام علـى وجـود دفاعـي قـوي ومنسـق وثابـت فـي المحيطيـن الهنـدي والهـادي، وتعمـل فـي الوقـت الراهـن علـى توسـيع هـذا الـدور وتحديثـه، وتعزيـز قدراتهـا الدفاعيـة لحمايـة مصالحهـا، وردع أي عـدوان قـد يطـال الأراضـي الأمريكيـة، وحلفائهـا، عبـر اتخـاذ إجـراءات تعـزز الأمـن فـي المنطقـة بالاعتمـاد علـى أدوات القـوة للتصـدي لأي اعتـداء، وتتضمـن هـذه

الإجراءات؛ تعزيز الردع المتكامل، وتقوية التعاون البيني مع حلفائها، والحفاظ على الاستقرار في مضيق تايوان، وابتكار وسائل لمواجهة التهديدات سريعة التطور (The White House, 2022, pp. 7-8).

بمعنى آخر، استحدثت الولايات المتحدة ضمن إستراتيجيات الردع والفضاء الإلكتروني «السيبراني»، الذي يشتمل على مجالات التكنولوجيا الحيوية والناشئة، بما يساهم تعزيز وتوسيع ردعها، من خلال التنسيق مع حلفائها في كوريا الجنوبية واليابان والسعي إلى إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية بشكلٍ كاملٍ، والاستمرار في الالتزام بمعاهدة «أوكوس» الأمنية بين الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا، وتوسيع وجود خفر السواحل الأمريكي في مواجهة التهديدات العابرة للحدود الوطنية.

أشكال وأوجه استراتيجية الردع الأمريكية في مواجهة التهديد الصيني بضم تايوان

تعد الأزمة بين الصين تايوان أزمةً تاريخيةً، فعقب هدنة بين القوميين الصينيين-الكومينتانج، والشيوعيين لمواجهة التدخل الياباني بالصين عام ١٩٣٧م، اشتعلت الحرب الأهلية الصينية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهزيمة اليابانيين، وخلافاً للفترة الأولى من الحرب الأهلية، قامت الثورة الشيوعية الصينية، وحرب التحرير ضد اليابان فسيطر الثوار والقوميون الصينيون على أغلب أراضي الصين قبل أن يعلن زعيمهم «ماو تسي تونغ» في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩م عن نشأة جمهورية الصين الشعبية (ثابت، ٢٠٢٢، ص. ١٠).

ومع تقدم القوات الشيوعية بإقليم سيشوان، غادر «شيانج كاي شيك»، قائد الكومينتانج، بر الصين الرئيسي برفقة ٢ مليون من أتباعه وجنوده القوميين ليستقر بجزيرة تايوان، التي كانت حينها جزءاً من أراضي الصين التاريخية، ويعلن منها مدينة «تايبيه» عاصمة مؤقتة لجمهورية الصين، رافضاً الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية الشيوعية وسلطة «ماو تسي تونغ»، ومصنفاً نفسه السلطة الشرعية الوحيدة، والممثل الرسمي للشعب الصيني بأكمله (عبده، ٢٠٢٢، ص. ١٢٤). ويكمن جوهر الصراع بين الصين وتايوان في أن الصين ترى تايوان مقاطعةً منشقةً عنها سيعاد ضمها في نهاية المطاف، وقد حاولت الصين أن تتعاون مع تايوان- رغم الصراع التاريخي بينهما، وبدأت العلاقات بينهما تتحسن في ثمانينيات القرن الماضي. عندما طرحت الصين صيغة تعرف باسم «دولة واحدة ونظامان» تمنح بموجبها تايوان استقلاليةً كبيرةً إذا قبلت إعادة توحيد الصين، ولكن تايوان رفضت هذه الصيغة، واتجهت للعمل بشكلٍ منفردٍ بعيداً عن الصين (حماد، ٢٠٠٠، ص. ٣٣).

أهمية تايوان الجيواستراتيجية في الإدراك الأمريكي والصيني

تحظى جزيرة تايوان بأهمية كبيرة في الإدراك الإستراتيجي الأمريكي والصيني معاً، وتتحكم في هذه الأهمية أبعاداً تاريخيةً وسياسيةً واقتصاديةً جعلت التنافس والاستحواذ على هذه المنطقة يأخذ شكلاً من أشكال الصراع الذي ربما يتطور لمواجهةٍ عسكريةٍ بين الطرفين.

خريطة توضح موقع جزيرة تايوان وأهميتها الجيوسياسية
(https://www.independentarabia.com/almejhar/taiwan)

أولاً: أهمية تايوان في الإدراك الإستراتيجي الأمريكي

ينبع الاهتمام الأمريكي بتايوان انطلاقاً من أهميتها الاستراتيجية، فالموقع الجغرافي لتايوان من مضيق تايوان وقناة باشي الممرين البحريين الرئيسيين اللذين يربطان شمال شرق آسيا بجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط. وعند الحديث عن أهمية هذه الجزيرة بالنسبة للولايات المتحدة وحلفائها في آسيا مثل؛ اليابان، تعتبر تايوان مهمة لأمن حدودها الجنوبية، وكذلك الفلبين فيما يتعلق بحدودها الشمالية. علاوة على ذلك، تشترك الولايات المتحدة وتايوان بعددٍ من المصالح الاقتصادية (حماد، ٢٠٠٠، ص. ٣٤). وقد أدى صعود الصين كقوة على الساحة الدولية في العقد الأول من القرن الحالي إلى مراجعة الولايات المتحدة حساباتها بتايوان، التي زاد اهتمامها بها مدفوعةً بعدة أبعاد، أهمها:

١- البعد الإستراتيجي: تعتبر الولايات المتحدة مسألة تايوان من المسائل الاستراتيجية الأكثر تعقيداً في سياستها الخارجية تجاه منطقة شرق آسيا، وهي مسألة لا تقل أهميةً عن مسألة مستقبل قواعدها العسكرية في اليابان، وكوريا الجنوبية، في الوقت الذي ترتأي فيه الصين بأن التأييد الأمريكي لتايوان هو جوهر المشكلة، لذلك تمثل تايوان وسيلة الضغط المهمة التي تستخدمها الولايات المتحدة تجاه الصين كلما تطلب الأمر ذلك (عقيل، ٢٠١٣، ص. ١٠٢٧). أما مضيق تايوان، فله أهميةً استراتيجيةً بالغةً للولايات المتحدة، فضلاً عن تخوفاتها الاستراتيجية من تنامي وتعاظم الصعود والهيمنة الصينية إقليمياً ودولياً. فتايوان تقع في نقطة حرجة ضمن سلسلة جزر رسّخت الولايات المتحدة دعائم وجودها فيها انطلاقاً من اليابان، ومروراً بالفلبين؛ وحتى بحر الصين الجنوبي، وفي الوقت الذي تخشى فيه المنطقة من الصراع العسكري بين الولايات المتحدة والصين بشأن تايوان، إلا أن انسحاب الولايات المتحدة من تايوان بشكلٍ صريحٍ، أو من خلال التنازل عن سياستها طويلة الأمد؛ يعني تراجع دور الولايات المتحدة في المنطقة لصالح الصين، وهو ما يعني رسم شكل جديد لملامح النظام العالمي، وتحولًا في ميزان القوى الإقليمية وربما العالمية (عبده، ٢٠٢٢، ص ص. ١١٨-١١٩). وانطلاقاً من هذه الأهمية، تقدمت إدارة الرئيس بايدن في تموز/يوليو ٢٠٢٢م بمشروع قانون وافق عليه الكونجرس بأغلبية، وتضمن حزمة بقيمة ٢٨٠ مليار دولار لتعزيز القدرة التنافسية للولايات المتحدة الأمريكية في الإنتاج المحلي للرقائق الإلكترونية، وأشباه الموصلات الذي تعتبره الولايات المتحدة أمراً بالغ الأهمية للأمن القومي الأمريكي في

مواجهة التهديد الصيني في هذه الصناعة، حيث تعتبر تايوان المنتج الأكبر لها على مستوى العالم، وتستخدم في الصناعات المدنية والعسكرية (محمد، ٢٠٢٢، ص ص. ٢-٣).

إجمالاً، يمكن القول: أن العملية العسكرية الروسية ضد أوكرانيا في ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٢٢م، ساهمت في تشجيع توجهات القيادة الصينية للسعي نحو ضم جزيرة تايوان، كما انطوت العملية العسكرية الروسية على انعكاساتٍ كبيرةٍ في طبيعة العلاقات الأمريكية-الصينية فيما يتعلق بتايوان؛ لأن التنافس بين الدول الكبرى يعمل على تحويل كافة المشاكل إلى اختبار لمصداقية هذه الدول؛ فمثلاً الانسحاب الأمريكي المفاجئ من أفغانستان في عام ٢٠٢١م كانت له انعكاساتٍ على مصداقية الولايات المتحدة في مناطق أخرى من العالم، على غرار الحرب الروسية على أوكرانيا التي فشلت الولايات المتحدة في ردع روسيا، وهذا قد ينطوي أيضاً على انعكاساتٍ حول مصداقية الولايات المتحدة الأمريكية في تايوان.

في إطار هذه المقاربة، يمكن الإشارة لتحليل «جون ميرشايمر» الذي أكد أن تايوان تشكل خطراً قد يدفع الصين والولايات المتحدة إلى التصادم عسكرياً، في ظل إصرار حكومة تايوان على استقلالها الفعلي عن الصين، في الوقت الذي ازداد فيه التصميم الصيني على ضم تايوان، فهي مستعدة للحرب لمنع استقلال تايوان، الأمر الذي سيدفع الولايات المتحدة للتدخل من أجل مساعدتها في الدفاع عن نفسها تنفيذاً ل «قانون العلاقات مع تايوان» لعام ١٩٧٩م، هذا التدخل قد يؤدي لمواجهة عسكرية بين الولايات المتحدة والصين. ويعزز هذا التوجه الخطاب العدائي الذي تتبناه رئيسة تايوان «تسي إنغ وين» تجاه الصين ودعواتها الانفصالية، وإعلان التجنيد الإجباري، ما يعزز التوجه الصيني للتصعيد عسكرياً ضدها.

٢- البعد الاقتصادي: تُعد الإنجازات الاقتصادية التي حققتها تايوان سبباً مهماً في اهتمام الولايات المتحدة بها، إذ يعتمد اقتصاد تايوان على مزيج من الخدمات والتصنيع والتكنولوجيا، خاصةً بعد نجاحها في جذب الاستثمارات الأجنبية، رغم الضغوط الشديدة التي تمارسها الصين ضدها، إلا أن اقتصادها ظل قوياً ومستقراً نسبياً، مع بعض التباطؤ في نمو الناتج المحلي الإجمالي (فهمي، ٢٠٢٣). ويُعزى النجاح الاقتصادي لتايوان إلى تصنيع شركاتها ما يقرب من ٧٠٪ من أشباه الموصلات في العالم، وحوالي ٩٠٪ من الرقائق الأكثر تقدماً، وبالتالي إذا فقد العالم قدرة تايوان الإنتاجية، فلن تتمكن أي شركة أخرى من سد الفجوة على المدى القصير، ما سيؤدي إلى نقص في كل منتج تقريباً يحتوي على التكنولوجيا، ابتداءً من الهواتف الذكية وأجهزة الكمبيوتر، وانتهاءً بصناعة السيارات (عبده، ٢٠٢٢، ص. ١٥٢).

لذلك، تتطلع تايوان لتطوير شراكتها الاستراتيجية مع الولايات المتحدة، كواحدة من أكبر عشر شُركاء تجاريين لها، إذ تلعب تايوان دوراً رئيسياً في سلاسل التوريد لمجموعة متنوعة من الصناعات، ففي عام ٢٠٢٢م كانت الولايات المتحدة ثاني أكبر شريك تجاري لتايوان في البضائع السلعية، كما كانت ثالث أكبر مصدر لتايوان بقيمة ٤٦ مليار دولار. بالإضافة لذلك، أنها ثاني أكبر وجهة للصادرات بقيمة ٧٥ مليار دولار، وبشكلٍ عام تعد تايوان مصدراً رئيسياً لواردات الولايات المتحدة من المحركات البحرية ٢١٪، والحديد والصلب ٢٠٪، وملحقات الكمبيوتر ١٦٪، وأشباه الموصلات ١٤٪. وفي المقابل، تعد تايوان وجهة رئيسية للصادرات الأمريكية من السفن التجارية ٢٨٪، والخشب والزجاج والبلاستيك ١١٪، والملابس العسكرية ١٠٪، ناهيك عن الطلب التايواني المتزايد على النفط الخام الأمريكي، البالغ حوالي ٢٪ من إجمالي الصادرات الأمريكية، فضلًا عن صادراتها من الأسلحة. أضف إلى ذلك، الاستثمارات الأمريكية في تايوان التي بلغت ١٣٪ من إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر (فهمي، ٢٠٢٣)، وبلغ إجمالي التجارة البينية بين تايوان والولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية ٣٨ مليار وفقاً لبيانات ٢٠٢١م، وشهد عام ٢٠٢٢م إطلاق حوار اقتصادي بين الولايات المتحدة وتايوان لتعزيز وتوسيع مجالات التعاون الاقتصادي والتجاري (أبوطالب، ٢٠٢٢)، توجت بتوقيع تايوان أول اتفاق تجاري مع الولايات المتحدة لتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية بينهما (فهمي، ٢٠٢٣).

وتستثمر الإدارات الأمريكية عبر تقديم المساعدات العسكرية لتايوان، وإبرام عقود مدنية وعسكرية معها، كان آخرها إعلان البنتاغون في نيسان/أبريل ٢٠٢٢م، عن عقد قيمته ٩٥ مليون دولار، وتمت الموافقة على عقد مماثل بقيمة ١٠٠ مليون دولار لتوفير خدمات لتايوان، وبيع معدات لدعم وصيانة وتحسين نظام الدفاع الجوي «باتريوت» في شباط/فبراير٢٠٢٢م (CBS News, 2023)، وفي العام ٢٠٢٣م، أعلنت إدارة الرئيس بايدن تقديم مساعدات عسكرية لتايوان بقيمة ٣٥٠ دولار، وأكد بيان صادر عن البيت الأبيض أن المساعدات تشمل أنظمة دفاع جوي محمولة (MANPADS)، وقدرات استخباراتية وأجهزة مراقبة، وأسلحة وصواريخ، وغيرها (Time, 2023). وفي ضوء تشابك وتداخل المصالح، تصاعد الخلاف بين الصين والولايات المتحدة بسبب عسكرة الأخيرة لبحر الصين الجنوبي، خوفاً من تنامي نفوذها في المحيطين الهندي والهادي. لذلك؛ شرعت في تبني سياسات عسكرية ودفاعية أكثر حزماً عبر تعزيز قدراتها العسكرية في جنوب شرق آسيا، وتأسيس تحالفات دفاعية مع دول المحيطين، كان آخرها تشكيل تحالف «أوكوس»، وإحياء الحوار الرباعي مع اليابان والهند وأستراليا (عبيد، ٢٠٢٣، ص. ٤٧).

عموماً، إن اهتمام الولايات المتحدة العسكري والسياسي والاقتصادي بتايوان ينبع من رغبتها في تحقيق تواجد جيوسياسي في عموم آسيا، وشرقها على وجه الخصوص، مما قد يساعدها في تقويض مساعي الصين للسيطرة الاقتصادية والسياسية على بلدان تلك المنطقة.

ثانياً- أهمية تايوان في الإدراك الإستراتيجي الصيني

يعتبر الإطار الجغرافي مجالاً حيوياً، وبؤرةً للصراع والنزاعات الدولية، وهو ما أثبته التاريخ الحديث، وقد اعتبرت فكرة المجال الحيوي محركاً للظاهرة الاستعمارية قديماً، الأمر الذي جعل الدول إذا ما امتلكت مقومات القوة وتفوقت في إقليمها، أن تتجه نحو الاهتمام بفكرة السيطرة في مجالها، وهو ما أدخل مفهوم ومضمون المجال الحيوي في الفكر الجيو-استراتيجي. فكثيراً ما كان هذا المفهوم سبباً وراء اندلاع الحروب، الأمر الذي جعل الصين تسعى إلى توسيع نفوذها في مجالها الحيوي الأول، واستعادة المناطق التي سلبت أو انفصلت عنها، وضمها وتوحيدها إلى دولة الصين الموحدة ذات المركز الأوحد (كلاع، ٢٠٢٢، ص ص. ٤٨-٤٩).

١- البعد الإستراتيجي: تولي الصين اهتماماً بالغاً بتايوان، ليس فقط بسبب الجذور التاريخية، ولكن نظراً لموقعها الجيوسياسي والإستراتيجي في بحر الصين الجنوبي الذي يؤثر في الأمن القومي والسيادة الصينية، وبالتالي يمكن استعراض بعض الأسباب التي دفعت الصين لاتخاذ خطوات تجاه المطالبة والدفاع عن هذه الجزيرة وفقاً للتالي: (حماد، ٢٠٠٠، ص ٣٨):

- اعتبار تايوان جزءاً من الصراع مع الولايات المتحدة: إذ تعتبر الصين ضم تايوان أو القيام بغزوها هو جزء لا يتجزأ من استراتيجيتها في الدفاع عن سيادتها تجاه أطماع الولايات المتحدة في آسيا، وبالتالي السيطرة على تايوان يُشكل نوعاً من الانتصار المعنوي على الولايات المتحدة.
- إضعاف حلفاء واشنطن: إن خسارة الولايات المتحدة لتايوان وضمها للصين سيضعف من قوة حلفائها في آسيا، ومنها الفلبين وكوريا الجنوبية، وسيقوض مجال الحركة للولايات المتحدة في هذه المنطقة.
- إضعاف المصداقية الأمريكية: لأن خسارة تايوان ستقوض مصداقية الولايات المتحدة، لأن التحالفات الأمريكية في المحيط الهادي تقوم على الاعتقاد بأن واشنطن قادرةً على حماية حلفائها من الهيمنة الصينية، وفي حالة إخفاقها أو فشلها في الدفاع عن تايوان، فسيكون من الطبيعي أن تخسر مصداقيتها أمام حلفائها في جنوب شرق آسيا، خاصةً اليابان، والفلبين، وكوريا الجنوبية.

٢- البعد الاقتصادي: بلغ إجمالي التجارة بين البر الصيني وتايوان إلى ١٢٦ مليار دولار وفقاً لبيانات عام ٢٠٢١م، ما يعكس حجم التداعي والتراجع الذي يمكن أن تتعرض له تايوان نتيجة الإجراءات الاقتصادية العقابية التي فرضتها الصين، ويعد قرار الصين وقف الاتصالات مع الولايات المتحدة في ملفات عسكرية وأمنية تتعلق بالتشاور والتنسيق في السياسات البحرية، وملفات أخرى تتعلق بالهجرة غير الشرعية، والتغّير المناخي، ومكافحة المخدرات، والسلامة البحرية، ومكافحة الجريمة عبر الحدود، قراراً من شأنه أن يؤزم العلاقة معها، في ظل سعي الأخيرة إلى اعتماد حروب بالوكالة لإثارة توترات بالنسبة للصين في تايوان لإضعافها، واستنفاذ وتشتيت قوتها، لا سيما أنها تنافس الهيمنة الأمريكية، وتسعى لخلق نظام عالمي متعدد الأقطاب (أبوطالب، ٢٠٢٢).

انطلاقاً مما سبق، تتعامل الصين مع تايوان على أنها مقاطعة منشقة يجب إعادة ضمها للصين، وبالتالي، فإنها تفسر أي تطور في العلاقة بين الولايات المتحدة وتايوان بأنه خطر يهدد التوجه الصيني نحو ضم الجزيرة، وتعتبره تحدياً وتدخلاً في شؤونها الداخلية، يستوجب اتخاذ الإجراءات اللازمة في مواجهتها.

ثالثاً: تنفيذ استراتيجية الردع الأمريكية تجاه المساعي الصينية بضم تايوان

بدأ التفكير الاستراتيجي الأمريكي تجاه الصين يأخذ طابعاً عدائياً منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضي، لكن الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون-١٩٦٩-١٩٧٤م» قرر تغليب المصلحة الأمريكية، وتخفيف حدة التوتر في العلاقة مع الصين لإخراجها من معادلة الحرب الباردة، والتفرغ لمواجهة الاتحاد السوفيتي. ففي العام ١٩٧٢م، زار «نيكسون» الصين، وقضى فيها ٨ أيام، وشكّلت الزيارة -في حينه- انفراجه في علاقة الدولتين، وجاء في بيان شنغهاي المشترك: «أن كافة الصينيين المتواجدين على جانبي مضيق تايوان أبناء الأمة الصينية الواحدة، وأن جزيرة تايوان هي جزء من الوطن الصيني الأم التي يتوجب حل مشكالها سلمياً بعيداً عن أسلوب الضم العسكري» (كلاع، ٢٠٢٢، ص. ٥٢)، كما مهد البيان الطريق لتهيئة المناخ لإقامة علاقات ثنائية مستقرة، حيث لعب الاقتصاد دوراً مهماً في تلك المرحلة، إذ رأى رجال الأعمال والشركات الأمريكية في السوق الصينية أرضاً خصبةً للاستثمار، وتحقيق الأرباح. في المقابل، وجدت الصين في التقارب مع الولايات المتحدة فرصةً للحصول على التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة (أبو عامود، ١٩٩٨، ص. ١١).

وفي كانون الثاني/يناير ١٩٧٩م وقعّت الدولتان البيان المشترك حول إقامة علاقات دبلوماسية كاملة بينهما، وتعهدت الولايات المتحدة بإلغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع تايوان، لتنقلب الأمور وتصبح جمهورية الصين الشعبية هي الممثل الرسمي والوحيد للصين، وتشغل المقعد الدائم في مجلس الأمن بدلاً من تايوان (Friedberg , 2005, pp. 34). هكذا بدأت حقبة جديدة في مسيرة العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين واشنطن وبكين، وتم بموجبها تبادل السفراء وفتح السفارات، وظل هذا التقارب مستمراً بشكلٍ تصاعدي، وتُوّج عام ١٩٨٢م بصدور البيان المشترك الأمريكي- الصيني الذي أكد على رغبة الطرفين في زيادة التعاون في مجال التكنولوجيا، والتجارة، والثقافة، والبحث العلمي (شعراوي، ٢٠١٨، ص. ٣٩).

وخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٧٨-١٩٩٢م، تولى «دينغ تشاو بينغ» رئاسة الصين خلفاً لـ«ماو تسي تونغ»، وركّز «بينغ» على مواجهة التحديات الداخلية التي تعصف بالصين، لتبتعد الصين طيلة حكمه تقريباً عن الظهور على الساحة الدولية، تطبيقاً لمقولته: «إن الصين تحتاج لنصف قرن لاستكمال عملية التحديث والسيطرة السياسية والاقتصادية، قبل أن تمارس دورها كقوة عظمى على المسرح الدولي» (ميريديث، ٢٠٠٩، ص. ٢٢٦). وبالتالي، انعكس هذا السلوك على طبيعة العلاقات بين الولايات المتحدة والصين من جهةٍ، وطبيعة دور الصين على الساحة الدولية من جهةٍ أخرى. إذ شهدت تلك الفترة تناقضاً لافتاً في طبيعة العلاقات الأمريكية- الصينية، وظل الشد والجذب العنوان الرئيس لتلك العلاقة، بسبب القضية التايوانية، وقضايا أخرى؛ كأحداث ميدان «تيانامين- ١٩٨٩م»، التي أدانتها الولايات المتحدة، وكانت سبباً في توتر العلاقات بينهما؛ وصلت لدرجة سحب الصين لسفيرها في واشنطن (حرب، ١٩٩٨، ص. ١١٢).

وخلال حرب البلقان عام ١٩٩٩م، فجر حلف الناتو سفارة الصين في «بلغراد» وقيل وقتها أن التفجير جاء عن طريق الخطأ، نتيجة معلومات استخباراتية مغلوطة، واعتذرت الولايات المتحدة حينها للصين، ورد الصينيين على تفجير سفارتهم بمظاهرات داخل الصين هاجموا فيها مقرات لشركات أمريكية وغربية (الأيوبي، ١٩٩٩، ص. ١٩). وعلى الرغم من التوتر الذي شاب العلاقات الثنائية خلال هذه الفترة، إلا أن العلاقات على المستوى الاقتصادي والتبادل التجاري والثقافي والتعليمي، شهدت ازدهاراً وتطوراً، ليرتفع حجم التبادل التجاري بينهما من ٥ مليارات دولار عام ١٩٨٠م إلى ٢٣١ مليار دولار عام ٢٠٠٤م، وإلى ٦٩٠,٦ مليار دولار عام ٢٠٢٢م وإلى ٧١٦ مليار دولار في النصف الأول من عام ٢٠٢٣م، لتصبح الولايات المتحدة الشريك التجاري الأول للصين، وتصبح الصين الشريك التجاري الثالث للولايات المتحدة (English News cn, 2023).

ومن هنا، يمكن القول: أن التناقض الواضح ما بين الأرقام والسلوك بين الدولتين أخذ طابعاً جدياً منذ العام ٢٠١٩م عندما أعلنت إدارة الرئيس «دونالد ترامب» اتباع استراتيجية الردع الاقتصادي والتجاري في مواجهة الصين، ومما يؤكد ويعزز ويؤكد رغبة الولايات المتحدة في محاصرة، ومواجهة الصين، أن الأخيرة ذكرت ٣٢ مرة في وثيقة الأمن القومي الأمريكي لعام ٢٠١٧م، ثم جاءت إدارة الرئيس «جو بايدن» التي عززت استراتيجية الردع إلى مستوى أكثر حدةً. وبالتالي، أصبحت العلاقات أكثر توتراً.

لذلك، شكلت قضية تايوان معضلةً في مسيرة العلاقات الصينية- الأمريكية، فقد عززت هذه القضية التنافس والصراع بينهما، وشجعت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على توسيع مجالات الردع في مواجهة الصين. ومن هنا، يمكن استعراض بعض الوسائل التي استخدمتها الولايات المتحدة في مواجهة المساعي الصينية المستمرة لضم تايوان للصين، وهي على النحو التالي:

شهدت الحملة الانتخابية التايوانية في أذار/مارس ١٩٩٦م تبني بعض المرشحين بمن فيهم «لي تينج هوي» خطاباً متشدداً تجاه الصين، رافقتها

شعارات انفصالية قام بها بعض المرشحين مطالبين باستقلال تايوان عن الصين، ورداً على ذلك، حشدت الصين ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ جندي في مقاطعة «فوجيان» القريبة من تايوان، الأمر الذي دفع الولايات المتحدة لتحذير الصين من الانخراط في الترهيب العسكري (كلاع، ٢٠٢٢، ص. ٥٥)، وتجاهلت الصين تلك التحذيرات، وباشرت بسلسلة تجارب لإطلاق صواريخ قرب السواحل التايوانية، شملت إطلاق صواريخ على بُعد ٢٠٠ ميل من ساحل تايوان مهددةً بالتدخل العسكري إذا أعلنت استقلالها (ريحانا، ١٩٩٨، ص. ٨).

وقد أدت التجارب الصاروخية والتدريبات البرية الصينية إلى توتر العلاقات مع الولايات المتحدة، التي ردت بتحريك قطع من أسطولها البحري تجاه المياه الدولية قبالة ساحل تايوان لمراقبة التحركات الصينية، كما قامت باستعراض قوتها عبر حاملتي الطائرات «USS Enterprise» و«USS Nimitz» اللتين أبحرتا إلى مياه شرق آسيا منطلقة من اليابان إلى المياه المجاورة لتايوان، في حين غادرت «USS Nimitz» الخليج العربي مبحرةً إلى بحر الفلبين، وردت الصين في حينه بإجراء تجربة صاروخية رابعة في ١٣ أذار/مارس ١٩٩٦م، ومناورات شاملة تضمنت حشد ٤٠٠ ألف جندي و٤٠ قطعة بحرية و١٠ طائرات مقاتلة (عبد الحي، ٢٠٠٠، ص. ٤٦).

وفي ضوء هذه المعطيات، أبدت الصين قلقاً بعد قيام الولايات المتحدة ببيع صواريخ «باتريوت المعدلة» إلى تايوان، باعتبارها ستحد من قدرات النظام الدفاعي الصيني، وأكدت معارضتها للسياسة الأمريكية، واستخدمت حق النقض بمجلس الأمن عام ١٩٩٧م للمرة الأولى منذ ٢٥ عام لمنع تنفيذ قرار تبنته إدارة الرئيس الأسبق «بيل كلينتون» بإرسال مراقبين دوليين إلى غواتيمالا، كل هذه التطورات دفعت القيادة الصينية لتطوير قدراتها البحرية عبر مخطط يشتمل على بناء قواعد عسكرية للغواصات في مناطق جنوب الصين، وصناعة ٨٠ غواصة بحلول عام ٢٠٢٠م (بما يوازي قدرة الولايات المتحدة البحرية)، ونجحت بالفعل عام ٢٠١٢م في إدخال أول حاملة طائرات صينية للخدمة (حسن، ٢٠١٩، ص. ١٣٨).

وبناءً على التوجه والسلوك الصيني، اعتبرت إدارة الرئيس «بوش الابن» الصين منافساً، وليست شريكاً، وتزامن ذلك مع موافقة الكونغرس الأمريكي عام ٢٠٠٠م على مشروع قانون «تعزيز أمن تايوان» الذي يدعم التعاون العسكري بين الدولتين، وينص على إقامة اتصالات عسكرية بين الطرفين، وتوسيع برامج التدريب الأمريكي للجيش التايواني، وهو ما أثار غضب الصين، لكن يبدو أن المناخ الدولي آنذاك والمتمثل في انشغال الولايات المتحدة بالحرب على ما يسمى بـ«الإرهاب»، وغزو أفغانستان، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣م والأزمة الاقتصادية عام ٢٠٠٨م، وما تمخض عنها من ارهاق للخزينة الأمريكية؛ دفع إدارة «بوش الابن» للتأكيد على التوازن في العلاقة بين الولايات المتحدة والصين وتايوان معاً، ودعم سياسة «الصين الواحدة» (كلاع، ٢٠٢٢، ص ص. ٥٨-٥٩).

وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠١٠م، زار الرئيس «أوباما» اليابان للمشاركة في منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ «أبيك»، وفي كلمته؛ قال: «في القرن الواحد والعشرين، سيكون أمن وازدهار الشعب الأمريكي مرتبط بشكلٍ لا ينفصم بأمن وازدهار آسيا، وعلى أمريكا أن تستعيد لواء القيادة من جديد في آسيا»، وفي العام ٢٠١٢م، أقرت إدارته «استراتيجية إعادة بناء التوازن في آسيا والمحيط الهادئ»، وعمدت إلى تغيير سياستها تجاه الصين، فقد جاء في الوثيقة الاستراتيجية الأمريكية عام ٢٠١٢م: «من الضروري إعادة التوزان تجاه منطقة آسيا والمحيط الهادي»، وهو ما أعطى دعماً للتواجد العسكري الأمريكي في بحري الصين الشرقي والجنوبي، الأمر الذي أزعج الصين التي اعتبرت الوجود والممارسات الأمريكية على حدودها غير مقبولة، وتحيي سباق التسلح في المنطقة (زهيغيو، ٢٠١٧، ص. ٨٧).

وفي إطار هذه التحركات، حذر وزير الدفاع الأمريكي السابق «باتريك شانهان» من حالة عدم الاستقرار في آسيا بسبب أنشطة الصين، واتهمها بتعمد عسكرة الجزر في بحر الصين الجنوبي، وسيطرتها على نصف جزره، ومياهه الإقليمية، تمهيداً للهيمنة على البحار القريبة من مجالها الحيوي (سليمان، ٢٠١٩، ص. ١١١).

كما اتخذت الولايات المتحدة سلسلة من الإجراءات في مواجهة التحدي الصيني المتعاظم، وأعلن الرئيس «أوباما» رغبته في تعزيز التعاون العسكري مع اليابان وكوريا الجنوبية، والتقارب مع الهند، وإنشاء قواعد عسكرية أمريكية في أستراليا والفلبين وفيتنام، ووقعت إدارته عام ٢٠١٥م اتفاقية الشراكة عبر المحيط الهادئ، بهدف ربط اقتصاديات المحيط الهادئ بالاقتصاد الأمريكي بعيداً عن الصين (Woltz, 2022).

وفي سياق نظرية الردع، مارست الولايات المتحدة في عهد الرئيس السابق «ترامب» سياسة حادة تجاه الصين في ظل مؤشرات تنامي الاقتصاد الصيني، إذ أشارت الاحصائيات بأن الاقتصاد الصيني سوف يحتل المرتبة الأولى عالمياً ويطيح بالاقتصاد الأمريكي، وأن الصين تخطط لخنق الولايات المتحدة (بطريق الحرير)، وإقامة نظام مالي بديل ينهي هيمنة الدولار، إضافة إلى حشد قوات عسكرية في محيطها، ورداً على ذلك؛ تعهد الرئيس «ترامب» بإلحاق الهزيمة بالصين اقتصادياً، وسياسياً، تكنولوجياً وعسكرياً. لذلك، سعت إدارته لتوسيع نطاق الحضور التايواني على الساحة الدولية، ومساعدتها في الدخول في المنظمات الدولية، مثل: منظمة الصحة العالمية (حسن، ٢٠٢٠، ص. ٥٥٥).

في ١٦ أذار/مارس ٢٠١٨م أقر الكونغرس الأمريكي «قانون السفر التايواني»، وبموجب هذا القانون أصبحت العلاقة بين الولايات المتحدة وتايوان علاقة رسمية على كافة المستويات، ونتج عنه هذا القانون أن وقع الطرفين اتفاقية قنصلية تضفي طابعاً رسمياً على العلاقات الثنائية بينهم (Congressional Record , 2018, pp. 341-342).

وفي العام ٢٠٢٠م أبرمت إدارة ترامب صفقة سلاح لتايوان بقيمة ٦٢٠ مليون دولار، منها ٢٨٠ مليون دولار، تشمل نظام اتصالات ميداني للمعلومات، الأمر الذي اعتبرته الصين خطوة تهدف إلى محاصرتها، وخلق بؤر توتر في المنطقة (كلاع، ٢٠٢٢، ص. ٥٨)، وفي هذا السياق، أكد قائد البحرية الأمريكية «كينيث بريثويت» للجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ الأمريكي: «إنه سيعمل على إعادة الأسطول الأول للبحرية للعمل، للمرة الأولى منذ أكثر من ٤٠ عقود»، وسيخصص الأسطول المزيد من السفن والبحارة الأمريكيين قبالة جنوب شرق آسيا وغرباً إلى المحيط الهندي، بما في ذلك مضيق «ملقا» الذي تمر عبره إمدادات النفط والبضائع في المنطقة عن طريق البحر (Harkins, 2020)، وذلك بالقرب من مياه الصين.

وفي إطار مساعيها لاحتواء الصين، اعتمدت الولايات المتحدة على بناء التحالفات كأداة لاحتواء التهديد الصيني، مثل الاتفاق الأمني الثلاثي «أوكوس»، والحوار الأمني الرباعي «كواد»، و«قمة من أجل الديمقراطية»، وخطة «إعادة بناء عالم أفضل»، فإن واشنطن تعمل عبر تلك التحالفات على مواجهة الصين بتوظيف عدد من الأدوات السياسية والعسكرية والتكنولوجية والاقتصادية، التي من شأنها تأجيج الصراع بين الدولتين، وربما تدفعها إلى تهديد حلفائها، بالإضافة إلى تغيُّر خريطة التحالفات العالمية بإعادة التقسيم الأمريكي للعالم، وتعزيز توجه الصين نحو تحالفات مضادة (عبيد، ٢٠٢٣, ص. ٥٤).

ومنذ وصول الرئيس بايدن للسلطة توالت التصريحات الأمريكية التي تهدد وتتوعد الصين في حال أقدمت على ضم تايوان، فعلى سبيل المثال: سئل بايدن في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٢١م: عما إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة للدفاع عسكرياً عن تايوان في حال تعرضت لهجوم صيني؟

فأجاب: «أجل، لدينا التزام بهذا الشأن» (صحيفة الاستقلال، ٢٠٢٢: ٣)، وخلال لقاؤه برئيس الوزراء الياباني «فوميو كيشيرا» في طوكيو في ٢٣ أيار/مايو ٢٠٢٢م، أكد بايدن: «أن الولايات المتحدة سترد عسكرياً في حال هاجمت الصين تايوان» (صحيفة الأنباء الكويتية، ٢٠٢٢, ص. ١٨)، أما نائب وزيرة الخارجية الأمريكية «ويندي شيرمان»، فقد أكدت: «أن الإجراءات الأمريكية تجاه روسيا يجب أن تشكل عبرة للصين» (مركز المستقبل للأبحاث، ٢٠٢٢: ١)، في حين ربطت وزيرة الخزانة الأمريكية «جانيت يلين» بين حالتي أوكرانيا وتايوان، قائلةً: «إنه في حالة الهجوم على الجزيرة، ستتعامل واشنطن مع جمهورية الصين الشعبية بالطريقة نفسها التي تتعامل بها مع روسيا» (مجلة السياسة الدولية، ٢٠٢٢). في إشارة واضحة أن الولايات المتحدة ستفرض عقوبات اقتصادية على الصين في حالة قيامها بغزو تايوان.

في مطلع العام ٢٠٢٢م قدم رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ السيناتور الديمقراطي «بوب مينينديز» مشروع قانون «لتعزيز الدعم لتايوان لعام ٢٠٢٢» ينص على تصنيف تايوان «حليفاً رئيساً من خارج الناتو»، وفرض عقوبات على الصين حال شنت حرب لاستعادتها، وتخصيص ٤,٥ مليار دولار كمساعدات عسكرية لها حتى عام ٢٠٢٦م، ويُشكل القانون -حال تنفيذه- مرحلة جديدة في العلاقات بين تايوان والولايات المتحدة كحليف رئيس لها. وكانت إدارة بايدن قد أبرمت صفقات تسليح متطورة مع تايوان تقدر بـ٩٥ مليون دولار عام ٢٠٢١م، ومنذ وصول «تساي اينغ وين» كرئيسة لتايوان عام ٢٠١٦م، تتخذ مواقف متشددة تجاه الصين، وتدعو الولايات المتحدة باستمرار إلى التشدد تجاه مساعيها الهادفة ضم الجزيرة (مجلة السياسة الدولية، ٢٠٢٣).

الغرض الاستراتيجي	السياق	الهدف منها	نوع التمرين	اسم التدريب (إن وجد)	السنة
معارضة تقارب العلاقات بين الولايات المتحدة وتايوان	بعد اعتماد قانون السفر بين الولايات المتحدة وتايوان الذي يسمح بالزيارات الرسمية	محاكاة فرض حصار أو عملية إنزال برمائي مفاجئ	القوات البحرية والجوية باستخدام الذخيرة الحية	تدريبات بالذخيرة الحية	2018
إثبات جاهزية القدرات التشغيلية المشتركة لجيش التحرير الشعبي الصيني	جزء من الدورة التدريبية السنوية للجيش الشعبي الصيني	عمليات جوية وبحرية مشتركة بالقرب من تايوان	المناورات الجوية والبحرية	مناورات بحرية وجوية مشتركة	2019
ممارسة الضغوط على الحكومة التايوانية	تنامي العلاقات الثنائية بين تايوان والولايات المتحدة في عهد الرئيس ترامب	محاكاة الهجوم على تايوان من خلال الكثافة الصاروخية	القوات الجوية والبحرية	تمارين بالذخيرة الحية	2020
إظهار القوة وتحذير تايوان من التمادي في تطوير علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية	بعد أيام من عبور البحرية الأمريكية مضيق تايوان	تدريب على عمليات الانزال على الشاطئ وعمليات الهجوم	تدريب على عمليات الهجوم البرمائي	تمارين الإنزال المشتركة	2021
الاستعداد الشامل لسيناريو غزو تايوان	رداً على زيارة رئيسة مجلس النواب الامريكي نانسي بيلوسي إلى تايوان	حصار محاكاة وإطلاق فوق تايوان ضمن الحرب السيبرانية	مناورات عسكرية واسعة النطاق	أكبر التدريبات على الاطلاق	2022
الترهيب واختبار قدرات الدفاع الجوي التايواني	التوترات المستمرة بعد استقالة بيلوسي وتنامي الوجود العسكري الأمريكي	حلقت طائرات مقاتلة وقاذفات صينية متعددة المهام فوق تايوان	طلعات القوات الجوية	رحلات التدريب العسكرية	2022
سيناريو عزل تايوان واثبات قدرة الجيش الصيني على حصارها	رداً على اجتماع رئيسة تايوان "تساي إنغ ون" مع رئيس مجلس النواب الامريكي كيفن مكآرثي	محاكاة تطويق تايوان، واختبار فعالية الصواريخ والعمليات البحرية والجوية	تمارين متعددة الفروع والمهام	تدريبات "السيف الحاد المتحد -السيف المتحالف"	2023
تعزيز الجاهزية القتالية في الظروف الليلية المعقدة	زيادة الدعم العسكري الأمريكي لتايوان	أجرى تدريبات قتالية ليلية	التدريبات الجوية والبحرية	التدريبات الليلية	2023
التنسيق بين سلاح الجو والبحر واختبار القدرة على السيطرة على الفضاء الجوي والبحري	الرد على زيارة نائب الرئيس لاي تشينغ تي للولايات المتحدة الأمريكية	تدريبات قتالية بالطائرات والسفن البحرية وأنظمة الصواريخ البرية	مناورات جوية وبحرية	التدريبات القتالية	2023
التكامل القتالي بين سلاحي الجو والبحر، عبر الضربات الدقيقة المتكاملة	الرد على خطاب الرئيس التايواني لاي تشينغ تي	التركيز على الضربات الدقيقة المشتركة، واختبار الصواريخ وعمليات الطائرات بدون طيار. انضم إليها لأول مرة "خفر السواحل الصينية"	مناورات عسكرية واسعة النطاق	السيف المشترك	2024

جدول يوضح التدريبات الصينية حول تايوان ٢٠١٨-٢٠٢٤م (Jash, 2024: p.7)

الخاتمة

على الرغم من أنّ الولايات المتحدة أصبحت مضطرّة لانتهاج سياسة خارجية تقوم على مبدأ «صين واحدة» منذ عام ١٩٧١م، تماشياً مع المناخ الدولي السائد؛ إلّا أنّها تمارس في حقيقة الأمر، سياسةً خارجيةً مزدوجةً، تقوم على التعامل مع دولتين صينيتين، لا ترى لها مصلحة في وحدتهما معاً بالطرق السلمية. وتحاول بكلّ الوسائل، الحيلولة دون إتمام هذه الوحدة. وهنا تتجلّى إحدى المفارقات الكبرى في العلاقات الصينية- الأمريكية التي بدأت تأخذ منحاً صراعياً متزايداً وخطيراً، فمن المستحيل أن تتخلى الصين عن هدفها في استعادة تايوان بالطرق السلمية، وأيضاً من الصعوبة بمكان أن تتخلى الولايات المتحدة الأمريكية عن تايوان، والعمل على دعم استقلالها عن الصين، يتوقع أن تشكّل هذه القضية عقبةً كبرى، قد تحُول دون تحسين العلاقات بين الدولتين إلى أن يجري حسمها سلماً أو حرباً، وهذا يعني أن استراتيجية الردع الأمريكية ستبقى قائمة ما لم تحسم الحرب مصير هذه القضية.

الخلاصة

تُشكل أزمة جزيرة تايوان إشكاليةً للاستراتيجية الصينية القائمة على أنها جزءاً من الأرض الأم للصين، وبالتالي حتمية توحيدها، خاصةً في ظل تعاظم قوتها. كما تُشكل إشكاليةً للإدارات الأمريكية المتعاقبة وتوجهاتها الهادفة لتقويض الطموح الصيني بضم وتوحيد الجزيرة، وحرمان الصين من التمتع بنفوذ إقليمي واكتساب مكانة عالمية، من خلال اتباع استراتيجية ردع متعددة المهام والمجالات. ويبدو أن هذا الصراع بين الاستراتيجيتين الأمريكية والصينية حول إمكانية ضم أو عدم ضم الجزيرة، سيشهد مزيداً من التوتر في العلاقات بين الدولتين، وقد يقود إلى انبثاق تحالفات واصطفافات إقليمية ودولية، مما قد يدفع باتجاه التوصل لتسوية وتفاهمات تلبي مصالحهما المشتركة، أو إقدام الصين على خطوة مفاجئة لغزو الجزيرة وضمها، وبالتالي خلق واقع جيوسياسي جديد قد يفرض على الولايات المتحدة تقديم الردود والاستجابة له.

بناءً على ما تناولته الدراسة من تساؤلات، وتحليلات، يمكن استنتاج التالي:

عدم الثبات في إستراتيجيات الردع: يصعب اللجوء إلى استراتيجية الردع دون أن تتوفر مجموعة من الشروط والعناصر؛ كالمصداقية والقدرات المتاحة، والخبرة. وقد دفعت طبيعة التغيرات في النسق الدولي، والتجدد الدائم في توازنات القوى إلى عدم الثبات في إستراتيجيات الردع لدى هذه القوى، وبالتالي، يكمن جوهر استراتيجية الردع في إرغام الخصم على فعل معين -أو ثنيه عن فعل- دون الوصول إلى التصادم المباشر، وبذلك فإن الأطراف التي لديها القدرة على الردع، إن لم تمتلك الخبرة في توظيفها، فإنها حتماً ستذهب إلى ذلك التصادم، وبالتالي تفشل استراتيجية الردع.

تعدد إستراتيجيات الردع الأمريكية: منذ مرحلة الحرب الباردة، تعددت إستراتيجيات الردع الأمريكية وصولاً إلى استراتيجيتي، الضربة الاستباقية والضربة الوقائية، التي تستند إلى المباغتة، واتخاذ إجراءات بهدف تدمير تهديد محتمل لم تبرز عوامل تنفيذه بعد.

التذبذب وعدم الاستقرار: السمة العامة والغالبة في العلاقة بين الولايات المتحدة والصين، هي: التذبذب، وعدم الاستقرار، بسبب صعود الصين، وتعاظم قوتها، وسعيها المستمر لضم تايوان، وهي سياسة تتعارض مع الأهداف الأمريكية بالحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة.

قضايا خلافية تنذر بنشوب حرب: رغم الاعتماد المتبادل بين الولايات المتحدة والصين في المجال الاقتصادي، وضخامة حجم التبادل التجاري بينهما؛ إلا أن قضية تايوان تهدد بنشوب حرب بين البلدين، ناهيك عن القضايا الأخرى، مثل: العملة الصينية، وحقوق الملكية الفكرية والأدبية، وحقوق الانسان، فضلاً عن المساعي الصينية لإعادة تشكيل بنية النسق الدولي.

احتواء ومعالجة المشاكل العالقة: إن تقارب العلاقات الأمريكية -الصينية مرهونٌ باحتواء القضايا العالقة بينهما باعتبار أن العلاقات يجب أن تسير على مبدأ المصالح المشتركة التي تتطلب التعاون والتنسيق المتبادل.

الردع الأمريكي مقابل الاصرار الصيني: لجأت الولايات المتحدة إلى استراتيجية الردع لمواجهة الطموح والاصرار الصيني على ضم تايوان، واستخدمت خلالها كافة أشكال الردع المتاحة، إلا أن الأمر كان وما زال معقداً، نظراً لأهمية تايوان في الإدراك الإستراتيجي الصيني.

تشكيل الأحلاف لمواجهة الصين: حاولت الولايات المتحدة تشكيل أحلاف من شأنها محاصرة الصين ومنعها من ضم تايوان، كحلف: وأوكوس وكواد، وهي تسعى دوماً لاستغلال القضية التايوانية لردع الصين والضغط عليها لا سيما في ظل مساعيها لتفعيل مبادرة الحزام والطريق.

أخيراً، من الصعب القول؛ بأن الولايات المتحدة نجحت في استراتيجية الردع تجاه الصين، لأن الصين تتبنى عقلية القوة العظمى، ولديها ما تواجه به استراتيجية الردع الأمريكية، سواء على مستوى الامكانات البشرية أو الاقتصادية أو التكنولوجية، وهذا ما يجعل القدرة الأمريكية على ردع الصين محدودة، وإجراءاتها مدروسة بدقة في آنٍ واحد.

المراجع

المراجع العربية

- أبو عامود، محمد. (١٩٩٨). *العلاقات الأمريكية الصينية*. مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهر، القاهرة.
- أبو طالب، حسن. (١١ أغسطس ٢٠٢٢). *روسيا والصين وتحدى الهيمنة الأمريكية*. مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة.
- إدريس، فاضلي. (٢٠٠٨). *الوجيز في المنهجية والبحث العلمي*. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- الأيوبي، عيسى. (١٢ أيار ١٩٩٩). *طلاب صينيون يتظاهرون في برلين*. *صحيفة الديار*.
- باسط، سميرة. (٢٠١٤). *الاستراتيجية الجزائرية لمكافحة الإرهاب*. جامعة الجزائر، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الجزائر.
- ثابت، علي. (٥ أغسطس ٢٠٢٢). *تايوان والصين. ملخص تاريخ الصراع*، صحيفة العربي الجديد، ع. ٢٨٩٥.
- جندلي، رابح. (٢٠١٧). الدراسات المستقبلية: تأصيل تاريخي، ومفاهيمي، ومنهجي. *مجلة العلوم السياسية والقانون* ١، ٢٣ -٤٧.
- الجوهري، إسماعيل. (٢٠٠٩). *الصحاح: تاج اللغة وصحاح العرب*. دار الحديث، القاهرة.
- حجازين، زياد. (٢٠٢١). *العقوبات الاقتصادية كإحدى أدوات السياسة الخارجية الأمريكية: إيران وكوريا الشمالية (دراسة مقارنة)*. المركز الديمقراطي العربي، برلين.
- حرب، محمد. (إبريل ١٩٩٨). الصراع الصيني- التركستاني ومستقبل تركستان الشرقية. *مجلة السياسة الدولية* ١٣٢، ١١٢-١٣٣.
- حسن، وجدان. (٢٠١٩). مقومات القوة وأثرها في الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية الصينية عالمياً. *مجلة تكريت للعلوم السياسية* ١٧، ١٢٣-١٥٤.
- حماد، كمال، (تموز ٢٠٠٠). تايوان بين الإستراتيجيتين الصينيّة والأمريكيّة. *مجلة الدفاع الوطني اللبناني* ٣٣، ٢٩-٤٤.
- حوتية، فظيمة الزهراء. (٢٠٢٠). تطبيق المنهج التاريخي في العلوم القانونية والادارية. *مجلة آفاق* ١٢ (٤)، ١-١٣.
- الخولي، بسيوني. (٢٠٢٠). *الجيش في حضارة الإسلام*. بسيوني الخولي.
- دورتي، جيمس، وبالستغراف روبرت. (١٩٨٥). *النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية*. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
- الرافعي، أحمد، (١٩٩٨). *مناهج البحث العلمي: تطبيقات إدارية واقتصادية*. دار وائل للنشر، عمان.
- روبين ميريديث. (٢٠٠٩). *الفيل والتنين: صعود الهند والصين ودلالة ذلك لنا جميعا*. ترجمة: شوقي جلال، *عالم المعرفة*، الكويت.
- ريحانا، سامي. (نيسان ١٩٩٨). جنوب وشرق آسيا يتحضران للقرن الحادي والعشرين. *مجلة الدفاع الوطني اللبناني* ٣٤، ٥-٥٦.
- زروقة، إسماعيل. (٢٠١٦). *تطور الفكر الإستراتيجي*. جامعة المسيلة، الجزائر.
- زهيغيو، كونغ. (٢٠١٧). *إنشاء القوة البحرية الصينية: التحديات وإدارة الاستجابات*. ترجمة: حليم نصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
- الساعدي، رحيم. (٢٠١٣). *مقدمة إلى علم الدراسات المستقبلية*. ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر.
- سرور، عبد الناصر. (يناير ٢٠١٠). دوافع وتداعيات القرار الإستراتيجي الأمريكي باحتلال العراق عسكرياً في ٢٠٠٣. *مجلة جامعة الأقصى-سلسلة العلوم الإنسانية* ١٤ (١) ، ٥٣-٧٨.
- سليمان، منى، (أكتوبر ٢٠١٩). انعكاسات التنافس الأمريكي الصيني على مستقبل الشرق الأوسط. *مجلة السياسة الدولية* ٢١٨، ١١٠-١١٧.
- شعراوي، سالي. (٢٠١٨). *العلاقات الصينية الأمريكية وأثر التحول في النظام الدولي*. دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الشهابي، سعيد. (١٧ يوليو ٢٠٢٣). *مفهوم الردع من منظور عسكري وسياسي*. صحيفة القدس العربي، ع. ١١٤٧.
- صحيفة الاستقلال، (٢٠٢٢). *تايوان بين أميركا والصين.. المواجهة الاستراتيجية وسياقات الصراع*. صحيفة الاستقلال، عدد خاص.
- صحيفة الأنباء الكويتية، (٢٤ مايو ٢٠٢٢). *بايدن: سندافع عن تايوان عسكرياً.. والصين ترد: سنحمي سيادتنا*. صحيفة الأنباء الكويتية ع. ١٦٤٧٨.
- عبد الحق، مرسلي. (مايو ٢٠١٩). سياسة الردع بين الممارسة والقانون. *مجلة العلوم السياسية والقانون* ٣ (١٥)، ٢٦٤-٢٧٨.
- عبد الحي، وليد. (٢٠٠٠). *المكانة المستقبلية للصين في النظام الدولي (٢٠١٠-١٩٧٨)*. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي.
- عبد اللطيف، تامر محمد. (يونيو ٢٠٢٤). الاستراتيجية الأمريكية تجاه طموحات الصعود الصيني. *المجلة العلمية لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية* ٩ (١٨)، ٢٧٠-٣٢٦.
- عبده، أحمد جلال. (أكتوبر ٢٠٢٢). أثر الأزمة التايوانية على التوازن الإستراتيجي في شرقي آسيا: (العلاقات الصينية الأمريكية ٢٠١٦-٢٠٢٢: دراسة حالة). *مجلة الدراسات السياسية والاقتصادية* ٤، ٩٩-١٦٥، جامعة السويس،.
- عبيد، إبراهيم. (أغسطس ٢٠٢٣). الأحلاف في العلاقات الدولية: حلف أوكوس نموذجاً (دراسة في الأبعاد والتداعيات). *مجلة جامعة الأقصى-سلسلة العلوم الإنسانية* ٢٧ (٣)، ٢٦-٦٣.
- العقابي، علي. (٢٠١٠). *العلاقات الدولية: دراسة تحليلية في الأصول والنشأة والتاريخ والنظريات*. جامعة بغداد، بغداد.
- عقيل، وصفي. (٢٠١٣). الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان في ضوء التغيرات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة. *مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب* ١٠ (١)، ٩٩٩-١٠٣٥.
- علي، زيد محمد. (٢٠٠٩). *مكانة الردع في الاستراتيجية الوقائية الأمريكية*. جامعة النهرين- كلية العلوم السياسية- قسم الاستراتيجية، بغداد.
- عنتر، عبد النور. (٢٠٠٢). *الاستراتيجية الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١*. باتنين للخدمات المكتبية والنشر، الجزائر.
- غاني، سامي. (١٩٩٧). نحو مرحلة جديدة في العلاقات الروسية الصينية. *مجلة السياسة الدولية* (١٢٨).
- فهمي، أسماء. (٦ أغسطس ٢٠٢٣). *مواجهة الصين.. دوافع الاهتمام الأمريكي بتايوان*. المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، القاهرة.
- الكبيسي، عامر خضير. (٢٠١٠). *مدخل لدراسة الاستراتيجيات*، المنظمة العربية للتنمية الإدارية. القاهرة.
- كلاع، شريفة. (٢٠٢٢). المنظور الإستراتيجي الصيني تجاه قضية تايوان. *مجلة ستراتيجيا*، ١٧، ٤٦-٨١.
- كمال، محمد. (١٧ أغسطس ٢٠٢٢). *ما وراء التصعيد الأمريكي «المنضبط» ضد الصين؟*. مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة.

- لامه، أشرف. (سبتمبر ٢٠٢٣). العقوبات الاقتصادية في السياسة الخارجية الأمريكية. *المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية* ٢ (٣)، ٤٣١-٤٤٧.
- لزهر، عبد العزيز، (٢٠٢٠). استراتيجية الردع النووي بين التصورات التقليدية وتحولات ما بعد الحرب الباردة. *مجلة البحوث القانونية والسياسية* ٢ (١٥)، ٢٣٨-٢٠٢٣.
- مايكل، إس تشايس، وآرثر، تشان. (٢٠١٦). *نهج الصين المتطور إزاء الردع الاستراتيجي المتكامل*. منشورات مؤسسة RAND للسياسة في المحيط الهادئ وآسيا، سانتا مونيكا، كاليفورنيا.
- مجدوبي، حسين. (٥ إبريل ٢٠٢٣). *توقعات قائد الجيوش الأمريكية بشأن الحرب مع الصين وغزوها لتايوان*. صحيفة القدس العربي، ع. ٩٦٤، ١.
- *مجلة السياسة الدولية*، (٢٢ يونيو ٢٠٢٢). سيناريوهات صراع النفوذ والتصادم الصيني-الأمريكي فى تايوان https://www.siyassa.org.eg/News/18315.aspx.
- *مجلة السياسة الدولية*. (٤ أغسطس ٢٠٢٣). تداعيات زيارة «بيلوسي» لتايوان على مستقبل العلاقات الأمريكية– الصينية، https://www.siyassa.org.eg/News/18338.aspx.
- مركز الإمارات للسياسات. (١٠ يوليو ٢٠٢٣). *مواجهة الاستنزاف بالرَّدع: دوافع التحركات الأمريكية في شرق الفرات وتداعياتها*. وحدة دراسات المشرق العربي، أبو ظبي.
- مركز المستقبل للأبحاث المتقدمة. (١١ مايو ٢٠٢٢). *تأثري العقوبات الأمريكية ضد روسيا على النظام المالي العالمي*، ع. ١٥٣٩.
- مركز المستقبل للأبحاث المتقدمة، (١٦ أغسطس ٢٠٢٣). *دبلوماسية الجوار: فرص نجاح بكين في تهدئة توترات بحر الصين الجنوبي*، ع. ١٨٧٧.
- المساح، سوزانا. (سبتمبر ٢٠٢٢). *الردع الاقتصادي: محددات نجاح العقوبات الاقتصادية في إدارة التفاعلات الصراعية الدولية*. سلسلة دراسات مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة ١٦، ١-٢٠.
- مقلد، إسماعيل. (١٩٩١). *العلاقات السياسية الدولية-دراسة في الاصول والنظريات*، ط٤، المكتبة الاكاديمية، القاهرة.
- *المنجد في اللغة العربية المعاصرة (١٠٠٢)*. دار المشرق، ط٢، بيروت.
- ميكافيللي، نيقولا. (٢٠١٥). *فن الحرب (Art of war)*، ترجمة وتقديم: صالح زغلول، دار الكتاب العربي، دمشق.
- نقرش، عبد الله. (٢٠٠٢). السلوك الأمريكي بعد أحداث ١١ سبتمبر. *مجلة المستقبل العربي*، ع. ٢٨٦.
- هاس, رايان، بالنشيت, وجود. (نوفمبر ٢٠٢٣). *الطريقة الصحيحة لردع الصين عن مهاجمة تايوان القوة الصلبة الأمريكية ليست كافية*, فورن أفيرز, ترجمة مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، بغداد.
- هويدي، أمين. (١٩٨٣). *الصراع العربي الإسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي*، ط٢. دار المستقبل العربي، القاهرة.
- وادي، عبد الحكيم، وآخرون. (٢٢ شباط/فبراير ٢٠١٣). *الاستراتيجية: المفهوم والنظرية*، http://racheleenter.p/earch-php.

- Burroughs, W. (2022). *What is political science? What a disciplinary archipelago says about political scholarship and academia as a whole*. WWU Honors College Senior Projects (No. 556). Western Washington University. https://cedar.wwu.edu/wwu_honors/556.
- Castellum AI. (2023, August 21). *Russia sanctions dashboard: 2,695 before the invasion, 14,887 more since the invasion*. https://www.castellum.ai/russia-sanctions-dashboard.
- CBS News. (2022, April 6). *U.S. OKs up to $95 million in equipment, training for Taiwan's Patriot missile system*. https://www.cbsnews.com/news/us-up-to-95-million-equipment-training-taiwans-patriot-missile-system.
- Congressional Record. (2018). *Legislative history, H.R. 535: Jan. 9, considered and passed House;* Feb. 28, considered and passed Senate (Vol. 164).
- English News cn. (2023, February 23). *The volume of international trade with China will rise in 2022, shattering the theory of decoupling through real flows*. https://english.news.cn.
- Friedberg, A. (2005). The future of U.S.–China relations: Is conflict inevitable? *International Security*, 30(2), 7–45.
- Gartzke, E. L., & Dsay, J. (2014). *Cross-domain deterrence: Strategy in an era of complexity* (pp. 1–25). https://quote.ucsd.edu/deterrence.pdf.
- Harkins, G. (2020, October 28). *SecNav says China poses "threat beyond any comparison" to American way of life.* Military.com. https://www.military.com/daily-news/2020/10/28/secnav-says-china-poses-threat-beyond-any-comparison-american-way-of-life.html.
- Iran International. (2021, July 11). *Iranian newspapers write about the "Beirut scenario" in Baghdad, and the conditions for the success of the negotiations, and Shah Massoud in Tehran*. https://www.iranintl.com/en.
- Jash, A. (2024). China's military exercises around Taiwan: Trends and patterns. *Global Taiwan Brief*, 9(19), 1–15.
- Jervis, R. (2003). The binding empire. *Foreign Policy,* (137), 82–87.
- Kirschner, N. (2021, February 11). *U.S. sanctions on Venezuela explained*. ShareAmerica. https://share.america.gov/u-s-sanctions-venezuela-explained.
- Leclerc, G. (2023, June). *Impact of sanctions on the humanitarian situation in Syria. European Parliamentary Research Service* (EPRS), Think Tank, European Parliament.
- Lebow, R. N. (2018). *Avoiding war, making peace*. Springer. https://link.springer.com/book/10.1007/978-3-319-56093-9.
- Lopez Escobar, J. A. (2019, Fall). *Venezuelan refugee crisis: A consequence of U.S. economic sanctions*. Studies Honors Program, University at Albany, State University of New York, 1–13.
- Nadimi, F. (2021, September 17). *New Navy task force aims to deter Iran with unmanned systems.* The Washington Institute for Near East Policy.
- Schneir, P., & Barta, V. (1981). The legality of the U.S. economic blockade of Cuba under international law. Case Western Reserve. *Journal of International Law*, 13(3), 451–482.
- The Carter Center. (2020, September). *U.S. and European sanctions on Syria*. Copenhagen.
- The White House. (2022, February). *Strategy of the United States in the Indo-Pacific*. Washington, DC.
- Time. (2023, July 27). *U.S. announces $345 million military aid package for Taiwan*. https://time.com/6299419/us-military-aid-taiwan.
- Tzu, S. (1910). *The art of war: The oldest military treatise in the world* (L. Giles, Trans.). E. J. Brill.
- Woltz, S., et al. (2022). *Implications of a global People's Liberation Army: Historical lessons for responding to China's long-term global basing ambitions*. RAND Corporation.

زكارنة, فيصل، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 56-44، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/2834y480

العمل الأثري في فلسطين منذ القرن التاسع عشر
إشكاليات الدوافع والمعايير العلمية

فيصل زكارنة

الملخص

يهدف البحث إلى التركيز على تاريخ العمل الأثري في فلسطين منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن، ويرصد الخلفية الدينية والسياسية لبعثات التنقيب الأجنبية، وتحولها إلى دوافع استعمارية توسعية. وبالمقابل، يعرض لبعض بعثات التنقيب التي اعتمدت المعايير العلمية في عملها الأثري منذ الخمسينيات. استندت منهجية البحث إلى المنهج الوصفي التحليلي لتوثيق التنقيبات الأثرية ضمن مراحل زمنية، ودراسة دوافعها الحقيقية وآثارها، إضافة إلى استخدام المنهج التاريخي المقارن لقياس ملاءمة دوافع التنقيبات الأثرية في فلسطين مع المعايير العلمية للعمل الأثري بشكله الموضوعي المحايد. أظهرت النتائج بروز تيارات فكرية بعد احتلال عام ١٩٦٧ مناقضة لمنهج علم الآثار التوراتي، وتتبنى مناهج تستند إلى المعايير العلمية وأكثر موضوعية في العمل الأثري في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، التنقيب الأثري، علم الآثار التوراتي، الحركة الصهيونية، الرواية التوراتية الذاتي.

Archaeological Work in Palestine since the Nineteenth century
Problems of Motives and Scientific Standards

Faisal Zakarneh

ABSTRACT

The research aims to focus on the history of archaeological work in Palestine since the nineteenth century to the present and monitors the religious and political background of foreign excavation missions, and their transformation into expansionist colonial motives. It also presents some excavation missions that adopted scientific standards in their archaeological work since the fifties. The research methodology is based on the descriptive and analytical approach to document archaeological excavations within time stages, and to study their real motives and effects. The research also used the comparative historical approach to measure the suitability of archaeological excavations in Palestine with the scientific standards of archaeological work in its objective and neutral form. The results showed the emergence of intellectual schools of thought after the1967 occupation contradicting the biblical archeological approach and adopting scientific and more objective-based approach in archaeological work in Palestine.

Keywords: Palestine, archaeological excavation, biblical archaeology, Zionist movement, biblical narrative.

الأستاذ فيصل زكارنة, باحث مستقل, للمراسلة: faisalz2012@yahoo.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس, (www.alquds.edu).

Mr. Faisal Zakarneh, Independent Researcher. For correspondence: faisalz2012@yahoo.com.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

بدأ الاهتمام بفلسطين كأرض مقدسة في فترة مبكرة نتيجة لدوافع دينية مرتبطة بعقائد أولئك المؤمنين بتلك الديانات السماوية، ولكن في منتصف القرن التاسع عشر، أخذ هذا الاهتمام طابعاً جديداً بدوافع سياسية واقتصادية من قبل القوى الغربية. شهدت فلسطين العديد من حملات التنقيب الأثري التي كانت غالبًا متأثرة بالتحيز الديني والسياسي، وكان الهدف منها إما إثبات صحة المرويات التوراتية، أو تعزيز المزاعم السياسية حول أحقية اليهود في الأرض. وخلال فترة الاحتلال والانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨م)، نشأت ما تعرف بمدرسة علم الآثار التوراتي، والتي كثفت من أنشطة العمل الأثري الغربي في فلسطين، تحت إشراف ورعاية ودعم الإدارة البريطانية، حيث ساهمت الحركة الصهيونية في توجيه هذه البعثات لخدمة أهدافها السياسية، ما أدى إلى ربط الآثار الفلسطينية بالهوية اليهودية بشكل غير علمي. وفي هذا السياق، وُظف علم الآثار كأداة لدعم مشروع إقامة الدولة اليهودية، رغم مقاومة الفلسطينيين لهذه الأنشطة، فقد استمرت بعثات التنقيب، وظهر تأثيرها بشكل واضح في عام ١٩٤٨م وتأسيس دولة إسرائيل، وما تضمنه إعلان الاستقلال من تبريرات وسياقات تاريخية، عكستها نتائج التنقيبات الأثرية. وعلى إثر احتلال إسرائيل لباقي فلسطين الانتدابية عام ١٩٦٧، أطلقت سلطات الاحتلال الإسرائيلي حملة واسعة من المسوحات والتنقيبات الأثرية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بهدف إعادة تشكيل تاريخ الأرض بما يتماشى مع الرواية الصهيونية، وشمل ذلك سرقة الآثار وتدمير المواقع التاريخية، وتزوير التاريخ الحقيقي لتلك المواقع. بعد عام ١٩٩٤م أطلقت السلطة الفلسطينية برنامجاً طموحاً للعمل الأثري المنظم في فلسطين من قبل دائرة الآثار الفلسطينية، وقد نجحت إلى حد ما في تنفيذ أجزاء من ذلك البرنامج، إلا أن التحديات التي فرضها الاحتلال الإسرائيلي جعلت العمل الأثري الفلسطيني الرسمي يواجه صعوبات في تأهيل وحماية الإرث الثقافي.

لقد انطلق العمل الأثري في فلسطين بمختلف مراحله الزمنية من دوافع اصطدمت بإشكالية عدم الاستناد إلى معايير علمية واضحة. ولفهم تلك الإشكالية سيتم تناول مختلف مراحل العمل الأثري في فلسطين، ودوافعه، واستراتيجياته، ونتائجه من خلال خمسة محاور رئيسيّة:

أولاً: رحلات الحجّ والاستكشاف والتنقيبات الأولى في فلسطين

شكّلت فلسطين وجهة ومقصداً روحياً ملهماً للكثير من المؤمنين، خاصة أولئك المسيحيّين في أوروبا، والّذين طالما سمعوا وقرأوا وحلموا بالأرض المقدّسة موطأ السّيّد المسيح ومسرح سيرته ومعجزاته. سعى الكثير من مسيحيّي أوروبا للحجّ وزيارة الأرض المقدّسة، وكانت تلك الرّحلة تعتبر هدفاً سامياً ونهائيّاً يتمّم عقيدتهم وإيمانهم. ورغم البعد الجغرافي ومشقّة السّفر وتكاليفه، إلاّ أنّ رحلات الحجّ إلى فلسطين استمرّت عبر مختلف الفترات الزّمنيّة.

يوثّق الحاج بورشارد (Burckhardt)، في وقت مبكّر، رحلته وإقامته في الأرض المقدّسة في كتابه (وصف الأرض المقدّسة) والذي يعبّر فيه عن تلك القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة الّتي مثلتها فلسطين في وجدانه. والحاج بورشارد هو مواطن ألماني من بلدة ماجديبورغ (Magdeburg)، وقد عاش في القرن الثالث عشر الميلادي وأصبح راهباً في جماعة الدّومنيكان، كما أنّه توجّه إلى الشّرق في سنة ١٢٣٢م، حيث زار عدّة بلدان ومن ضمنها فلسطين، ومكث في دير جبل صهيون في القدس عشر سنوات (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ١٦-١٧). قدّم الحاج بورشارد في كتابه المذكور وصفاً كاملاً للأرض المقدّسة، أي فلسطين، والمهمّ في هذا الوصف هو انطلاقه من شعور داخلي تميّز به أغلب الحجّاج المسيحيّين، والّذين انطلقت مشاعرهم من تلك القيمة الوجدانيّة العالية التي مثلتها فلسطين لهم. فيقول الحاج بورشارد في مقدّمة كتابه:

> « .. ما العجب إذن، إذا طال شوق المسيحيّين لمشاهدة الأرض المقدّسة وزيارتها حيث توجد كل كنائس المسيح الّتي أخبرنا عنها؟ وقد وقّر الأتباع الكبار قدس الأقداس، لأنّ تابوت العهد، كان يوجد وكأنّه الملاك الجميل مع الغطاء الذّهبي، والمنّ (الذي أنزل على بني إسرائيل)، والعصا التي أزهرت، كل هذه كانت أنواع لأشياء موجودة..... يا إلهي فكما تخبرنا التّواريخ القديمة، فإنّني أرى إبراهيم (عليه السّلام) تاركاً بلدة عائلته، وبيت والده، وقادماً بسرعة لهذه الأرض، ينصب خيمته بين بيت إيل وعاي، ويقيم إقامة مؤقّته في جرار وبئر السّبع، وفي الخليل. إنّني أتصوّر حزقيال تاركاً مياه بابل، محمولاً من شعر رأسه بين السّماء والأرض، يشقّ طريقه باتّجاه بيت المقدس. ماذا سأقول (لمريم) العذراء المبجّلة، التي لم تقنع بسهول الجليل الجميلة الواسعة، وانطلقت مسرعة للصّعود إلى بلدة جبليّة من بلدان بيت المقدس، خاصّة بعد أن أبلغتها الملائكة ببشارة المسيح -عليه السّلام- والوعد الذي عرفت بمقتضاه أن رحمها خصّصت لتكون بيت الإله. ماذا يمكنني القول عن سيّدنا يعقوب، ويوسف وإخوته الذين لم يستطيعوا الاستقرار في تلك الأرض (فلسطين) خلال حياتهم، وبسبب ذلك اختاروا أن يدفنوا فيها بعد مماتهم ...» (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ٢٦-٢٩).

يستنتج من حديث الحاج بورشارد مدى التّعلّق والشّغف بالأرض المقدّسة، ومن الواضح في حديثه إيمانه الشّديد بمرويّات العهد القديم من الكتاب المقدّس، وباعتبار أنّ فلسطين شكّلت المسرح الحقيقي لتلك المرويّات وما تبعها من مرويّات للعهد الجديد.
إنّ ذلك التّعلّق والشّغف حفّز الحاج بورشارد أن يسير في فلسطين طولاً وعرضاً مشياً على الأقدام، ليحدّد كلّ تلك المواقع المقدّسة، من دان في الشّمال وحتّى بئر السّبع في الجنوب، ومن البحر الميّت في الشّرق، إلى البحر المتوسّط في الغرب، وهي الحدود التّوراتيّة لأرض كنعان، حتى يرسم ويصف تلك الأرض المقدّسة ليسهّل على الحجيج الآخرين فهم كتابهم المقدّس ومرويّاته (الحاج بورشارد، ١٩٩٥، ص ص. ٣١-٣٢).
استمرّ الاهتمام بفلسطين من خلال رحلات الحجّ واكتشاف الأرض المقدّسة، وفي هذا السّياق، جاءت رحلة القسّ السويسري فيليكس شميدت .١٤٨٣-١٤٨٤م، وتابعت تلك الرّحلات مسارها إلى أن تطوّرت إلى رحلات وبعثات تنقيب أثري، وكان الدّافع لها خلفيّة دينيّة ترتبط بالكتاب المقدّس، وبأنّ فلسطين هي الأرض المقدّسة (أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٢٧).
جاءت حملة نابليون بونابرت على فلسطين عام ١٧٩٩م والتي أعقبت حملته على مصر ١٧٩٨م، لتؤكّد أنّ الدّوافع الدّينيّة والاستعمارية الأوروبيّة كانت هي الغالبة في المسح والاكتشاف والتعرّف على فلسطين، حيث وجّهت حملة بونابرت نحو استنهاض الاهتمام الأثري في فلسطين، بهدف إعادة بناء مكانة التّوراة ضمن تاريخ فلسطين والشّرق الأدنى القديم، وبذلك فقد تحوّل الاهتمام الأوروبي من إطار رحلات الحجّ واكتشاف الأرض

المقدّسة، والذي زاد بشكل كبير منذ القرون الوسطى، باتّجاه مرحلة العمل الأثري والحفر تحت الأرض، والذي جاء في وقت لاحق مع منتصف القرن التّاسع عشر ميلادي، تحقيقاً للأهداف الدّينيّة والاستعمارية المذكورة سابقاً (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص. ٢٠).

شهد القرن التّاسع عشر تطوّراً نوعيّاً في أعمال المسوحات والتّنقيبات الأثرية الأولى في فلسطين، وانطلق هذا التّطوّر من حدث رئيسي تمثل في رحلة عالم اللّاهوت إدوارد روبنسون (Edward Robinson) وصديقه إيلي سميث (Eli Smith)، 1838م، حيث توصف هذه الرّحلة بأنّها مهّدت الطّريق لبعثات التّنقيب الأولى في فلسطين. واستمرّت تلك الرحلة ثلاثة أشهر، حيث قام كل من روبنسون وسميث بتوثيق كافّة المواقع والأسماء الفلسطينيّة ومطابقتها مع ما ورد في الكتاب المقدّس. وتبع ذلك تطوّر آخر وهو قيام بريطانيا بإنشاء صندوق اكتشاف فلسطين عام ١٨٦٥م، حيث بدأ هذا الصّندوق بالحفر والتّنقيب في فلسطين ابتداءً من عام ١٨٦٧م مع بعثة ضابط المدفعيّة تشارلز وارن (Charles Warren)، والتي عملت في القدس (أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٩-٣١). وتوالت بعثات المسح والتّنقيب الأثري الغربيّة في فلسطين، حتّى بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م.

ويمكن إجمال وتلخيص بعض النماذج من أهمّ تلك البعثات ونتائجها، حسب الترتيب الزمني الكرونولوجي، على النّحو التّالي (نجم، ٢٠٠٩، ص. ٥٠، ص ص. ٨٤-٨٥؛ الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص ص. ٥٣-٥٤؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ٣٤، ص ص. ٩٨-٩٩؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٧-٥١؛ طه وكوي، ٢٠١٤، ص ص. ٩-١٤):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج
1	غزة (تل العجول)	بعثة المدرسة البريطانية بإشراف فلندرز بتري (Flinders Petrie)	1878م	مسح ودراسة الموقع فوق السطح
2	القدس	بعثة فريدريك جونز بليس (Frederick Jones Bliss)، وآرشيبالد كامبل ديكي (Archibald Campbell Dickie)	1894م-189م	دراسة طبقات الأرض، في جنوبي سور القدس، وخرجا بعد ذلك بنظريات خاطئة في عدم تحديد الطبقات للفخاريات وتاريخ صناعتها
3	مجدو (تل المتسلم)	بعثة ارنست سللين (Ernest Sellin)	1901م	اكتشاف ألواح ورقم طينية مسمارية ومخلفات عمرانية تعود لمختلف العصور
4	قرية أبو شوشة (تل جازر)	بعثة ستيوارت ماكاليستر (Stewart Macalister)	1902 -1909م	توثيق وتأريخ المخلفات الأثرية خاصة فيما يتعلق بمملكة يهودا في العصر الحديدي وغيره من العصور، وظهور جدل حول صحة ذلك التأريخ
5	أريحا (موقع تل السلطان الأثري)	بعثة نمساويّة ألمانيّة بإشراف عالم الدّراسات التّوراتيّة ارنست سللين (Ernest Sellin)، وكارل فانزنغر (Carl Watainger)	1907م	توثيق المكتشفات الأثرية من موقع تل السلطان، ووضع مخططات هندسية للمكتشفات والموقع
6	سبسطية (موقع السامرة الأثري)	بعثة جامعة هارفرد بإشراف جورج رايزنر أندرو (George Reisner Andrew)	1908م–191م	اكتشاف 70 كسرة فخارية تعود للقرن الثامن قبل الميلاد، ومخلفات عمرانية، وظهور جدل حول تأريخ وتوثيق تلك المكتشفات
7	القدس	بعثة مونتاغو براونسلو باركر (Montagu Brownslow Parker)	1913م	لا توجد نتائج عملية بعد التوقف عن الحفر في الحرم الشريف، خاصة جنوب شرق قبّة الصّخرة، بسبب معارضة الأهالي وإثارة الرأي العام الفلسطيني ضدّ الحفريّات الأوروبية في الأماكن المقدّسة، والاعتراض على فساد الإدارة العثمانية لدى السلطان العثماني في الآستانة (اسطنبول)
8	تل بلاطة	بعثة الجمعية الألمانية للبحث العلمي بإشراف ارنست سللين (Ernest Sellin)، وكارل فانزنغر (Carl Watainger)	1913– 1914م	اكتشاف مقاطع من سور المدينة التاريخية والذي يصل ارتفاع بعض جهاته إلى 10 أمتار، ويعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد، ومخلفات عمرانية أخرى

جدول ١: نماذج من بعثات المسح والتّنقيب في فلسطين حتّى الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤م

يتضح جلياً مما سبق ذكره سيطرة المعتقدات الدّينيّة على مختلف بعثات الاكتشاف والتّنقيب الأولى في فلسطين، حيث ساد في الغرب، وخاصّة في القرن التّاسع عشر، قناعة راسخة دينيّة بأنّ الدّيانة اليهوديّة هي منبع الحضارة الغربيّة، ومن هنا نشأت فكرة البحث عن إسرائيل القديمة في فلسطين، وهذه الفكرة ترسّخت بشكل جذري في الوعي الجمعي الأوروبي وعلى مختلف المستويات. وهذا انعكس في حياة العائلة الأوروبية البسيطة من الطفل وحتّى الشّيخ، فالكلّ يغنّي ويرتّل للأرض المقدّسة وتاريخها المجيد، ابتداءً بإسرائيل القديمة، ووصولاً إلى يسوع المخلّص، وبالتّالي، فإنّ ذلك الفكر المتجذّر في الوعي الأوروبي يصعب تغييره أو تبديله. وفي هذا السياق، فقد وضح المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند في كتابه (اختراع أرض إسرائيل) أن هذا الفكر الديني الأوروبي بدأ بالتشكل مع القرن السادس عشر ميلادي، وانطلاق الحركة الإصلاحية البروتستانتية، وما رافقها من إجراءات دينية أهمها ترجمة العهد القديم من اللاتينية المعقدة، والتي يجهلها أغلب الأوروبيين، إلى اللغات الأوروبية المحلية كالإنجليزية والألمانية، وأصبحت بذلك أسفار العهد القديم متاحة أمام المتخصص والقارئ العادي، وهذه العملية أدت بالنهاية إلى تشكل ذلك الوعي الجمعي المشار إليه والمتعلق بإسرائيل القديمة والأرض المقدسة، وخاصة في بريطانيا (ساند، ٢٠١٣، ص. ١٦١).

حرّكت عواطف المنقّبين الأوائل في فلسطين اهتمامهم بالمواقع الأثرية الفلسطينية، وليست أهميّة الموقع أو تاريخه الحضاري، ومن هذا المنطلق فإنّ إرث ومرويّات العهد القديم كانت موضع اهتمامهم الرّئيسي في القرن التّاسع عشر وما تلاه، وكان هدف أولئك المنقّبين

إثبات صحة المرويّات التّوراتيّة فقط، من حيث الأحداث التّاريخيّة والعادات وأسماء الأماكن. وفي هذا الإطار، يتضح من خلال تاريخ بعثات الاكتشاف والتنقيب المدرجة في الجدول (١)، أن خلفية العاملين في التّنقيب تعود لمؤسّسات دينية غربية، ولم يكونوا مختصين بالعمل الأثري بالأساس، ويستشفّ من استعراض خلفيّة أولئك المنقّبين الأوائل أنّ أغلبهم كانوا بالأساس علماء لاهوت ودراسات توراتية، ويتْبعون لمؤسسات دينية وكنائس تبشيرية غربية، عملت ضمن معتقداتها الدينية الأسطورية، وليس على أساس المناهج المتعارف عليها في علم التاريخ والآثار (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص ص. ٢٠-٢٢). وبالتالي، فإن كل ما سبق قد انعكس على عدم دقة نتائج تلك البعثات وموضوعيتها، وتناقضها، استناداً إلى عدم اعتمادها أصلاً على معايير علمية واضحة في الحفر والتنقيب الأثري. ويضاف إلى ما سبق، أن الدوافع الدينية لم تكن هي المحرك الأساسي الوحيد لأعمال التنقيب الأولى في فلسطين في القرن التاسع عشر وما تلاه، بل تبعتها دوافع سياسية واقتصادية كانت متمّمة للدوافع الدينية، حيث سعت القوى الغربية إلى استغلال وتوظيف البعثات الأولى في خلق موقع قدم لها لحماية مصالحها، خاصة التجارية منها وتطويرها، في ظل ضعف الدولة العثمانية المتهالكة، الذي كان له أثر كبير وأساسي في استباحة فلسطين والأراضي الأخرى التابعة للسلطنة، فضُعف الإدارة العثمانية وفسادها مكّن القوى الغربية وبعثاتها الأثرية من السيطرة على العديد من اللقى والمخلفات الأثرية وسلبها، ونشر تفسيرات تلك البعثات كنتائج نهائية مسلم بها، تعبّر عن أهواء ومقاصد مرسلي تلك البعثات، دون حسيب أو رقيب، وفي ظل غياب الوعي والجهل والطمع في بعض الأحيان لدى بعض الفئات في المجتمع الفلسطيني وغيرها من البلاد المستهدفة. حيث أن المشاركة الشعبية في رفض تلك التنقيبات والحفريات كانت ضعيفة، إلا من بعض الأحداث الاستثنائية كمواجهة حملة بعثة مونتاغو براونسلو باركر (Montagu Brownslow Parker) والموضحة في الجدول (١). إن ضعف الوعي لدى عامة الفلسطينيين كان من العوامل الرئيسية المسببة لذلك الضعف في مواجهة التنقيبات الأثرية الغربية الاستعمارية. إلا أن سوء الأحوال الاقتصادية والفقر وأولوية الناس قد تركزت على توفير لقمة العيش قبل البحث في أي شيء آخر، كان العامل الأبرز في عدم مواجهة تلك التنقيبات شعبياً (الشلبي والعدوان، ٢٠١١، ص. ٦٠).

ثانياً: التنقيبات الأثرية في عهد الانتداب البريطاني

خلال الحرب العالمية الأولى، وفي العام ١٩١٧م، منحت بريطانيا وعدها الشهير والمسمى وعد بلفور، لزعماء الحركة الصهيونية، والقاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ومن هنا باشرت الحركة الصهيونية العمل في كافة الميادين لتعزيز وجودها على الأرض في فلسطين، ومن تلك الميادين التي ركزت عليها علوم التاريخ والآثار. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، وهزيمة الدولة العثمانية، وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ومن ثم الانتداب البريطاني، وأصبحت بريطانيا المسؤولة عن إدارة شؤون فلسطين في كافة مجالاتها، بما في ذلك الجوانب الأثرية، حيث أسس المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل (Herbert Samuel) دائرة الآثار الفلسطينية عام ١٩٢٠م، بإدارة جون غارستانغ (John Garstang) من جامعة ليفربول، والذي كان له خبرة في التنقيب الأثري في مصر. عملت الحركة الصهيونية منذ بداية الانتداب البريطاني على إيفاد العديد من الباحثين الصهاينة للعمل ضمن الفرق العلمية المتخصصة بالدّراسات والتاريخ التّوراتي، ومن أشهر من استقبل أولئك الموفدين واحتضنهم، وليم اولبرات (William Albright)، والذي كان يعمل رئيساً للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس من ١٩١٩م وحتى ١٩٣٥م.

انسجمت الأهداف الصهيونية مع البحث التاريخي التوراتي ممّا أدّى إلى تشكيل منظومة عمل متكاملة في فلسطين، وتحت رعاية الإدارة البريطانية فيها، بهدف العمل على تحقيق وعد بلفور على أرض الواقع. ومن أبرز الموفدين الصهاينة الأوائل إلى فلسطين جوزيف كلاوزنر (Joseph Kaluzner) واليعازر بن يهود (Eliezer Ben Yahudal)، وكان أول عمل تباشره تلك المنظومة الجديدة هو تنقيبات في منطقة جنوب بحيرة طبريا والتي أجراها ناحوم سلوش (Nahum Slauch). لم يكن الموفدون الصهاينة الأوائل مختصين بالعمل الأثري، وإنما اقتصرت مهامهم في البداية على جمع المعلومات وتحديد مواقع الآثار اليهودية. وفي العام ١٩٢٢م أوفدت الحركة الصهيونية اليعازر ليبا سوكنيك (Eliezer Lipa Sukenik) بعد أن التحق بعدة دورات تدريبية أثرية في برلين، ولاحقاً في المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس، وبدأ في العمل الميداني بعد ذلك بحفر عدة خنادق في القدس، وتتالت أعمال الحفر والتنقيب لتلك المنظومة من خلال العديد من البعثات، وعلى قاعدة دمج الأهداف الصهيونية مع التنقيبات والأبحاث الأثرية التوراتية، وفي مختلف المواقع الفلسطينية (إبراهيم، د. ت، ص ص. ٩-١٠).

لقد سعى رواد الحركة الصهيونية منذ تأسيسها مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي إلى تعزيز فكرة الدولة اليهودية على قاعدة دينية خالصة مستوحاة من مرويات العهد القديم، لتشكّل عنصراً جاذباً ومقنعاً ليهود العالم، حتى يتبنّوا تلك الفكرة ويدعموها، وذلك من خلال إقامة إسرائيل الجديدة على أرض الميعاد (فلسطين)، وعاصمتها «أورشليم» وهي القدس، وإقامة الهيكل الثالث، وإحياء تراث الإسرائيليين الأوائل من جديد، تحت راية أحفادهم اليهود المعاصرين، خاصة في أوروبا. وضع أولئك الرواد خططاً وبرامج عمل لتحقيق أهدافهم من خلال اعتماد أساليب جديدة تدعم الدوافع الدينية وتعزّزها، وكان أبرز تلك الأساليب والأدوات هو علم الآثار، حيث سعوا جاهدين لربط ذلك العلم بأدبياتهم ومعتقداتهم الفكرية الدينية، ولتحقيق ذلك، عملوا بجد لدعم المشاركة في مختلف البعثات الأثرية الغربية، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة الانتداب البريطاني، حتى قيام دولتهم عام ١٩٤٨م (نجم، ٢٠٠٩، ص. ٧٥).

انطلق العمل الأثري الغربي، ومن ضمنه الصهيوني، على أوسع نطاقه في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني، ويمكن تلخيص بعض النماذج لأهم بعثات التنقيب والعمل الأثري في تلك الفترة على النحو التالي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١٠٤-١٠٦؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ٣٤، ص. ٨٠، ص ص. ١١٣-١١٧، ص ص. ٩٩-١٠٠، ص ص. ١٢٦-١٢٨؛ إبراهيم، ٢٠١٠، ص. ١٤٤؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٤٠):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج
1	القدس	بعثة ستيوارت ماكلستير (Stewart Macalister) ودانكن (J. G. Duncan)	1925-1923	اكتشاف قطع حجرية من السور الشمالي للمدينة تعود للعصر البرونزي المتأخر
2	تل بيت مرسيم (الخليل)	بعثة المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية بإشراف وليم أولبرايت (William Albright)	1932-1926م	اكتشاف مخلفات أثرية وعمرانية لمدينة كنعانية نموذجية تعود للعصر البرونزي المبكر، ولمختلف الفترات الزمنية وصولاً إلى العصر الحديدي
3	أريحا	بعثة جون غارستانج John (Garstang)	1939-1929م	اكتشاف مخلفات أثرية للمستوطنة النطوفية الأولى للعصر الحجري الحديث، مرحلة ما قبل الفخار
4	غزة (تل العجول)	بعثة المدرسة البريطانية للآثار بإشراف جيمس ليسلي ستاركي (James Leslie Starkey)، اولغا توفنيل (Olga Tufnell)	1938-1932م	اكتشاف كهوف منحوتة في الصخر للسكن تعود للعصر الحجري النحاسي في الألف الرابعة قبل الميلاد، ومخلفات أثرية وعمرانية كبيرة لمدينة كنعانية مسورة من مختلف العصور البرونزية، ومدينة نموذجية مسورة من العصر الحديدي، وتشمل قصراً ومساكن ومدافن وأدوات وأواني فخارية ذات ملامح مصرية
5	تل عي (البيرة)	بعثة ماركويت كروز (Marquet Krause)	1935-1933م	اكتشاف مخلفات أثرية لمدينة كنعانية تعود للعصر البرونزي القديم، وتشمل قبورا ومساكن ومعبد، واكتشاف مساكن تعود للعصر الحديدي الأول قامت على مخلفات مساكن من العصر البرونزي المتأخر
6	خربة الكرك (طبريا)	بعثة الجمعية اليهودية لاكتشاف فلسطين بإشراف بنجامين مازار (Benjamin Mazar)، وآخرون	1945-1944م	اكتشاف تحصينات دفاعية لمدينة تعود للعصر البرونزي المبكر، وتقع هذه التحصينات في جنوب وغرب الموقع، في حين أنّ شمال وشرق الموقع محاط ببحيرة طبريا. ومخلفات أثرية وعمرانية من مختلف العصور
7	القدس	بعثة نحمان افيجاد (N. Avigad)	1947-1945م	اكتشاف قبور في وادي قدرون اصطلح على تسميتها بقبور ابنة فرعون ابشالوم (Absalom) وبن هيزر وزكريا وتعود للفترة الهيرودية، بالإضافة إلى اكتشاف آبار وقنوات وحمامات في البلدة القديمة وتعود أيضاً للفترة الهيرودية
8	تل الفارعة الشمالي (نابلس)	بعثة مدرسة الآثار الفرنسية بإشراف بيير ديغو (Pierre Diégo)	1946م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للمستوطنة الأولى من العصر الحجري النحاسي في الألف الرابعة قبل الميلاد، والمدينة الكنعانية المسورة من العصر البرونزي المبكر وما يليه

جدول ٢: نماذج من بعثات المسح والتنقيب خلال فترة الانتداب البريطاني

تُعتبر فترة الانتداب البريطاني في فلسطين المرحلة الأساسية التي انطلق فيها علم الآثار التوراتي، على يد وليم أولبرايت (William Albright) والذي يتغنى بأنّه كان له شرف العمل والدراسة في تلك الفترة الهامة، خاصة خلال ترأسه للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس. ويؤكد أولبرايت على أن مشروعات العمل الأثري اتخذت منحى ثورياً ابتداء من عام ١٩٢١م، وبدأت بتحقيق نتائج ملموسة مع بداية وأواسط الثلاثينيات، حسب وجهة نظره، وأن التقدم في الأساليب والنتائج كان في تطور مستمر وبهدف كتابة تاريخ متكامل لفلسطين كما ترويه آثارها (أولبرايت، ١٩٧١، ص ص. ٢٩-٣١). لقد أسّس أولبرايت منهجه في العمل الأثري على دوافع دينية خالصة، يعبر عنها بكل وضوح وقوة بتأكيده أن كل العهد القديم هو نتاج الأرض الفلسطينية والكتاب الإسرائيليين الأوائل، وأن العهد الجديد، والمكتوب بالإغريقية، هو نتاج نفس الأرض. إن العهد القديم وبفضل الشريعة الموسوية تحول إلى عقيدة دينية تسمو سمواً عظيماً عن كل نظرائها في مصر وبلاد الرافدين، وذلك الحال ينطبق على العهد الجديد، حيث أن محتوياته تتضمن خلاصة العقيدة والفكر اليهودي الممزوجين بالمنطق والجمال الإغريقي، وتتمحور بالأساس حول وقائع وأحداث دارت في فلسطين (أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٢١١).

لقد كان لإدارة الانتداب البريطاني الدور والأثر الكبيران في رعاية ودعم مدرسة علم الآثار التوراتية الأولبرايتية، والتي عملت على تحقيق أهداف المشروع الصهيوني في إقامة إسرائيل الجديدة، وكانت تلك الإدارة هي الراعية والمحتضنة لجيل كامل من الآثاريين الصهاينة، والذين تولوا العمل الأثري مباشرة بعد نكبة فلسطين وقيام إسرائيل عام ١٩٤٨م (كفافي، ٢٠١٩، ص. ٤١). من المهم الإشارة إلى ردود الفعل الفلسطينية على العمل الأثري الغربي وعلى المشروع الصهيوني برمته في ظل الانتداب البريطاني والذي اعتبره الفلسطينيون احتلالاً. لقد تميز الوعي الفلسطيني في تلك الفترة الحساسة بأنه أكثر تطوراً وإدراكاً لمجريات الأمور على الأرض، وقاوم الفلسطينيون المشروع الصهيوني وإجراءات الاحتلال البريطاني، بما فيها أعمال التنقيب والحفر، بكل قوة، ولعل أبرز الحركات الفلسطينية في هذا السياق هو اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦م-١٩٣٩م (شوفاني، ١٩٩٦، ص. ٤٤٧)، حيث حدّثت تلك الثورة من أعمال التنقيب والحفر إلى حدودها الدنيا، وهذا ما أشار إليه سابقاً أولبرايت من أن العمل الأثري استمر بتطور كبير حتى منتصف الثلاثينيات. ورغم تطور وعي الفلسطينيين واحتجاجاتهم وثوراتهم، إلا أن ذلك لم يحل دون تنفيذ المشروع الصهيوني وإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وسلب الفلسطينيين أرضهم، وتشريد جزء كبير منهم.

ثالثا: التنقيبات الأثرية بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨م

أعلن عن قيام إسرائيل في ١٤ أيار ١٩٤٨م وذلك بعد انسحاب قوات الاحتلال البريطاني من كامل فلسطين الانتدابية، حيث قامت إسرائيل على ما اصطُلح بتسميته بأراضي عام ٤٨، وهي فلسطين بحدودها الانتدابية، مستثنى منها كل من الضفة الغربية والتي ضمت للأردن، وقطاع غزة الذي خضع للإدارة المصرية. تمثلت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م بعدة أوجه كارثية، وتعد الإبادة الثقافية من أبرز تلك الأوجه، حيث أن تدمير نحو ٦٠٠ مدينة وبلدة وقرية فلسطينية وما تحمله من تراث ثقافي وإرث حضاري طويل شكل ما يعرف بمصطلح الإبادة الثقافية. ومن المهم الإشارة إلى أن حملة تدمير التراث الثقافي الفلسطينية تلك جاءت بعيد توقف الأعمال الحربية، بحيث نفذت بشكل ممنهج بكل ما يرتبط بتراث الإنسان الفلسطيني على أرضه. وفي هذا السياق، فإن الكثير من المدن والقرى والبلدات والمواقع التاريخية وغيرها جرى مسحها عن الأرض من قبل سلطات الدولة الجديدة الناشئة، ولم تتم إثارة هذه القضية على أي مستوى، وبقيت هذه المجزرة الثقافية دون اتخاذ أية إجراءات لمحاسبة مرتكبيها (طه، ٢٠٢٥، ص٦٧). باشرت الدولة الجديدة أعمالها الحكومية بتأسيس دائرة الآثار الإسرائيلية، بالإضافة إلى إنشاء المعاهد والجمعيات والمؤسسات ذات الاختصاص بعلوم التاريخ والآثار. وكانت مهمة تلك المرجعيات الحكومية وغير الحكومية القيام بالنشاط الأثري والتاريخي ضمن النظام الثقافي الصهيوني الجديد. بالإضافة إلى وضع نظام لعمل البعثات الأجنبية لينسجم مع نظام الثقافة الصهيونية المعتمد، وأخذت تفرض على البعثات الأثرية أسلوب التنقيب الجديد والنتائج المترتبة عليه. وباشرت الدولة الجديدة بعبرنة أسماء المواقع الأثرية الفلسطينية لربطها بالتاريخ الإسرائيلي القديم. أما في الضفة الغربية والتي خضعت للأردن، فاستمر التأثير الإنجليزي فيها ضمن الإدارات الحكومية الأردنية، ومع غياب الكوادر الفلسطينية والأردنية المختصة في العمل الأثري في تلك الفترة (إبراهيم، د.ت، ص. ١٤). شهدت فلسطين الانتدابية بمختلف تقسيماتها الجديدة بعد النكبة عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٦٧م، نشاطاً أثرياً واسعاً، خاصة في أراضي ٤٨، حيث كان العمل الأثري برعاية إسرائيلية حكومية، ويمكن تلخيص بعض النماذج لأبرز بعثات التنقيب وأهمها في تلك الفترة كما يلي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١٠٦-١١١؛ الأشهب، ٢٠١١، ص. ٣٤، ص. ٥٠، ص. ٨١، ص ص. ٩٨-٩٩؛ إبراهيم، ٢٠١٠، ص. ١٤٤، ص. ١٤٩، ص ص. ١٥٤-١٦٥؛ أولبرايت، ١٩٧١، ص. ٤٣):

الرقم	الموقع	البعثة	التاريخ	النتائج	ملاحظات
1	القدس	بعثة ميخائيل آسفي يونا (M. Avi Yonah)	1947-1968م	اكتشاف مخلفات أثرية وعمرانية لمعسكر الفرقة العاشرة الرومانية، وآثار كنيسة بيزنطية	جرى الحفر والتنقيب في عدة مواسم متباعدة، في القسم الغربي لمدينة القدس، والواقع تحت السيطرة الإسرائيلية بعد 1948م
2	خربة الكرك	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1949-1955م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية للمدينة الكنعانية من العصور البرونزية، وتشمل مساكن وجدران	الموقع يقع في أراضي 48 وخاضع للسيطرة الإسرائيلية
3	أريحا	بعثة كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon)	1952-1958م	اكتشاف المخلفات الأثرية والمعمارية للمستوطنة النطوفية الأولى، والتي تعود للعصر الحجري الحديث في الألف التاسعة قبل الميلاد، وشملت أجزاء من سور المدينة، وخندق منحوت في الصخور يحيط بالسور، ومخلفات بيوت سكنية، بالإضافة إلى برج يحتوي على 24 درجة تؤدي إلى منصة. بالإضافة إلى اكتشاف 18 طبقة أثرية تمثل مراحل زمنية من العصر الحجري الحديث وحتى العصور الحالية، وكهوف ومدافن وقبور وهياكل عظمية بشرية تعود لمختلف العصور	خضعت أريحا للسيطرة الأردنية كونها في مناطق الضفة الغربية، وعمل ضمن البعثة عوني الدجاني من الكوادر المحلية
4	تل الشيخ العريني	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1956-1965م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للعصر الحجري النحاسي والعصور البرونزية حتى الحديدي. وتشمل المخلفات بقايا جدران من اللبن الطيني كأجزاء من مساكن وفخار يعود للبرونزي القديم، بالإضافة إلى ساحات حفر وتخزين وكلاهما مرصوفة بالحصى، مع اكتشاف 5 طبقات أثرية سكنية في الموقع	الموقع يقع في أراضي 48 (إسرائيل) وخاضع للسيطرة الإسرائيلية. البعثة بدأت بالمسح الأثري ابتداء من 1956م، والحفر والتنقيب ابتداء من موسم 1961م
5	القدس	بعثة كاثلين كينيون (Kathleen Kenyon)	1961- 1967م	تم اكتشاف العديد من المخلفات الأثرية والعمرانية والتي يمكن تلخيصها بأوان ومواد وأدوات فخارية، ومصاطب حجرية وجدران وأعمدة وقنوات وآبار وكهوف وقبور، وكلها تعود لمختلف العصور، من العصر البرونزي المبكر وحتى العصر الحديدي	تم الحفر والتنقيب في القسم الشرقي للقدس والخاضع للسيطرة الأردنية، وشملت مواقع السفوح الغربية لجبل الزيتون، البلدة القديمة، ومنطقة تل الضهور جنوب المسجد الأقصى بالقرب من سلوان (هضبة اوفل)، وتعتبر هذه البعثة من أهم البعثات التي جرت في القدس
6	تل تعنك	بعثة الكلية الأمريكية للأبحاث الشرقية بإشراف بول وليم لاب (Paul W. Lapp)	1963-1966م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية تعود للمدينة الكنعانية من العصور البرونزية، وتشمل تحصينات دفاعية حجرية وبرج، وأدوات وأواني فخارية، بالإضافة إلى مخلفات مساكن وقصر وقبور تحتوي على هياكل عظمية لأطفال، والعثور على جرة فخارية بداخلها هيكل عظمي لطفل	الموقع يخضع للسيطرة الأردنية كونه يقع في مناطق الضفة الغربية خلال تلك الفترة

جدول ٣: نماذج من بعثات المسح والتنقيب في فلسطين بعد النكبة ١٩٤٨م

رغم نكبة فلسطين وقيام إسرائيل عام ١٩٤٨م، وما رافقها من إجراءات ساهمت في نشر مفاهيم وأدبيات ومناهج علم الآثار التوراتي، في ظل نظام الثقافة الصهيوني الذي تبنته الدولة الناشئة حديثاً، إلا أن خمسينيات القرن الماضي شهدت تطوراً في المناهج والأساليب العلمية لعلم الآثار لبعض المدارس الفكرية الأوروبية في هذا المجال، حيث تبنت مناهج التنقيبات المأخوذة من علم الآثار الأوروبي لما قبل التاريخ، دون الاعتماد على أية مصادر مكتوبة. مثل هذا التطور النوعي في الاعتماد على دراسة الطبقات الأثرية من خلال علوم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، ومكّن ذلك المنهج الجديد علماء الآثار من تحديد تسلسل زمني تراتبي وتراكمي أكثر دقة. وفي هذا الإطار، تم استخدام تقنيات جديدة اعتمدت على الكربون ١٤ المشع في تحديد تاريخ المواد الأثرية والآثار القديمة، والتي شملت كافة المخلفات الأثرية، سواء كانت بشرية أو نباتية أو حيوانية. وتعتبر عالمة الآثار الانجليزية كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) من أوائل من استخدم هذا المنهج ضمن بعثة التنقيب في أريحا ١٩٥٢-١٩٥٨م (طه وكوي، ٢٠١٤، ص. ١٣).

لقد استلهمت كنيون ذلك المنهج من أستاذها غوردون تشايلد (Gordon Childe) رئيس معهد الآثار في جامعة لندن، الذي رفض الأساليب والمناهج التقليدية في التنقيب الأثري، وأكد على ضرورة الاعتماد على المادية التاريخية للتطور الحضاري كأساس للتنقيب الأثري، وتكريس استخدام الأدوات العلمية المثبتة دون غيرها للكشف عن الآثار وتفسير مدلولاتها بناء على وظيفتها وطبيعة المجتمع الذي وجدت فيه. واعتبرت هذه الأفكار في حينها ظاهرة استثنائية برزت في ظل انتشار وسيطرة مناهج وأدوات علم الآثار التوراتي (إبراهيم، د.ت، ص. ١٣).

تعتبر حفريات عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) من أشهر أعمال التنقيب في فلسطين، حيث نقبت في أريحا، خلال المواسم ١٩٥٢-١٩٥٨م، والقدس لمواسم ١٩٦١-١٩٦٧م، (كما هو موضح في الجدول (٣) السابق)، واتسمت نتائج تلك التنقيبات بقدر عال من الموضوعية، والتي جاءت في سياق استخدامها للمنهج العلمي المحايد والمذكور سابقاً، حيث خالفت تلك النتائج ما تطرحه مدرسة علم الآثار التوراتي، وعلى رأسها وليم أولبرايت (William Albright). وفي كتابها «الحفر في أريحا» (Digging up Jericho) والصادر عام ١٩٥٧م، أوضحت كنيون بان الكتاب المقدس العبري يحتوي على العديد من التناقضات في البيانات التاريخية التي يطرحها، فلا يمكن التوفيق بين تلك البيانات والتسلسل الزمني المعتمد في فترات العصور القديمة. وفي هذا الإطار، تؤكد كنيون أن العديد من الأحداث التاريخية التوراتية لا توفر أية أدلة أثرية تدعمها، ومثال ذلك، الغزو الإسرائيلي المفترض لأريحا (Kenyon, 1957, p. 258). عادت كنيون للتأكيد على نتائج حفرياتها في أريحا في كتابها اللاحق «الكتاب المقدس والحفريات الحديثة» (The Bible and recent archaeology) والصادر عام ١٩٧٨م. أما فيما يتعلق بالقدس فتوضح كنيون أنه كما هو الحال في أريحا، فإن المواقع الأثرية لا توفر مصادر قوية أو قاطعة لما تطرحه الرواية التوراتية حول أورشليم السليمانية، وأكدت أنه لم يتم العثور على أية مخلفات أثرية إسرائيلية داخل السور القديم، وأن تلك المنطقة المحددة قد تعرضت لدمار وانهيارات كبيرة على مر العصور، ومن الاستحالة بمكان العثور على أية مخلفات تعود لأورشليم، وأن المخلفات الوحيدة المتوفرة تشير إلى تلك الأبنية والهياكل من فترة الملك هيرودوس الكبير (Kenyon, 1978, p.43, p.50, p.52). لقد كان المنهج الذي اتبعته كنيون في حفرياتها ثورياً في فترة مبكرة، لكن ذلك المنهج تم البناء عليه لأكثر من عشرين عاماً لتخرج مدارس فكرية مجددة تنقض تماماً جميع ما طرحه علم الآثار التوراتي.

رابعاً: التنقيبات الأثرية بعد الاحتلال الإسرائيلي ١٩٦٧م.

احتلت إسرائيل عام ١٩٦٧ باقي أجزاء فلسطين الانتدابية والمتمثلة بالضفة الغربية وقطاع غزة. شرع الاحتلال الإسرائيلي مباشرة بعد الاحتلال بالقيام بسلسلة واسعة من المسوحات للمواقع الأثرية الفلسطينية في كل من الضفة الغربية، بما فيها القدس، وقطاع غزة، وسعى من خلال تلك المسوحات إلى تحديث قاعدة البيانات الخاصّة به حول المواقع والمعالم الأثرية في الأراضي المحتلة الجديدة، والتي أعدها سابقاً الانتداب البريطاني، وإعادة صياغة ومواءمة نتائج المسوحات الأثرية السابقة، وشملت تلك المواءمة القيام بأكبر عملية عبرنة لأسماء المواقع والمعالم الأثرية الفلسطينية وتهويدها، خاصة في الضفة الغربية، و كما اصطلح على تسميتها (يهودا والسامرة)، طبقاً للتاريخ والجغرافيا التوراتية. وعلى إثر حملة المسوحات الأثرية تلك، شرع الاحتلال الإسرائيلي بأكبر حملة تنقيب أثري في الأراضي الفلسطينية المحتلة، حيث قدرت، حسب الإحصائيات الأخيرة، بما يزيد عن ٩٠٠ عملية تنقيب حتى ٢٠١٨م، واحتلت القدس النسبة الأكبر من تلك التنقيبات والتي قدرت بحوالي ١٧٠ حملة تنقيب. ومن الجدير بالذكر قيام سلطات الاحتلال بإصدار أكثر من ١٥٠٠ رخصة تنقيب في تلك الفترة، مع التأكيد على أنّ هذه المعطيات تقديرية بسبب الغموض والسريّة التي اعتمدتها سلطات الاحتلال ضمن نشاطها الأثري في الأراضي المحتلة (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢١-٢٣). بعد قيام إسرائيل باحتلال باقي أجزاء فلسطين التاريخية في عام ١٩٦٧م، فإن سلطات الاحتلال أصبحت تسيطر على ما مجموعه ٣٥,٠٠٠ موقع أثري كبير وصغير، تتوزع ما بين مدن وقرى وتلال وكهوف ومقالع حجارة وأبراج وغيرها، تعود لمختلف الحقب التاريخية، وتلك الإحصائية استندت إلى المسوحات البريطانية في الثلاثينيات. وتضمّ الضفة الغربية ما يقارب ثلث هذه المواقع، والبالغة ١٢,٢١٦ موقعاً، وقد تم تدمير العديد من هذه المواقع الأثرية خاصة بعد احتلال عام ١٩٦٧م (يحيى، ٢٠٠٨، ص. ٢). بينت المسوحات الأثرية والتي أجراها الاحتلال الإسرائيلي بعد عام ١٩٦٧م وحتى عام ٢٠٠٠م، أن عدد المواقع التي تم مسحها والعمل فيها قد بلغ ٣,١٧٠ موقعا ومعلما أثريا، وهي تغطي الأجزاء الشمالية والوسطي وبعض أجزاء الجنوب من الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية (أبو الهيجاء، ٢٠٠٨، ص. ١٤).

لقد قاد العمل الأثري بعد احتلال عام ١٩٦٧م عدة مؤسسات رسمية وغير رسمية تتمثل بشكل أساسي في سلطة الآثار الإسرائيلية (دائرة الآثار الإسرائيلية سابقاً)، ودائرة الآثار التابعة للإدارة المدنية للأراضي المحتلة (ضابط الآثار سابقاً)، بالإضافة إلى الجامعات والمعاهد البحثية الإسرائيلية والأجنبية. ومن الضروري الإشارة إلى أن الكثير من تلك التنقيبات جرت بتمويل من وزارة الأديان الإسرائيلية، وجمعيات استيطانية مثل اليعاد وعطيرت كوهانيم. بالإضافة إلى تمويل إضافي لتلك التنقيبات من قبل العديد من المؤسسات اليهودية والصهيونية داخل إسرائيل وخارجها. ومن هنا، فإنّه من الواضح أنّ تلك التنقيبات الأثرية في الأراضي المحتلة لا تأتي على خلفية علمية بهدف التعرف على التاريخ الحضاري للأرض، وإنما تأتي في إطار خلفية عقائدية دينية وسياسية اتخذت شكلاً قومياً مقدساً تحت شعار البحث عن جذور التاريخ اليهودي في فلسطين (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢٦-٢٧).

حسب الإحصائيات التقديرية السابقة لعمليات التنقيب الأثري للاحتلال الإسرائيلي بعد ١٩٦٧م، فإنّه لا يمكن إبراز أو توضيح عمل تلك البعثات ونتائجها بسبب ضخامة عددها، إلاّ أنّه يمكن الإشارة إلى بعض أهمّ عمليات التنقيب الأثري في القدس ونتائجها، وذلك من باب تقديم نموذج كمثال يوضح تلك العمليات، والتي تأتي كما في الجدول التالي (نجم، ٢٠٠٩، ص ص. ١١٢-١١٤، ص. ١٢٥، ص. ١٣٨؛ نجاجرة، ٢٠١٢، ص. ١٦٦):

الرقم	البعثة	التاريخ	النتائج
1	بعثة الجامعة العبرية وجمعية الاستكشاف الإسرائيلية بإشراف بنجامين مزار(Binjamin Mazar)	1968-1974م	اكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية إسلامية أموية وغيرها، وذلك من خلال تعرية الجدران الحجرية الساندة للمسجد الأقصى، وكشف الساحات المجاورة وإظهار البقايا العمرانية الأثرية، حيث سعت البعثة للوصول إلى الطبقة الأثرية الإسرائيلية المزعومة، ولم تنجح في ذلك، فالمخلفات الأثرية المعمارية تعود للعصور الإسلامية
2	بعثة ناحمان آفيجاد (Nahman Avigad)	1969-1970م	أجريت الحفريات في حارة الشرف (حارة اليهود) في البلدة القديمة واكتشاف مخلفات أثرية ومعمارية (بيوت سكن) من مختلف العصور ومنها ما يعود للقرن الثامن قبل الميلاد، العصر الهلنستي والهيرودي والبيزنطي والإسلامي
3	بعثة دائرة الآثار الإسرائيلية	1973-1974م	جرت الحفريات بشكل مكثف أسفل المسجد الأقصى تحت الحائط الجنوبي للمسجد، والعمل في الأروقة السفلية للمسجد في أربعة مواقع، أسفل المحراب وبطول 20 متراً إلى الداخل، وأسفل جامع عمر ، وأسفل الأبواب الثلاثة للمسجد، وأسفل الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد، وعلى أعماق وصلت إلى أكثر من 13 متراً، مما جعله عرضة للتصدع وخطر الانهيار
4	بعثة آفي عوفر (Avi Ofer)	1982-1987م	إجراء مسوحات أثرية مكثفة لمنطقة جنوب الضفة الغربية (يهودا)، خاصة في منطقة القدس وضواحيها، وتم العثور فيها على سبعة مواقع تؤرخ إلى العصر البرونزي المتأخر واكتشاف 18 موقعاً تعود إلى العصر الحديدي الأول، وأما في العصر الحديدي الثاني فقد تم تسجيل 66 موقعاً أثرياً

جدول ٤: نماذج من بعثات المسح والتنقيب في القدس بعد احتلال ١٩٦٧م

وبالإشارة إلى النشاط الأثري المفرط للاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فإنه من الجدير ذكره أن القانون الدولي الإنساني حرم تنفيذ أية تنقيبات أثرية في الأراضي المحتلة من قبل سلطة الاحتلال، وطالبها بحماية المواقع الأثرية والمحافظة عليها. كما أوجبت أحكام القانون الدولي الإنساني قيام الدولة المحتلة بالحفاظ على أية مكتشفات ولقى أثرية وتسليمها لسلطة الحكم الوطنية بعد إنهاء الاحتلال. تمثلت أحكام القانون الدولي الإنساني المشار إليها في الميثاق الأول لاتفاقية لاهاي لسنة ١٩٥٤م، وقد قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بخرق كل تلك الأحكام وعدم مراعاتها كما تم التوضيح سابقاً (طه، ٢٠٠٩، ص ص. ٢٠-٢١). أمّا فيما يخص سرقة المخلفات اللقى الأثرية، فقد شهدت المتاحف والمواقع الأثرية الفلسطينية والتي كانت قائمة قبل احتلال عام ١٩٦٧م حركة سرقة ونهب واسعة لمختلف المواد الأثرية، فقد تم نقل أغلب تلك المواد إلى المتاحف الإسرائيلية برعاية حكومية، واحتوت تلك المواد الأثرية على أرضيات فسيفسائية، وتماثيل، وتوابيت، وأدوات وأواني، ومخطوطات وغيرها الكثير، وبالإضافة إلى ذلك، شهدت الأراضي الفلسطينية المحتلة نشاط سرقة غير منظم للعديد من المخلفات واللقى الأثرية قام به جنود وضباط الاحتلال الإسرائيلي، وخاصة مجموعة وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان، وبيعها لتجار الآثار الإسرائيليين والأجانب (طه، ٢٠٠٩، ص. ٤٠).

إن التوسع في التنقيبات الأثرية وكثافتها في الأراضي الفلسطينية المحتلة، خاصة في الضفة الغربية، حفّز الكثير من العلماء والباحثين لإجراء تقييم ومراجعات لنتائج التنقيبات السابقة للمواقع الأثرية الفلسطينية، وظهرت تلك المراجعات بشكل جليّ في أواسط السبعينيات، حيث بدأت تظهر في الأفق آراء تطالب باعتماد منهج علمي يعتمد على الأدلة ضمن المصادر التاريخية المتوفرة. إن ذلك التغيير قاد أولئك الباحثين إلى رفض التفسيرات التي تستند إلى الافتراضات التقليدية الأصولية، والتي جاءت في سياق توراتي غير علمي معتمدة على مناهج مدرسة علم الآثار التوراتي (تومبسون ويلم، ٢٠١٩، ص ص. ٣٥-٣٦).

إنّ استراتيجيات العمل والتّنقيب الأثري العلمي قد تطور بدرجة كبيرة، وخاصة في فترة الثمانينيات من القرن الماضي، وتمثل ذلك في الانتقال إلى استخدام أساليب وتقنيات المسح الشامل، بدلاً من الاعتماد على الكشف والتنقيب في مواقع فردية، وهو ما أدّى إلى تبنّي استراتيجيات جديدة، وذلك بالخروج من انحسار البحث والمسح والتنقيب في نطاق التلال الحضرية، وخاصة من خلال علم الآثار التوراتي، وإجراء البحث والمسح والتنقيب الأثري في المناطق الريفية أيضاً، وهذا الأمر أتاح للباحثين والمؤرخين إمكانية الوصول إلى بيانات ومعلومات أكثر دقة وموضوعية حول فترات الاستيطان المختلفة من التاريخ الفلسطيني. إنّ هذا التطور في التنقيب الأثري يتناقض مع ما ورد من مسلمات مفترضة أفرزها الخطاب التوراتي حول ادعاءات وجود إسرائيل القديمة، وذلك أنّ تلك المسلمات السياسية واللاهوتية أدّت إلى شيوع استراتيجيات تنقيب غير علمية، وعزّزت من توجهات الوصول إلى نتائج تدعم فرضية وجود إسرائيل، الأمر الذي أدّى إلى وضع نصوص مجتزأة وغير موضوعية لنتائج البحث والتنقيب أمام الباحثين، والتي لم يتمكنوا من خلالها من الاستدلال على أيّة حقائق علمية ثابتة (وايتلام، ١٩٩٩، ص ص. ٢٥٠-٢٥٥). إن ذلك التغيير في المناهج والاستراتيجيات والأساليب قاد في النهاية إلى نشوء حركة نقد واسعة لنتائج العمل الأثري في فلسطين، وتمثلت تلك الحركة في نشوء مدرسة الحد الأدنى (المقللين) وما تلاها من مدارس فكرية مجددة.

خامساً: العمل الأثري مع نشأة السلطة الفلسطينية ١٩٩٤م

أُنشأت السلطة الوطنية الفلسطينية على إثر توقيع اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل عام ١٩٩٣م. وفي عام ١٩٩٤م تأسست دائرة الآثار الفلسطينية، والتي تغير اسمها إلى دائرة الآثار والتراث الثقافي في عام ٢٠٠٢م. عملت دائرة الآثار الفلسطينية بالقانون الأردني لسنة ١٩٦٦م حتى عام ٢٠١٨م، حيث تم إقرار القانون الفلسطيني للآثار والتراث المادي، وحل محل القانون الأردني. ووفقاً لاتفاق أوسلو، فقد تولت دائرة الآثار الفلسطينية الإشراف على إدارة المواقع والعمل الأثري في المناطق المصنفة (أ) و (ب)، أمّا مناطق (ج)، وهي تشكل أكثر من ٦٠٪ من الأراضي الفلسطينية المحتلة، والمتمثلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، استمرت الإدارة المدنية للاحتلال الإسرائيلي في إدارة المواقع الأثرية فيها، وعلى الرغم من أن اتفاق أوسلو نص على تسليم إدارة الآثار والإشراف عليها في مناطق (ج) بشكل تدريجي بالتوازي مع التقدم في ترتيبات الوضع النهائي لتلك المناطق للسلطة الفلسطينية، إلّا أنّ ذلك لم يحصل، وعلى العكس، فإنّ سلطات الاحتلال الإسرائيلي فتحت الباب على مصراعيه للمسح والتنقيب الأثري لدائرة الآثار الإسرائيلية وغيرها من المؤسسات ذات الصلة (عبد ربه، ٢٠٢٤، ص ص. ٣-٤).

تركز عمل دائرة الآثار الفلسطينية في مرحلتها التأسيسية منذ عام ١٩٩٤م وحتى عام ١٩٩٦م على أعمال الهيكلة والتنظيم الإداري الداخلي. وبعد عام ١٩٩٦م باشرت بأعمالها الميدانية الأثرية وتطوير البرنامج العلمي للبحث الأثري الفلسطيني، وشرعت في بناء شبكة علاقات إقليمية ودولية بهذا الخصوص (طه، ٢٠٠٠، ص. ١١٩).

لقد شابت عملية نقل الصلاحيات من سلطات الاحتلال الإسرائيلي إلى السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٥م العديد من الإشكاليات، خاصة فيما يتعلق بالآثار والمواقع الأثرية، والتي تمثلت في قيام سلطات الاحتلال الإسرائيلي بالاستيلاء على بعض المواد من المواقع الأثرية في المدن المزمع تسليمها، كما حصل في مدينة أريحا، ونقلها إلى إسرائيل، وشكلت تلك الإشكاليات هاجساً لدى المختصين والمسؤولين الفلسطينيين، خصوصاً وأن حجة الاحتلال الإسرائيلي هي أن الفلسطينيين غير مؤهلين لحماية تلك المواد والمواقع الأثرية (يحيى، ٢٠٠٨، ص. ١٤٣).

ابتداءً من عام ١٩٩٤م قامت عدة مؤسسات فلسطينية رسمية وأهلية بعمل مسوحات أثرية أولية لمختلف المواقع والمعالم الأثرية والتاريخية في المحافظات الفلسطينية، ويمكن تلخيص هذه المسوحات كما يلي (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص ص. ١٤-١٥):

الرقم	المؤسسة	التاريخ	النتائج
1	مركز المعمار الشعبي الفلسطيني (رواق)	1994م – 2004م	القيام بمسح واسع تضمن تسجيل المباني التاريخية في فلسطين، حيث وفر هذا السجل معلومات معمارية موسوعية وصفية حول 50320 مبنى تاريخي وموقع أثري يعود تاريخها إلى ما قبل العام 1945م، وضم السجل 400 خريطة محوسبة بنظام (GIS)، ويتضمن كذلك أرشيفاً لأكثر من 45,000 صورة للمواقع والمباني التاريخية
2	دائرة الآثار الفلسطينية، ووزارة التخطيط والتعاون الدولي	1999م	مسح لبعض المواقع الأثرية المختارة في مشروع معالم التراث الثقافي والحضاري المهددة في محافظات الضفة الغربية المحتلة، شمل المسح العناصر المختلفة للمعالم المختارة من حيث البيئات الثقافية والحضارية المحيطة بها، وتقييم واقع تلك المعالم الأثرية وحالتها، وضم المسح 50 موقعاً تعود لمختلف العصور التاريخية، مع التركيز في اختيار تلك المواقع على إبراز المعالم الهامة والمهددة بالاندثار
3	المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والأعمار (بكدار)	2002م	عمل مسح للمواقع الأثرية والمباني التاريخية، ووضع قاعدة بيانات منظمة حول الممتلكات الثقافية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وشملت قاعدة بيانات معلومات عامة عن الموقع أو المبنى من حيث تسميته وملكيته وجغرافيته ووصف البيئة المحيطة به، واحتوت أيضا على بند لوصف حالة الموقع والوصف المعماري للمبنى من الخارج والداخل، وتم تسجيل كل بناء قد تم تشييده قبل عام 1950م مع التقاط صورة له. وقد شمل المسح تجمعات من المحافظات بلغ عددها 158 تجمعا في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ولم يشمل المسح مناطق (ج) وأنتج مشروع بكدار قاعدة بيانات تشمل المعلومات الأثرية حول 2742 موقعا أثرياً

جدول ٥: المسوحات الأثرية الأولية الفلسطينية بعد عام ١٩٩٤م

لقد نفذت دائرة الآثار الفلسطينية والعديد من المؤسسات والجامعات الفلسطينية والأجنبية عمليات تنقيب وتأهيل لمواقع أثرية مختارة خاصة في مناطق (أ) و (ب). ولإعطاء لمحة حول العمل الأثري في فلسطين بعد قيام السلطة الفلسطينية فإنّه يمكن تلخيص بعض نماذج أهم وأبرز بعثات العمل الأثري ونتائجها كما يلي (طه، ٢٠٠٠، ص ص. ١٢٠-١٢٢؛ Taha & Gort, 2007, p. 53-85؛ الأشهب، ٢٠٠٢، ص. ١٠٠، طه وكوي، ٢٠١٤، ص ص. ٩-١٤):

الرقم	المؤسسة	الموقع	التاريخ	النتائج
1	دائرة الآثار الفلسطينية، وجامعة سابينزا الايطالية – روما (Sapienza University)	أريحا (موقع تل السلطان الأثري – أريحا القديمة، شمال غرب مدينة أريحا الحالية)	1997 – 2002م	اكتشاف مبنى ضخم من الطوب اللبن وأواني فخارية وأثاث وممتلكات شخصية من مقابر تعود إلى العصر البرونزي الأوسط. وتضمن العمل تأهيل للموقع الأثري، وتطوير البنية التحتية الأساسية له
2	دائرة الآثار الفلسطينية	خربة حيان، قبر بيزنطي في بني نعيم، خربة محمد الخضر، ساحة المهد في بيت لحم، قبر بيزنطي في قرية رمون، قبر روماني بيزنطي في قرية عطارة، المقبرة الرومانية في خربة سلمية، كهف قباطية، قبور رومانية في سبسطية، كنيسة جباليا، مواقع أثرية في النصيرات	1998-1999م	أعمال تنقيب وتأهيل إنقاذية لبعض المرافق والمواقع الأثرية، والتي ظهرت أو تأثرت أثناء تنفيذ مشاريع التطوير في مشاريع بنية تحتية
3	دائرة الآثار الفلسطينية، وجامعة لايدن الهولندية (Leiden University)	خربة ونفق بلعمة (المدخل الجنوبي لمدينة جنين)	1998-2000م	كشفت التنقيبات الأثرية في النفق المائي وخربة بلعمة أن الجزء المكتشف من النفق يبلغ طوله 105 متراً يتكون من ثلاثة أجزاء، وهي الجزء المقبب، والجزء المدرج الصاعد، وممرّ ضيق مبني من الحجارة. واكتشاف خزان كبير وأحواض لتجميع المياه مقطوعة في الصخر تشكل نظاماً مائيا متكاملاً يعود للعصور البرونزية، وتم تطويره في العصور اللاحقة. والكشف عن العديد من المخلفات واللقى الأثرية تعود للفترات البرونزية والحديدية والفارسية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية والصليبية. والكشف عن كتابة فينيقية على كسرة فخارية من القرن السابع ق.م ونقش حجري لمحارب وفرس
4	دائرة الآثار والتراث الثقافي الفلسطينية (دائرة الآثار الفلسطينية سابقاً)، وجامعة لايدن الهولندية (Leiden University)	تل بلاطة (شرق مدينة نابلس)	2010- 2014م	تأهيل الموقع الأثري، وإنشاء حديقة أثرية نموذجية تضم عدة مرافق. واعتبر المشروع نموذجياً من حيث اعتماد مناهج حديثة لإدارة التراث الثقافي

جدول ٦: نماذج لبعثات التنقيب والتأهيل الأثري بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية

لم يقتصر العمل الأثري في فلسطين على المؤسسة الرسمية بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، حيث شارك في هذا الجهد، وحتى خلال الفترة التي سبقت قيام السلطة، العديد من المؤسسات الأهلية، والجامعات، والبلديات ومؤسسات ولجان خاصة. ولإعطاء لمحة حول أهم المشاريع والجهات التي عملت في هذا المجال، يمكن تلخيصها فيما يلي (قمحية، ٢٠٠٣، ص ص. ٣-٦؛ المصري، ٢٠١٠، ص ص. ٩٤-١٠٠):

الرقم	المشروع	الجهة	الوصف	الشركاء
1	تأهيل وترميم الممتلكات الإسلامية في البلدة القديمة بمدينة القدس	دائرة الأوقاف الإسلامية	صيانة وتأهيل العديد من الممتلكات والمرافق الإسلامية في البلدة القديمة كالمدارس والمقامات والمساجد وغيرها، وأبرز تلك الأنشطة ترميم قبة الصخرة المشرفة	لجنة إعمار المسجد الأقصى، مؤسسة التعاون الدولي
2	إعمار البلدة القديمة في مدينة الخليل	لجنة إعمار الخليل	تشكلت اللجنة في العام 1996م، وضمت أعضاء يمثلون القطاعات الرسمية والأهلية والوجهاء، وكانت مهمتها الأساسية إعادة إعمار وتأهيل مختلف ممتلكات ومرافق البلدة القديمة في المدينة، بما فيها البيوت ذات الملكية الخاصة وإحيائها من جديد، لحمايتها من اعتداءات المستوطنين. وما زالت اللجنة مستمرة في مهامها حتى الوقت الحاضر	
3	مشروع بيت لحم 2000	لجنة مكونة من بلدية بيت لحم، وزارة الثقافة، مؤسسة التعاون الدولي، مركز المعمار الشعبي (رواق)	تنفيذ عدة مشاريع بنية تحتية وسياحية وثقافية في البلدة القديمة لمدينة بيت لحم، وترميم العديد من الأبنية التاريخية والأزقة والحارات خاصة مرافق كنيسة وساحة المهد	
4	تأهيل وترميم أبنية ومرافق البلدة القديمة في مدينة نابلس	بلدية نابلس	بدأت إعمال الترميم منذ العام 1994م، شملت ترميم القناطر والأحواش والساحات في البلدة القديمة، وتبليط طرقاتها، وإصلاح المساكن القديمة فيها، وترميم المبنى التاريخي "خان الوكالة" الموجود بها	الإتحاد الأوروبي، ومنظمة اليونسكو

جدول ٧: نماذج من مشاريع العمل الأثري لبعض المؤسسات والهيئات غير الرسمية في فلسطين

تركزت بعض تلك المشاريع في مناطق (أ) و (ب) باستثناء مدينة القدس والتي جرت فيها أعمال التأهيل والترميم تحت رعاية المملكة الأردنية الهاشمية. إلا أن العمل الأثري الفلسطيني في مناطق الضفة الغربية ذات التصنيف (ج) كان أكثر صعوبة بسبب إجراءات الاحتلال الإسرائيلي، وقامت المجالس القروية ببعض الأدوار التكميلية في محاولة لرعاية وحماية المواقع الأثرية في قراها ومناطقها، وتلخصت أهم أعمالها في التعريف والترويج لتلك المواقع الأثرية على المستوى المحلي والاقليمي، والتحذير من التهديدات التي يشكلها الاحتلال الإسرائيلي على تلك المواقع، والقيام بأعمال الترميم الأولية لبعض الأماكن والمواقع الأثرية والتاريخية بالشراكة مع مؤسسات أخرى، ومن ضمنها البيوت والساحات القديمة، وصيانة الطرق المؤدية الى تلك الأماكن والمواقع لإحيائها من خلال إقامة الفعاليات والمهرجانات والاحتفالات فيها، وتنظيم جولات سياحية إليها. ويتسم العمل الأثري في تلك المناطق الريفية بالضعف بشكل عام، نظراً لضعف التمويل والتنسيق الخاص بعمل المجالس القروية، إضافة الى صعوبات ومعيقات الاحتلال الإسرائيلي في تلك المناطق (شكور، ٢٠٢٣، ص ص. ٥٤-٥٦).

استمر الاحتلال الإسرائيلي في تنفيذ إجراءاته التعسفية في الأراضي الفلسطينية المحتلة على الرغم من توقيع اتفاق أوسلو، إلا أن تلك الإجراءات أخذت منحى متطرفاً بعد اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م، حيث شهدت الأراضي الفلسطينية المحتلة تكثيفاً لحملات التهويد والاستيطان في مختلف المناطق الفلسطينية، وتعتبر إقامة الجدار العازل في الضفة الغربية المحتلة عام ٢٠٠٢م من أشد إجراءات الاحتلال تعسفاً وعنصرية، حيث وصفه الفلسطينيون بجدار الضم والتوسع، وشبهوه بجدار الابرتهايد في جنوب إفريقيا، وبجدار برلين في ألمانيا. سعى الاحتلال الإسرائيلي من خلال إقامة الجدار العازل إلى خلق واقع سياسي وجغرافي جديد في الضفة الغربية المحتلة، الأمر الذي انعكس سلباً وبشكل كبير على حياة الفلسطينيين في مختلف مجالات الحياة بما فيها الآثار وغيرها (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص ص. ٧١-٧٣). لقد أثّر الجدار العازل بشكل مباشر على واقع المواقع الأثرية الفلسطينية والعمل الأثري برمته، حيث نتج عن إقامته فصل وعزل العديد من المواقع الأثرية عن بيئتها الحضارية الطبيعية، كما أنّ العديد من المواقع الأثرية قد جرى تدميرها بسبب أعمال البناء مما حال دون تسجيلها أو توثيقها أو التنقيب فيها، وهو ما أدى إلى تغييب مكانتها في التراث الحضاري الفلسطيني والإنساني (أبو الهيجا، ٢٠٠٨، ص. ١٤٠).

في العام ٢٠٠٥م، وعلى إثر قيام إسرائيل باتخاذ قرارها الأحادي بالانسحاب من قطاع غزة، بعد نهاية انتفاضة الأقصى، وتسليم كامل صلاحيات الحكم المدني للسلطة الفلسطينية، وكعادة الاحتلال، وكما حصل سابقاً، فقد رافقت عملية الانسحاب العديد من الإشكاليات تمثلت في تخطيط الاحتلال لنقل العديد من المواد الأثرية إلى إسرائيل، خاصة فسيفساء يوحنا المعمدان التي تعود إلى كنيسة بيزنطية من القرن السادس الميلادي. قاوم الفلسطينيون بشدة تلك الخطط، ولم يتم نقل اللوحة الفسيفسائية في النهاية. حاول الفلسطينيون مراراً وتكراراً على مختلف المستويات الرسمية وغير الرسمية، دون جدوى، العمل على استعادة المخلفات واللقى الأثرية الفلسطينية من المتاحف الإسرائيلية، خاصة متحف روكفلر في القدس، والذي كان يسمى زمن الانتداب البريطاني بالمتحف الفلسطيني. وأصبحت المهمة الأساسية في حماية والحفاظ على المواقع الأثرية الفلسطينية مهمة صعبة للفلسطينيين أمام استمرار إجراءات الاحتلال وعدوانه المستمر خاصة على قطاع غزة في السنوات الأخيرة (يحيى، ٢٠٠٨، ص ص. ١٤٤-١٤٥).

لقد عانت الأراضي الفلسطينية المحتلة، خاصة الضفة الغربية، جملة من إجراءات الاحتلال المتطرفة فيما يتعلق بالآثار ومواقع التراث الثقافي الفلسطيني، وهي تنتهك بها أبسط أحكام القانون الدولي فيما يتعلق بأية أراض محتلة وموروثها الثقافي. لقد اعتمد الاحتلال الإسرائيلي استراتيجيات وخططاً تهدف بشكل أساسي إلى الاستيلاء على أراضي الضفة الغربية بكل ما عليها، وبكل ما في باطنها، تمهيداً لضمها لدولة الاحتلال، ومن أهم تلك الاستراتيجيات التي تغطي إجراءات الاحتلال على الأرض الأوامر العسكرية المتكررة والتي تعتبر غطاء قانونياً لتلك الإجراءات، فهذه الأوامر العسكرية تصدر ضمن سياسة ممنهجة للاحتلال يقف خلفها مجتمع المستوطنين والمنظمات الاستيطانية الصهيونية المتطرفة، بحجة حماية الآثار اليهودية والتراث الثقافي اليهودي في يهودا والسامرة. وتغطي هذه الأوامر قانونياً سرقة الآثار الفلسطينية، وضم المواقع الأثرية وتدمير بعضها الآخر، وغيرها من الإجراءات. ومن ضمن هذه الاستراتيجيات تزوير وتحويل الآثار والتراث الثقافي الفلسطيني إلى آثار وتراث ثقافي يهودي، وذلك من خلال العبرنة والتهويد للأسماء والسرد التاريخي الوهمي، ومثال ذلك تحويل المقامات الإسلامية في الضفة الغربية إلى مقامات لشخصيات وأنبياء بني إسرائيل، وغيرها من الإجراءات (عبد ربه، ٢٠٢٤، ص ص. ٤-١١).

وفي أعقاب ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، شهد قطاع غزة المحتل أبشع عدوان من قبل الاحتلال الإسرائيلي والذي وصف من قبل المنظمات الدولية والإقليمية بأنه حرب إبادة جماعية يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي بحق فلسطين وشعبها في قطاع غزة. لم تقتصر هذه الإبادة على الإنسان الفلسطيني، بل امتدت لتشمل آثاره وتراثه الثقافي والحضاري. لقد اتبع الاحتلال الإسرائيلي سياسة ممنهجة في عدوانه الأخير على قطاع غزة، حيث اعتمدت على الاستهداف المباشر بالقصف بهدف التدمير للعديد من مواقع التراث الثقافي الفلسطيني، والتي شملت المواقع الأثرية، والمراكز والأماكن التاريخية، والمساجد والكنائس والمقامات الدينية، والمتاحف والمكتبات، ومراكز المخطوطات وغيرها. إن ذلك التدمير الممنهج استهدف أكثر من خمسة آلاف عام من التراث الحضاري الإنساني في غزة، وحوله إلى أطلال ودمار. وفي هذا السياق يمكن ذكر بعض المواقع والأماكن المهمة التي جرى تدميرها، كموقع تل السكن جنوبي مدينة غزة، والذي يعود إلى العصر البرونزي المبكر، وموقع تل العجول الذي يمثل تاريخ غزة في العصر البرونزي الوسيط والمتأخر، وموقع البلاخية (أنثيدون) والذي يعود إلى الفترتين اليونانية والرومانية، وموقع كنيسة جباليا البيزنطية بلوحاتها الفسيفسائية الجميلة وزخارفها، ومقبرة جباليا القديمة التي تعود إلى الفترة الرومانية والبيزنطية، والجامع العمري في حي الدرج، وهو أكبر مساجد غزة، ويعود للفترة الأيوبية، ومجموعة كبيرة من المقامات الدينية في تل المنطار والشيخ عجلين، ومقام الخضر في مدينة رفح، وقصر الباشا في حي الدرج بمدينة غزة، والذي يعود إلى الفترة المملوكية، والمدرسة الكاملية في حي الزيتون بمدينة غزة والتي تعود إلى الفترة الأيوبية، ودار الطرزي والتي تعود إلى الفترة العثمانية، وحمام السمرة وسبيل الرفاعية في مدينة غزة واللذين يعودان إلى الفترة العثمانية، ومتحف قصر الباشا والذي ضم آلاف القطع الأثرية التي دفنت تحت الأنقاض، ومتحف دير البلح. وجرى اقتحام مخازن الآثار التابعة لدائرة الآثار في غزة، وتضم عشرات آلاف القطع الأثرية من التماثيل والأواني الفخارية والزجاجية والمعدنية والعملات. إن ما ذكر سابقاً هو أمثلة لنتائج سياسة الاحتلال في تدمير التراث الحضاري في غزة، وحتى ساعة كتابة هذه المادة، وبعد مرور أكثر من عام على العدوان، فإنّه لا يمكن حصر أو تقييم آثار الدمار الواسع على مواقع ومراكز الآثار والتراث الفلسطيني، إلّا أنّ التقديرات الأوّلية تشير إلى التدمير الكلي أو الجزئي لأغلب تلك المواقع (طه، ٢٠٢٤، ص ص. ٥-٢٥).

أما في الضفة الغربية المحتلة، فبعد ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، اتسمت إجراءات الاحتلال، والمشار إليها سابقاً، بأنها أصبحت أكثر تغولاً وتطرفاً، ففضلاً عن العدوان المستمر من قبل جيش الاحتلال والمستوطنين، تمثلت أقسى تلك الإجراءات في تشريع قانون في يوليو-تموز ٢٠٢٤م بتوسيع صلاحيات سلطة الآثار الإسرائيلية، بحيث تشمل كافة أراضي الضفة الغربية المحتلة، وتهدف سلطات الاحتلال من خلال هذا القانون ضم مواقع الآثار والتراث الثقافي الفلسطيني في الضفة الغربية المحتلة (هيئة مقاومة الجدار والاستيطان، ٢٠٢٤، ص. ٢١).

وفي النهاية يمكن تقييم العمل الأثري في عهد السلطة الوطنية الفلسطينية من خلال الإضاءة على الكثير من الجوانب الإيجابية من إنجازات وتطورات في مجال العمل الأثري في فلسطين، إلا أن إجراءات الاحتلال الإسرائيلي كانت من أكبر المعيقات أمام ذلك العمل، فالسلطة الوطنية الفلسطينية لم تسيطر على الأرض وعلى المعابر الحدودية، كما أنها لا تملك الأجهزة التنفيذية التي تشرف على إنفاذ القانون وبرامج العمل الرسمية والأهلية فيما يخص العمل الأثري في فلسطين، بالإضافة إلى أن سقف صلاحياتها هو اتفاق أوسلو والذي لم يلتزم الاحتلال الإسرائيلي بالكثير من بنوده. ورغم إجراءات الاحتلال، فقد تمكنت السلطة الوطنية الفلسطينية من تحقيق بعض المكاسب على الساحة الدولية، وذلك بفضح إجراءات وانتهاكات الاحتلال الإسرائيلي بحق معالم التراث الثقافي الفلسطيني، ونجحت في بعض الأحيان في حماية تلك المعالم والمواقع من خلال تسجيل وتوثيق بعض منها في لائحة التراث العالمي لليونسكو، مثل إدراج قرية بتير الفلسطينية جنوب غرب مدينة بيت لحم في يونيو حزيران ٢٠١٤م في لائحة التراث العالمي المهدد، وإدراج موقع تل السلطان في أريحا القديمة في قائمة التراث العالمي لليونسكو في سبتمبر-أيلول ٢٠٢٣م، وإدراج بيت لحم وكنيسة المهد وإدراج الخليل القديمة وتقديم ملف قصر هشام، إلا أن تلك النجاحات لم تغير من الواقع الأليم الذي تعيشه الأراضي الفلسطينية المحتلة خاصة بعد عدوان الاحتلال في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، الذي تمت الإشارة إليه سابقاً.

الخاتمة

يمكن الاستنتاج وبكلّ وضوح بعد عرض ودراسة المعطيات السابقة، أن التنقيبات الأثرية الأجنبية في فلسطين منذ القرن التاسع عشر، والتي روجت الادعاءات الدينية لوجود تاريخ توراتي مزعوم في فلسطين، لم تستند في أساسها للمعايير العلمية، وبالتالي لم يتم إثبات تلك الادعاءات بشكل قاطع من خلال النتائج المستعرضة سابقاً. وفي المقابل، فإن نتائج العمل الأثري المعتمد على معايير علمية قد أكدت على بطلان تلك الادعاءات، ووثقت لتاريخ حضاري زاخر في فلسطين من خلال الطبقات والمخلفات واللقى الأثرية، والتي تغطي فترة طويلة من العصور الحجرية المختلفة وحتى العصور الإسلامية الحديثة.

إن اعتماد مناهج غير علمية في العمل الأثري أدى إلى توجيه نتائج تلك التنقيبات مسبقاً باتجاه أهداف دينية وسياسية، وظهر ذلك جلياً من بداية الانتداب البريطاني وحتى ثمانينيات القرن الماضي، حيث حدث التغيير الجذري في مناهج واستراتيجيات العمل الأثري، والتي أدت إلى نسف النتائج السابقة التي عمل الباحثون التوراتيون على تثبيتها وترويجها سابقاً.

إن النتائج الموضوعية الحديثة للعمل الأثري في فلسطين يتوجب تعزيزها واستثمارها في إطار علمي أكثر شمولية باتجاه خلق جهد وطني منظم لكتابة تاريخ فلسطين القديم. إن هذا العمل يتطلب من الجهات الفلسطينية ذات العلاقة القيام بسلسلة من الإجراءات التنفيذية المحددة مدعومة بتشريعات وقوانين مناسبة لتثبيت مخرجات ذلك المشروع الوطني، والتأكيد على أهمية إشراك كافة فئات وقطاعات المجتمع الفلسطيني في ذلك المشروع، وبالأخص الباحثين الفلسطينيين الشباب وطلبة التاريخ والآثار في الجامعات الفلسطينية، وذلك من أجل خلق جيل جديد من المؤرخين وعلماء الآثار الفلسطينيين المهيأين والمؤهلين ليكونوا نواة مدرسة علم الآثار الفلسطينية. وفي نفس السياق، فإن تلك الجهات الفلسطينية مطالبة بتقييم ومراجعة كل الأدبيات والمراجع المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم، خاصة الفلسطينية منها، والتي لا تستند إلى معايير علمية واضحة، ووضع خطة محددة للتعامل معها.

إن تعثر التسوية السياسية للقضية الفلسطينية في الوقت الراهن تلزم السلطة الفلسطينية والدوائر ذات الصلة بتصميم برامج عمل أثري بنمط جديد يتماشى مع واقع وجود الاحتلال الإسرائيلي، وأهمية إشراك كافة فئات وقطاعات المجتمع الفلسطيني في تلك البرامج، مع تجنيد الدعم الدولي لتوفير شبكة حماية وأمان لذلك العمل، ولمواقع التراث الثقافي في فلسطين.

الهوامش

ملاحظة منهجية: المقصود بالترتيب الكرونولوجي في الجداول هو ترتيب بعثات التنقيب وفق تاريخ تنفيذ كل بعثة (Chronology of Excavations)، وليس الترتيب الزمني للمكتشفات الأثرية أو العصور التاريخية التي تعود إليها (Cultural or Period Chronology)، ويأتي هذا الترتيب بهدف إبراز تطور الاهتمام الأثري بفلسطين وتدرجه تاريخيًا منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف الالفية الثانية.

المراجع

المراجع العربية

- إبراهيم، معاوية. (٢٠١٠). *دراسات في آثار فلسطين*. عمان: دار البركة للنشر والتوزيع.
- إبراهيم، معاوية. (د. ت). *فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد*. (د. ط). المجلد الرابع، الموسوعة الفلسطينية.
- أبو الهيجا، إكرام. (٢٠٠٨). *عوامل تهديد المواقع الأثرية في الضفة الغربية، الجدار العازل دراسة تحليلية*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين.
- الأشهب، رشدي. (٢٠٠٢). *المعالم الأثرية في فلسطين*. القدس: بكدار.
- تومبسون، توماس، ويلم، انغريد. (٢٠١٩). *الماضي العصي: دراسات في تاريخ فلسطين، محاضرات البيت الدنماركي في فلسطين*. ترجمة رانية فلفل المبيض وجمانة كيالي عباس، (الطبعة الأولى). رام الله: البيت الدنماركي.
- الحاج بورشارد. (١٩٩٥). *وصف الأرض المقدّسة*. (الطبعة الأولى). عمان: دار الشّروق.
- ساند، شلومو. (٢٠١٣). *اختراع أرض إسرائيل*. ترجمة أنطوان شلحت وأسعد الزعبي. (الطبعة الأولى). رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.
- شقور، ساري. (٢٠٠٣). دور الهيئات المحلية في تنمية وحماية المواقع الأثرية (دراسة حالة: محافظة سلفيت)، *مجلة جامعة فلسطين التقنية للأبحاث*، ١١(٣)، ٤٧-٥٩.
- الشلبي، سهيلا، والعدوان، شادية. (٢٠١١). المسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لأبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، *المجلة الأردنية للتاريخ والآثار*، ٥(٤).
- شوفاني، الياس. (١٩٩٦). *الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩*. (الطبعة الأولى). بيروت: مؤسسة الدارسات الفلسطينية.
- طه، حمدان. (٢٠٠٠). *تقرير حول النشاط الأثري لدائرة الآثار الفلسطيني ١٩٩٨-١٩٩٩*. دمشق: المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي.
- طه، حمدان. (٢٠٠٩). إدارة الآثار تحت الاحتلال في فلسطين، *مجلة تحولات مشرقية*، ع ٩.
- طه، حمدان. (٢٠٢٤). *تدمير التراث الثقافي في غزة*. ورقة سياسات. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- طه، حمدان. (٢٠٢٥). الحفاظ على التراث الثقافي في سياق استعماري. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ١٤٢، ٦٣-٧٤، رام الله.
- طه، حمدان، وكوي، خيرت. (٢٠١٤). *حديقة تل بلاطة الأثرية*. رام الله: وزارة السياحة والآثار الفلسطينية.
- عبد ربه، عمر. (٢٠٢٤). *الآثار والتراث الثقافي والطبيعي أداة للاستحواذ والاستيطان وضم الأراضي في الضفة الغربية*. ورقة سياسات. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- قمحية، خالد. (٢٠٠٣). *حماية التراث المعماري الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي*. غزة: المؤتمر الدولي للهندسة وتطوير المدن، ٢٢-٢٣ أيلول ٢٠٠٣.
- كفافي، زيدان (٢٠١٩). فلسطين خلال العصر الحديدي الأول (نحو ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م): دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية والبيانات الأثري. *مجلة ادرماتو*، (٣٩)، ٧ – ٢٨، السعودية.
- المصري، مجد. (٢٠١٠). *تقييم اساليب وتقنيات الترميم في فلسطين نابلس حالة دراسية*. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- نجاجرة، غسان. (٢٠١٢). *أنماط السكن في المرتفعات الجبلية الفلسطينية في العصر الحديدي الأول، ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م*. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.
- نجم، رائف يوسف. (٢٠٠٩). *الحفريات الأثرية في القدس*. (الطبعة الأولى) عمان: دار الفرقان.
- هيئة مقاومة الجدار والاستيطان. (٢٠٢٤). *أبرز اعتداءات جيش الاحتلال والمستعمرين في الأراضي الفلسطينية المحتلة خلال شهر تموز ٢٠٢٤*، التقرير الشهري، رام الله، فلسطين.
- وايتلام، كيث. (١٩٩٩). *اختلاق إسرائيل القديمة*. ترجمة: سحر الهنيدي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- يحيى، عادل. (٢٠٠٨). آثار فلسطين بين النهب والإنقاذ: كيف يستبيح جدار الفصل والتنقيب غير المشروع وتجارة الآثار التراث الفلسطيني. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ١٩(٧٦)، رام الله.

المراجع الإنجليزية

- Kenyon, K. (978). *The Bible and recent archaeology*. London: British Museum Publications Ltd.
- Kenyon, K. (1957). *Digging up Jericho*. Fredrick A. Praeger Inc.
- Taha, H., and Kooij, G. (2007). *The Water Tunnel System at Khirbet Bal'ama, Khirbet Bal'ama Archeological Project*. Report of the 1996-2000 Excavations and Surveys, Ramallah: Ministry of Tourism and Antiquities.

شموس، بثينة، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 66-58، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/swfwfh56

البنية السردية في القصة الترسلية؛ «العروس» و«البطل في الزنزانة» نموذجاً

بثينة شموس

الملخص

شكلت القصة الترسلية نوعاً سردياً راج مدة من الزمن، وكان غسان كنفاني من الأدباء الذين يمكن إيجاد العديد من القصص الترسلية في مجموعاته القصصية، ومنها قصتا: «العروس» و«البطل في الزنزانة». أستُخدِم المنهج التحليلي الوصفي لتتبع البنية السردية في القصة الترسلية في القصتين المذكورتين، بهدف معرفة إمكانية القصة الترسلية على إيضاح العناصر القصصية، وكان مما وصل إليه البحث أن الفضاء لاقى اهتماماً في سرده في القصتين المذكورتين، لما يؤديه من دور في فهم فكرة القصة في «العروس» وفهم الشخصية في «البطل في الزنزانة»، وأن السرد الزمني لم يكن بارزاً في القصة الأخيرة، إلا أن ذلك لم يشكل نقصاً فيها، وغيرها من النتائج التي سترد في نهاية البحث.

الكلمات المفتاحية: القصة الترسلية، البنية السردية، غسان كنفاني، العروس، البطل في الزنزانة.

Narrative Structure in the Epistolary Story: «The Bride» and «The Hero in the Cell» as a Model

Buthaina Shemous

ABSTRACT

The epistolary story has been a popular narrative genre for some time. Ghassan Kanafani was one of the authors whose short story collections included some stories of this genre, including “The Bride” and “The Hero in the Cell”. The descriptive-analytical approach was used to trace the narrative structure in the epistolary story in these two works, aiming to explore the potential of the epistolary story format to elucidate key elements of the narrative. The research found that spatial setting played a significant role in both stories, contributing to the understanding of the central theme in “The Bride” and the character development in “The Hero in the Cell”. Furthermore, while chronological sequence was not prominent in the latter story, its absence did not detract from its overall effectiveness. Additional findings are discussed later in the paper.

Keywords: Epistolary story; narrative structure; Ghassan Kanafani; The Bride; The Hero in the Cell.

الدكتورة بثينة شموس، قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة طرطوس- سورية. للمراسلة: ButhainaShemous@tartous-univ.edu.sy, b.shemous@gmail.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس،(www.alquds.edu).

Dr. Buthaina Shemous, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tartous University, Syria. For correspondence: ButhainaShemous@tartous-univ.edu.sy.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

تعدّ قصتا «العروس»، و«البطل في الزنزانة» من القصص التي لم تلقَ حظوة بدراستها من قبل النقاد والباحثين، وهما قصتان لغسان كنفاني، تظهران أسلوبه المميز الذي ينال إعجاب القاصي والداني، وعلى وجه التحديد في «العروس»، وما يميز القصتين أن كلتيهما كانت في قالب رسالة، لذا رأينا من المفيد أن ندرس البنية السردية لعناصرهما، لنرى مدى قدرة الرسالة على تحديد أطر القصة بشكل لا تؤدي محدوديتها إلى انتقاص في إيصال الفكرة أو في طرح شخصياتها وزمانها ومكانها، بما يلزم لجعلها واضحة ومفهومة، وهو ما عملنا عليه في البحث الراهن.

خلفية الدراسة

لا شك في أن كاتباً مثل غسان كنفاني خضع للكثير من الدراسات التي تناولت أدبه، كأن تُدرس عناصر القصة أو عناصر الرواية لديه، وتجنباً للإطالة دون نفع لن نذكرها هنا، إذ لم نجد أية دراسة تناولت القصة الترسلية لديه، ولم نجد أية دراسة ركزت على عناصر القصتين المدروستين، مما يسِمُ هذه الدراسة بالجدّة والحداثة.

أسئلة الدراسة

كان الهدف من هذه الدراسة أن تجد إجابات عن الأسئلة الآتية:

١- كيف بنى غسان كنفاني سرده في الفضاء والزمان والشخصيات في قصتي «العروس»، و«البطل في الزنزانة» مع الأخذ بالحسبان أنهما قصتان ترسليتان؟

٢- إلى أي حد استطاع السرد للفضاء والزمان والشخصيات أن يوضح فكرة القصة من دون أن يخلّ بقالب الرسالة؟

المنهجية

قامت الدراسة الراهنة باتباع المنهج الوصفي التحليلي الذي يهتم بوصف الظاهرة الأدبية وتحليلها في تقصي البنية السردية في القصة الترسلية في قصتين لغسان كنفاني، هما: «العروس»، و«البطل في الزنزانة»، وذلك بغية فهم قدرة الرسالة على تضمين قصة واضحة المعالم، من خلال دراسة سردية الفضاء والزمان والشخصيات، وصولاً إلى معرفة مدى مناسبتها للقصة، واتساعها أو ضيقها في قالب الرسالة، وقد قام البحث على مقدمة تضمنت المنهجية وأسئلة الدراسة، ودراسة نظرية تناولت تعريف القصة الترسلية، وعناصر القصة، وشكلت أساساً للدراسة التطبيقية التي تضمنت تحليل البنية السردية لعناصر القصة في العروس أولاً، بدءاً بالفضاء ثم الزمان وانتهاءً بالشخصيات، وهو ما كررناه في «البطل في الزنزانة»، وانتهت الدراسة بعرض النتائج التي والتوصيات التي وصلت إليها في الخاتمة.

أولاً: الدراسة النظرية

١- القصة الترسلية

الرسالة لغة هي كل ما يرسل، أو هي الكلمة شفوية أو مكتوبة (عتيق، ١٩٧٢، ص.٢٢١)، وتتضمن عادةً شؤوناً خاصة أو عامة تسمح لكاتبها بأن يكون على سجيته بلا تكلف أو تصنع (عبد النور، ١٩٨٤، ص.١٢٢)، فالميزة الأساسية في التراسل هي الطبعية التي تنطلق منها جميع الميزات الأخرى من صدق العاطفة وبساطة الشكل، ويرافق كتابتها السعي لاختيار الألفاظ المفصحة بدقة عن المعاني، والعبارات المبينة عن الخواطر (عبد النور، ١٩٨٤، ص. ٦٤)، وأنواعها: الرسائل الإخوانية، والرسائل الديوانية (التونجي، ١٩٩٩، ص ص. ٤٧٨- ٤٧٩)، والمراسلات القصصية هي الرواية التي توضع في شكل مراسلات متبادلة بين شخصياتها، أو تكتبها شخصية واحدة من الشخصيات، وتقوم كل رسالة مقام فصل من الفصول (وهبة والمهندس، ١٩٨٤، ص. ٣٥٠)، فإن كان كاتبها قد عرض نفسه على أنه كاتب فإن المراسلة توضح آثاره، أما إذا كان شخصية فتكون الرسالة بديلاً عن الآثار (روجو، ١٩٨٥، ص.٢٢٧)، وقد انتشرت عادة نشر الرسائل في القرن السادس عشر (روجو، ص.٢٢٣)، وزعم بعض الباحثين -في نطاق الأدب العربي- بأن الكتابة بدأت بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وهو قول لا يمكن التسليم بصوابه (عتيق، ١٩٧٢، ص ص. ٢٢- ٢٢١)، فقد عرف فيما سبق ذلك، وتوبع في العصر الحديث في الروايات الترسلية، ورأى بعض النقاد أن العناية بفن الترسل أدت إلى استحداث أغراض وأساليب وموضوعات لم يسبق لهذا الفن أن عرض لها، فتقاطع مع سائر أجناس الكلام الأخرى، مما خلق أشكالاً مختلفة من التداخل والتفاعل (زنور وقدور، ٢٠١٩، ص.٣٤٢).

٢- العناصر البنائية للقصة

الفضاء

يتضمن الفضاء الروائي المشاعر والتصورات المكانية التي تستطيع اللغة التعبير عنها، فيرتبط بزمن القصة، ويقيم علاقة وثيقة مع باقي المكونات الحكائية في النص، وتأتي في مقدمتها علاقته بالحدث الروائي والشخصيات التخيلية (بحراوي: ١٩٩٠، ص ص. ٢٧- ٢٩؛ لحمداني، ١٩٩١، ص ص. ٦٣- ٦٥)، فهو يرتبط بواقع الإنسان الاجتماعي والأحكام الثقافية والأخلاقية (بوعزة، ٢٠١٠، ص.١٠٢)، مما يجعله من محددات الحدث والشخصية، إذ يتطور وتزداد أهميته إذا حدث تحول في مفهومه وعلاقة الشخصية أو القارئ به (زيتوني، ٢٠٠١، ص. ١٠١)، وقيمته مرتبطة بما يمنحه له الإنسان من مشاعر وقيم من خلال ما يحلم به، وما يتذكره وما ينسجه من علاقات به، إيجابية كانت كالألفة والحنين أو سلبية كالعداء والنفور والنسيان (بوعزة، ٢٠١٠، ص ص. ١٠٤-١٠٥)، لذا برع المبدعون العرب في رسمه منذ عهد المعلقات في زمن الجاهلية (مرتاض، ٢٠٠٨، ص. ١٣٠)، واستمر هذا الاهتمام بتطور السرد، فلاقى الفضاء اهتماماً بالغاً في الرواية والقصة.

الزمن

يعدّ الزمن عنصراً لا بد منه في القصة، إذ يقتضي حدوث الأحداث بواسطة الشخصيات وتعيينها في زمان ومكان، وقد ربطه النقاد بالإدراك النفسي (عزام، ٢٠٠٥، ص. ٦٦)، وعرّف تودوروف مقولة الزمن بأنها ما يعبر فيها عن العلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب (جينيت، ١٩٩٧، ص.٤٠) شاملاً بذلك ما يحدث في القصص من استرجاع واستباق، وقد عُرِّفا بأنهما مخالفة لسير السرد تقوم في الاسترجاع على عودة الراوي

إلى حدث سابق، وفي الاستباق على تجاوز حاضر الحكاية وذكر حدث لم يحن وقته بعد (زيتوني، ٢٠٠٢، ص ص. ١٥- ١٨)، وهما ما يُحدِث عادةً المفارقات الزمنية التي تؤدي إلى اختلاف ترتيب أحداث القصة (بوعزة، ٢٠١٠، ص. ٨٨؛ لحمداني: ١٩٩١، ص ص. ٧٤- ٧٥)، ومن تلك المفارقات -أيضاً- القلب الزماني -أو طريقة الارتداد- التي يبتدئ فيها الزمن من نهايته (مرتاض، ١٩٩٨، ص ص. ١٨٧- ١٨٨).

الشخصيات

تعرّف الشخصية بأنها أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو الرواية (وهبة والمهندس، ١٩٨٤، ص. ٢٠٨)، وقد قسمها تودوروف إلى ما يرتكز على الحبكة أو ما يرتكز على ذاتها، وهذا ما يُعرف بالشخصية السيكولوجية التي تعمل العناصر جميعاً على بلورة ملامحها النفسية (حافظ، ١٩٨٢: ٢٩)، وقد عرف النقاد الشخوص على أنها كائنات مصطنعة تشكل مقياساً لبراعة الكاتب بمدى نجاحه في رسم كل شخصية وتمييزها بسمات خاصة، بما يستوجب منه الالتفات إلى تكوينها الجسمي والاجتماعي والنفسي (محمد، ٢٠١١، ص ص. ٢٩٦- ٢٩٧)، فاصلين بذلك- بينها وبين الأشخاص في جعل الشخوص كائنات مصطنعة والأشخاص كائنات حقيقة، وقد قُسمت الشخوص أو الشخصيات القصصية إلى أقسام عديدة، منها ما يقوم على اعتبارات معينة، كخاصية الثبات أو التغيير التي تقسمها إلى الشخصيات الساكنة والنامية، أو خاصية الدور التي تقسمها إلى رئيسة وثانوية أو ذات وظيفة مرحلية، كما تقسم إلى معقدة أو متعددة الأبعاد ومسطحة، كما تقسم إلى عميقة وسطحية (بحراوي: ١٩٩٠، ص. ٢١٥؛ محمد، ٢٠١١، ص ص. ٢٩٦-٢٩٧)، ولطرح الشخصيات في العمل الأدبي طريقتان؛ طريقة مباشرة تعتمد على تدخل الكاتب مباشرة، وطريقة غير مباشرة تقوم على إتاحة المجال للشخصية لتفرض نفسها بأقوالها وأفعالها (عزام، ٢٠٠٥، ص ص. ١٧-١٨؛ بوعزة، ٢٠١٠، ص ص. ٤٠- ٤١).

ثانياً: الدراسة التطبيقية

١- قصة العروس

جاءت هذه القصة في مجموعة «عالم ليس لنا»، وقد جاءت في قالب رسالة كتبها الراوي لصديقه، جاءت تعقيباً على رسالة أرسلها المرسِل نفسه في اليوم ذاته لإضافة تفصيل على الرسالة الأولى بتلميح مباشر للرسالة الأولى في الرسالة التي شكّلت القصة، وفيها يطلب من المرسل إليه أن يساعده في البحث عن رجل يبحث بدوره عن العروس، إذ استوقفه غير مرة وسأله إن كان قد رأى العروس، وقد رسخت ملامح الرجل -الذي لاح له كأنه مجنون- في ذهنه لأنه شعر وكأن هناك هالةً من نور تحيط بجسمه، وبرّر طلبه من المرسل إليه للبحث عن المجنون في أنه وجد أخباراً جديدة عن العروس، ثم بدأ بسرد قصة العروس والرجل وبلدته، إذ كان قد حصل على بندقية مميزة أعارها لضابط فرّ بها وباعها، فطوى المسافات والسنوات بحثاً عنها لاستعادتها فيما كانت بلاده تتساقط ورجال بلدته يموتون واحداً بعد الآخر، إلى أن عرف في النهاية أن البندقية في حوزة شيخ اشتراها من الضابط بمهر ابنته التي زوّجها لشيخ نتن مقابل أن يحصل على البندقية، فصار الرجل الذي فقدَ عقله يسأل كل من يراهم عن العروس التي بيعت مقابل البندقية.

الفضاء في «العروس»

إن أول ما يلاحظ على فضاء هذه القصة الترسلية أنه يوجد تحديد دقيق للأماكن والقرى والأفضية من دون وصف لها، فمن تحديد المناطق والقرى قوله: «أنت لا تعرف ما الذي حدث هناك في <شَعَب> [...] لقد مضى صعوداً في قيظ لا مثيل له إلى البِروة ومن هناك إلى مجد الكُرُوم إلى البِعْنَة إلى دَير الأسد إلى كِسرا إلى كَفْر سُميع متعقباً أخبار بندقيته خطوة خطوة» (كنفاني، ٢٠١٤، ص.١٨٢)، وهو ما نلاحظه على امتداد القصة، وقد كانت المبالغة في الاهتمام بذكر القرى محاولة للتأكيد على الامتداد الجغرافي الذي قطعه بحثاً عن بندقيته الضائعة، بما يبين ارتباطه النفسي الشديد بها، كما أن بعض الإشارات إلى الفضاء في القصة أدت دوراً في تعزيز السرد، فمحاولة تهميش الفضاء كانت متناسبةً مع ضياع الرجل الذي يبحث عنه: «ابحث معي حيث أنت عن رجل طويل جداً» (كنفاني، ص.١٧٣)، من دون أن يحدد أين هو المتلقي –المرسَل إليه، وكأنه بذلك جعل الغموض المكاني كاشفاً لغموض الشخصية التي أراد مشاركته في البحث عنها، كما جعل البعد المكاني بينه وبين المرسَل إليه الذي يطلب منه المشاركة في البحث نظيراً للبعد المكاني الذي يفصله عن ضالّة ضائعة لا يملك من خيوط العثور عليها إلا خيطاً واهياً: «أعرف أنك تبعد عن هنا أكثر من ألف ميل» (كنفاني، ص.١٧٦)، فجعل هذا البعد ترجمةً لشعوره بأنه لن يلقى الرجل الذي يبحث عنه، أو -على الأقل- لا يملك مؤشرات تدل على أنه سيجده.

في السياق ذاته؛ كان للفضاء دور في التماهي مع ذوات الشخصيات بإخفائها عند الضرورة، فنلاحظ اختفاء أبطال <شَعَب> في التضاريس عقب كل هزيمة، كقول الراوي: «ففي اليوم التالي اكتسح العدو <شَعَب> مرة أخرى وفرّ الرجال الذين فقدوا خمسة من مقاتليهم إلى التلال المجاورة، حيث يستطيع ابن البلد أن يضيع قطيع ماعز» (كنفاني، ص. ١٨٣)؛ إن قدرة تلك التلال على الإخفاء لا تقتصر على الغرباء وحسب، بل تعدت ذلك إلى أبناء البلد، والكناية التي استخدمها أظهرت أنه ابن جبال خبير بالحيوانات والتضاريس، فلم يقل –مثلاً- قطيع خراف، فالخراف تميل عادة إلى المروج، أما الماعز فلها قدرة فائقة على تسلق المناطق الوعرة، وتصويره لضياع الماعز فيها دليل لا شك فيه على وعورتها وقسوتها، وهذه التضاريس هي ذاتها ما كان يختفي فيها الأبطال ولا يضلّون طريقهم. إن لجوءهم إليها مع وعورتها انعكاس علني لوقع الهزيمة، وقدرتهم على الخوض فيها دليل آخر على أنه لا يمكن أن يتخلوا عن أرض يعرفون كل شبر فيها.

ونرى الصورة ذاتها تتكرر في قوله: «لقد فوجئ المقاتلون المنهكون بهجوم ثقيل ماحق، وفقدوا وهم يتراجعون سبعة رجال وحملوا معهم أربعة جرحى واختفوا في التلال» (كنفاني، ص. ١٨٤).

الزمن في «العروس»

تمتاز هذه القصة زمنياً بابتدائها من حيث انتهت، ففيها قلب زمني، إذ يبدأ الراوي بطلب البحث عن المجنون والعروس بعد أن تكون قصتهما قد انتهت بالمجمل، لكن أكثر ما يقع محطّ الاهتمام في السرد الزمني ما يؤديه من دور في تشخيص شخصيات القصة وتكثيف أحداثها حيناً، وشرحها حيناً آخر، وهو ما سنفصل فيه.

أول ما يطالعنا به عنوان القصة أنه يدل على شخصية اقترنت بلحظة فرح، غير أن السرد لا ينضبط بالفرح الذي أوحى به العنوان، بل يحيل إلى حزن دفين امتد على مدى سنوات عديدة، فالإشارات الزمنية الناشئة من العنوان تتقاطع مع نظيراتها التي توجد في السرد بعلاقة ضدية.
يطل علينا زمن القصة بتكثيف شديد، إذ عمل على طي سنوات من البحث الدؤوب عن البندقية في إطار رسالة، ولكننا نلاحظ تحديداً زمنياً لبعض الأحداث، لعل أهمها تحديد بداية القصة: «لا بد أن قصته بدأت في يوم ما من أيام حزيران الأولى عام ١٩٤٨» (كنفاني، ص. ١٧٨).

إن بدء القصة كان ببدء كارثة حلّت بالوطن، وهو ما أعطى قصته معنى، والأمر الذي جعله يعتقد باتحاد البدايتين القيمة العظيمة والأهمية الخاصة التي أولاها البطل لبندقيته، فلو لم ترتبط بفترة زمنية كانت فيها البندقية لا تقل أهمية عن الإنسان نفسه لما جنح اعتقاده إلى فرضها بدأت في تلك الفترة. إن الكاتب يعترف بقدرة الزمن على طيّ القصة بإيجاز شديد ببعض الإشارات إليه، وهو ما نلمحه في تأطير يوم البطل بحدثين جعلا عمره بالكامل يُطوى بملاحقتهما: «وقد تساقط فوقه حدثان في يوم واحد: في الصباح قيل له إن الضابط قد نقل مركز قيادته إلى الشمال حيث لا يعرف أحد، وفي المساء تلقت <شَعَب> الضربة الأولى، وحرثت قنابل المورتر بيوتها الطينية، وأحرقت أغراس الزيتون في لحظة كانخطاف البصر» (كنفاني، ص. ١٨١). إن تساقط الأحداث تصريح لا يقبل الشك بقساوتها وصلابتها وصعوبة سقوطها بمسار شاقولي، وتأطيرها ليومٍ بصباحه ومسائه إشعار آخر بسحقها للزمن برمته وتغييبه في ملاحقة ما يلتقطه من إشارات عن مكان البندقية ليستطيع بها أن يستعيد <شَعَب>، ولكن ما يلفت الانتباه -هنا- الترتيب الزمني لوقوعها، فأولاً ضاعت البندقية، وثانياً ضاعت <شَعَب> التي تمثل البلاد بأكملها، كما اقترن الثاني بحدوث الأول، وكأن الكاتب يربط بينهما جاعلاً الثانية نتيجة للأولى، ومع استمرار تنقله من قرية إلى أخرى ومن بلدة إلى أخرى لاستعادة البندقية احتُلّت <شَعَب> وحررت مرات عديدة، وقد أرجع الكاتب تتابع الهزائم بشكل غير مباشر إلى غياب البطل والبندقية، ففيما هو يبحث عن بندقيته كانت البلاد تسقط شيئاً فشيئاً: «قلت لك إن الأحداث لا تنتظر» (كنفاني، ص.١٨٣). وقد تكرر تلميح الكاتب بالربط بين الأمرين في قوله: «ولكن أخبار <شَعَب> سبقته إلى ترشيحا حيث لم يستطع أن يعرف أخبار البندقية. لقد فوجئ المقاتلون المنهكون بهجوم ثقيل ماحق، وفقدوا وهم يتراجعون سبعة رجال وحملوا معهم أربعة جرحى واختفوا في التلال» (كنفاني، ص. ١٨٤).

إن هذا الربط بين ضياع البلاد وانشغال أبنائها -ممثَّلين بالبطل- بالبحث عن البندقية يسلط الضوء على عمق الكارثة التي عاشها الفلسطينيون، ففيما كانت أعمارهم تطوى بحثاً عن سلاح كان العدو يطوي البلاد تحت سيطرته. إن عمق الفاجعة هنا ترسيم للزمن الذي هُدر في البحث عن الوسيلة متسبباً بضياع الغاية، وهو أمر جلل، وما يزيد من قتامته أن البندقية ذاتها صارت هدفاً، فحين وصل البطل إليها وعجز عن استردادها لم يبحث عن وسيلة بديلة، بل تخلى عن هدفه بإحلال هدف عَرَضي (إيجاد البندقية) مكان الأصل (استعادة البلدة) تكلل في نهاية الأمر بفقدان عقله وبلاده، والمدة الزمنية الطويلة التي استغرقها الأمر -أي ١٠ سنوات- تطالعنا بعمق الانحدار الذي استمر طيلة هذه الأعوام العشرة، يقابلها في الطرف الآخر مسير وهمي زائف يمثله امتداد لقب العروس على امتداد عشرة أعوام معانداً بذلك منطق الزمن المتجدد، فكان عجز صاحبها عن استيعاب الحركة الافتراضية للزمن السبب في إنهاء زمنه بانتهاء زمنها، لكن ما سُلِب من عقله على امتداد تلك السنوات كان له دور في رسم مصير شخصية المجنون وبيان الأثر الذي طرأ عليها من تغيرات بتحويلها إلى بطل، فتحولها هذا أكسبها إياه الزمن الذي ضحّت به بحثاً عن البندقية وحزناً على ضياعها: «في طول ما تبقى من الجليل مضى ليل نهار يبحث عن بندقيته، من قرية إلى أخرى ومن مقاتل إلى آخر، ينقب وجوه الناس والأشياء متعقباً أخبار البندقية التي لم يشهدها إلا ساعات» (كنفاني، ص. ١٨٢)؛ فمضي الزمن عقيم على الشخصية حتى وجدت البندقية، لكن تلك اللحظة شكلت مخاضاً لأمل مجهض.

من جانب آخر فإن المدة الفارقة بين ما هدره من عمره في البحث عنها (بضع سنوات)، والمدة القليلة التي شهدها بها (بضع ساعات) تبين مدى أهمية الزمن المقترن بوجودها، وتبين أنها قيمة جوهرية ومعادلة للزمن، لا قيمةً إضافية، فهي رمز للسلاح الذي أعطى للمقاومة المسلحة قيمتها إيماناً بنتيجة لا تتحقق لو خلت تلك المقاومة من ذلك السلاح، وهو الأمر ذاته الذي جعلها تحلّ محلّ الهدف كما ذكرنا، وقد تآزر السرد في إحلال العرَضي (البندقية) محل الأصل (الأرض) في جعل البحث عن العرَضي (المجنون) يحلّ محلّ البحث عن الأصل (العروس) مرة أخرى في القصة، جاعلاً الالتفاف المزدوج حول الهدف يُفقِد المسير الزمني الوجهة -كأنهم ركن في الزمن- في الوصول إلى الهدف.
كما أن تكرار الأوصاف كلازمة في البداية والنهاية مع إضافة جملة: «ابحث معي عنه حيث أنت، فلدي أخبار جديدة عن العروس» (كنفاني، ص. ١٨٨)، أي ابتداء القصة وانتهاؤها بالعبارات ذاتها يشير إلى أن القصة نوعاً ما تأخذ شكلاً دائرياً في عجلة الزمن، فالتقت بدايتها ونهايتها في زمن متعاقب، في إشارة إلى أن الدورة ستتكرر والقصة ستعاد طالما أن هناك فلسطينياً من دون سلاح.

الشخصيات في «العروس»

يصرف الكاتب انتباهنا عن داخل المجتمع إلى المقاومة بما تحيل به كلمة «عروس»، فأثناء بحثنا عن حقيقة البطل نفاجأ بأن الإشارة الرمزية إلى «العروس» تعود إلى اسم ذات يقابل فكرة، وقد اكتسبت ما نالته من اهتمام بما نسبه إليها الآخر من وصف: «العروس»، لا بما كانت تفرضه شخصية البطل وتدجّنه ليحلّق في أفق المتلقي، فالإطار الدلالي للعروس من صنع الشيخ لا من صنع البطل، إلا أن البطل أجرى عليه عدولاً في مراوغة جعلتنا كمتلقين نفترض منذ البداية أن جنونه ناتج عن قصة حب ذات أبعاد اجتماعية لنفاجَأ بأنها قصة مقاومة، والعنوان يساعد بدوره في توريط السرد في الانحراف عن المعنى الحقيقي قبل الخوض في الأحداث، لكن سرعان ما تتملص القصة من عبئها الذي حُمّلت به عنوة، وتعود إلى هويتها الحقيقية.

إن قلة الشخصيات سمة أساسية للقصة القصيرة، ناهيك عن كونها قصة ترسلية، فمجال الرسالة لا يسمح بأن تتضمن عدداً كبيراً من الشخصيات أو أن تعمل على تشخيصها بدقة، لكن قصتنا هنا جعلت بطلها شخصاً لا يمتّ إلى الراوي بصِلة إلا بكونه رمزاً يطلبه، لكن المراوغة تعود مرة أخرى لترويض ذهن القارئ بالاعتقاد بأن شخصية العروس الرمزية هي محطّ الاهتمام، لنفاجَأ مرة أخرى بأن الوسيلة التي قادت إلى معرفة العروس -الرجل المجنون- نالت من الاهتمام ما لم تنله العروس والراوي معاً.

تطالعنا شخصية بطل القصة منذ بداية الرسالة بوضعنا وجهاً لوجه أمام ضالّتين: الأولى هي الشخصية ذاتها -المجنون- الذي يبحث عنه الراوي، والثانية هي العروس التي يبحث عنها المجنون، وقد ذكرنا أن في القصة مناورة تطالعنا في بدايتها جارفة الفكر إلى الاعتقاد بأننا على مشارف قصة اجتماعية، غير أن الوصف الذي قدمه للبطل -بقليل من التعمق- يفضح أن القصة التي ستطل علينا ثورية تتعلق بالدفاع والصمود؛ إذ يقول: «لست أذكر متى رأيته أول مرة، ولكنني أذكر تماماً كيف رأيته، مثل إنسان ضيع شيئاً، كان يسير محنياً بعض الشيء بكفين مفتوحين متحفزين، وعينين تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثان عتيقان. لقد بدا لأول وهلة وكأنه مجنون، حين مر بي نسيته، ولم أذكره إلا حين رأيته مرة ثانية؛ اقتلعتني عيناه فجأة» (كنفاني، ص ص. ١٧٤- ١٧٥). إن الحقل الدلالي الذي فرضته الألفاظ (تنقبان -محراثان عتيقان- اقتلعتني) يرجح كون قصته تنبع من الأرض وتعود إليها، وقد قامت الرسالة بتشخيص البطل ظاهرياً بشكل مفصّل، لكن أبرز سماته كانت شيئاً في تصرفاته يجعله يبدو مجنوناً: «ابحث معي حيث أنت عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة ويلوح لأول وهلة كأنه مجنون» (كنفاني، ص.١٧٣)، وتكرر في قوله: «تيقنت لحظتذاك أنه مجنون، وأن ما انتابني أمام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي إنسان يجد نفسه هدفاً لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول» (كنفاني، ص. ١٧٥)، وبمتابعة قصة الرجل نفهم أنه منفصل بالكامل عن الواقع لضياع بندقيته وضياع بلده، وهو ما أورثه الجنون، أما الميزة الأخرى التي يتفرد بها فهي وجود هالة من النور حوله: «إنني على يقين أنك ستكتشفه بنفسك، فهو شيء آخر مختلف، متميز.. كيف؟ لا أستطيع أن أقول لك، فأنا نفسي لا أعرف، ولكن يخيل إليّ الآن أنني حين شهدته لأول مرة كان محاطاً بما يشبه الضوء، نعم، كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء، وأعترف لك أنني لم أتأكد من ذلك تماماً حين استوقفني لحظة واحدة في الطريق، إلا أنني أكاد أكون متيقناً الآن أن ذلك الرذاذ المضيء الذي كان يحوط جسده الضخم هو الذي رسخ صورته في ذهني، وإلا كيف تفسر أنني ما زلت أذكره وما زال يلح عليّ من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الإنسان في الطريق كل يوم، ثم يذوبون من رأسه وينعدمون» (كنفاني، ص ص. ١٧٣- ١٧٤)؛ ومنه أيضاً: «حين ابتلعه الزحام يا رياض شعرت بأن جسده الضخم كان محاطاً بذلك الشيء الذي يشبه الغبار المضيء كما رسمه فنانو عصر النهضة حول جسد الإله وهو يقدم عونه للفقراء على بطاقات الأعياد التي كنا نتلقاها» (كنفاني، ص. ١٧٦). إن الهالة من الضوء التي تحيط به يسببها الأمر ذاته الذي تسبّب له بالجنون: ضياع العروس، أو بالأحرى الاستمرار طيلة السنوات الماضية بالبحث عن العروس، وهذه الصفة ذاتها تجعلنا على مشارف اليقين بأن هذا الرجل لا يمثل شخصه، بل يمثل فكرة ما، وقد سمت هذه الفكرة في ذهن الراوي حتى أحسها تضيء فعلاً.

ولعل من أهم ما وُصف به ظاهرياً عيناه: «اقتلعتني عيناه فجأة وأحسست نفسي أطوف فوق موجة تستعصي على الرؤية، ولست أدري ما إذا كنت أنا الذي ذهبت إليه مسوقاً بذلك النداء العميق المنبعث من عينيه كتيار لا يقاوم [...] وطبعاً تيقنت لحظتذاك أنه مجنون، وأن ما انتابني أمام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي إنسان يجد نفسه هدفاً لعيني رجل مخلوع عن العالم» (كنفاني، ص. ١٧٥)، ولكن أهم ما يثير الانتباه أنه لم يذكر أي وصف خارجي للبطل طيلة الفترة التي كان -البطل- لا يعرف فيها مصير البندقية، أما عندما عرف الأخير أن صاحبها اشتراها بمهر ابنته، وعرف أن عروساً بيعت مقابلاً لها صار يصفه وصفاً ظاهرياً، وهو ما رأيناه في بداية القصة بكثرة عندما سأل الراوي رياضاً -المرسَل إليه- عن العروس بعد أن كانت قصة الرجل قد انتهت فعلياً إذ كان قد عرف صاحب البندقية حتى أطلق عليها وصف «العروس»، وعاد إليه في نقطة لاحقة من القصة (سابقة زمنياً إذ عاد بالسرد الاسترجاعي ليبين رحلة بحثه عن العروس)، وقال عنه حين التقى بصاحب البندقية: «وحين استدار هذا الأخير [صاحب البندقية] مذهولاً وشهد أمامه ذلك الرجل الطويل الصلب ذا النظرات القاسية والوجه المنهك...» (كنفاني، ص. ١٨٥)، ولكن أثناء القصة حين عاد الراوي زمنياً في السرد إلى الوراء وبدأ مذ ضاعت البندقية دون أن يعرف الآخَرُ مصيرها لم يذكر شيئاً من تفاصيله وشكله، وكأن الراوي بذلك لمّح بشكل غير علني عن ضياع ملامحه وشخصيته وهويته بالكامل طيلة الفترة التي كان جاهلاً فيها لمصير البندقية، أما حين عرف مصيرها فعاد إليه شيء من ذاته، إلا أنها ذات سامية بالضوء الذي منحها إياه إصراره على إيجاد العروس، ومنقوصة بالجنون، فهو منفصل عن زمانه، إذ لا يخرج من تلك الساعات القليلة التي كانت البندقية فيها معه، ومنفصل عن واقعه ومجتمعه، إذ لا يهدأ في مكان ولا يستكين، فعجزُ البطل عن إقامة روابط مع الواقع دفعت به إلى أمرين؛ الأول: الانفصال التام عن ذلك الواقع الذي أطلق عليه صفة «المجنون» كدليل على حدة ذلك الانفصال، والثاني: الغرقُ في الرمز والحلم (العروس- البندقية)، ورفعُ مكانته بجعله لا يستحق هدر عشر سنوات من العمر وحسب، بل العمر بأكمله.

مما لا شك فيه أن العروس رمز لسلاح المقاومة كما توضح القصة، لكن ما قد يُشكّ فيه أن الرجل ذاته رمز، ولعل ما يدعم ذلك -عدا عن هالة النور- محاولات متكررة لإبقائه ضمن دائرة المجهول حتى بعد أن عُرفت قصته: «كان هو -وأنا ما زلت أجهل اسمه- سيد الذين يندفعون إلى القتال» (كنفاني، ص. ١٧٨)، فقد بقي دون اسم يميزه على امتداد القصة، في محاولة لإطلاقه وعدم تقييده باسم يحدّه، كما أبقى منتهاه إلى المجهول، فالتلاشي النفسي أدى إلى تلاشي المكان: «وبهدوء استدار كشيء محطم ومضى. كانت تلك آخر مرة شوهد بها في تَرشِيحَا، وليس يدري أحد إلى أين ذهب» (كنفاني، ص. ١٨٧)، وظل مصير بلدته -التي خاض مجازفة إحضار البندقية وعاش تيهاً استمر سنوات للبحث عنها من أجل الدفاع عن تلك البلدة- في عداد المجهول أيضاً، والأهم من هذا كله أنه لا يدري مصير المقاتلين الذين كانوا أربعين قبل أن تغربلهم المعارك: «كذلك فأنا لا أعرف كيف انتهت قصة <شَعَب>، وكيف انتهت أخبار أولئك الرجال الأربعين الذين ذابوا بالتدريج كما تذوب النار قطعة الدهن» (كنفاني، ص. ١٨٧)، ومنه: «أهو الرجل الوحيد الذي تبقى من مقاتلي <شَعَب>؟ ربما لست أدري» (كنفاني، ص. ١٨٧).
إن تغييب الرجل في المجهول بتفاصيل مستقبله كلها محاولة لجعله نموذجاً، وهو أمر مقبول إذا ما نظرنا إلى المعادلة التي تجمع بينه وبين العروس، فالرجل رمز للمقاومة، والعروس رمز للسلاح، والجمع بينهما «المقاومة المسلحة» هو فقط ما يمكن أن يعيد البلاد إلى أصحابها، ويوصلهم إلى الهدف المنشود.

إن التأكيد على تحديد القرية التي توجد فيها البندقية بشكل دقيق وانطلاق البطل في اتجاه آخر بحثاً عنها بالتقابل مع العودة إلى المقاتلين في <شَعَب>، وحدوث معركة طاحنة تنتهي بالنصر أو الهزيمة مع خسارة عدد من الرجال ثم مكان ذي تضاريس تخفي انهزامهم لا يمكن أن يفسَّر إلا بمحاولة ربط الهزيمة بغياب البطل والسلاح، وربط ختامها بالاختفاء في التضاريس القاسية، أي إن الكاتب ربطَ الهزيمة بالشخصية، وجعل منتهاها إلى الفضاء، لكنه في المرة الأخيرة غيّر الموازين: «لو ذهب شمالاً لكان من المؤكد أنه سمع قبل أن تتيسر له مغادرة الحدود أن رفاقه العشرة الذين تبقوا من مقاتلي <شَعَب> قد هبطوا التلال بعد يومين وبسلاحهم اليسير استرجعوا تلك القرية الصغيرة المهدمة مرة رابعة» (كنفاني، ص. ١٨٧), أما في اليوم الذي وجد فيه البندقية فقد سقطت <شَعَب> مجدداً، فحين قال لصاحب البندقية: «هذه مرتينتي [...] أريدها لأعود إلى شَعَب [رد الرجل:] شَعَب! لقد احتلها اليهود مرة أخرى قبل قليل» (كنفاني، ص. ١٨٦). لقد ربط منذ البداية ضياع البندقية بضياع البلاد صراحة في قوله: «لكنه شيء ضروري أن تعرف ما الذي حدث هناك كي تدرك حقيقة القصة» (كنفاني، ص. ١٨٢)، فربط ما جرى هناك (في بلدة الرجل- شَعَب) ليفهم حقيقة قصة البندقية والعروس.

من الشخصيات التي برزت في القصة -أيضاً- شخصية الراوي، ولعل أول ما نقابله في فهم تلك الشخصية اهتمامها الشديد بكثرة الأخبار والاستنتاجات لما سمعه من أجل حَبْك القصة التي تدفع الأحداث إلى التكوّن، وهذا -بدوره- أدى إلى تشكيل القصة، فكانت البذرة الأولى التي نمت في رحم الحكاية أنه تخيل الغريب بطلاً حوله هالة من نور، وقد عملت الأحداث على تأكيد ذلك الحدس الأولي، إذ لم يأخذ من تلك الأقوال إلا بالجزء الذي يثبت صواب حدسه، وهذان الأمران -اهتمامه بالنور ومحاولة تأكيده- يجعلنا على اعتقاد بأنه يرغب في خلق بطل، فما أحاط به البطلَ -من مبالغات: «طويل جداً وضخم جداً»، وغموض: «لا أعرف اسمه»، ومظهر: «يلبس بدلة خاكية عتيقة» بتقريبها من الأرض كلون وقِدَم- يُخرج ذك البطل من حيز الشخصيات المعتادة إلى كونه رمزاً أو فكرة، وما يؤيد ذلك أنه «يلوح لأول وهلة كأنه مجنون»، ولعل من أهم ما يلاحظ أن غياب البطل طغا على حضور الراوي حتى صار يرى الجميعَ كذلك: «فالمرء يصادف في اليوم الواحد إذا ما سار في الطريق مئة رجل يحملون هذه الصفات، فأي واحد منهم تراني أقصد؟» (كنفاني، ص. ١٧٣)، وحتى صار يظن أن ذلك الجنون سرى إليه نفسه: «لا شك أنك تقول الآن إنني قد جننت [...] لقد اكتشفت أنه محض جنون أن أكتب إليك وأقول لك...» (كنفاني، ص. ١٧٣)؛ ومنه: «فأنا أعرف هذه اللحظة أنك ما زلت تعتقد أنني شبه مجنون» (كنفاني، ص. ١٧٤)، وتأكيده على الرذاذ المضيء يكسبه طابعاً روحياً وقدسياً: «كل الذي أضفته إلى هذه الصفات تلك الصفة المعقدة الجديدة: إنه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء» (كنفاني، ص. ١٧٤), وهو ما أكد عليه غير مرة. إن هذه الصفة بذاتها استدعت كتابة رسالة أخرى للمرسل إليه في اليوم ذاته، مما جعلها تشبه العلامة المميزة التي يمكن أن تفرق بين البطل والرجال المئة الذين قال الراوي بأنه يمكن أن تصادفهم في الشارع بصفات البطل ذاتها. إن المبالغة في رفعه إلى درجة المثال أو النموذج محاولة لرفع الراوي ذاته إلى درجة البحث عن نموذج، فعلى ما يبدو كان الراوي -شأنه شأن كل فلسطيني- قد أضاع أرضه بسبب عدم وجود سلاح بين يديه، فصار يبحث عن شيء يتمسك به ليشعر أن التمسك بالسلاح لا يقل شأناً عن التمسك بالأرض.

لقد ذكرنا أن العروس رمز لسلاح المقاومة، والعروس شخصية ضامرة في القصة لولا الإشارة إليها بالرمز الذي منحها قيمة فنية، ولولا الطريقة التي بودلت فيها لشيخ نتن والتي منحتها قيمة إنسانية، لكن أهم من هذا وذاك أن معظم الناس يعرفون تلك العروس: «ما زلت غير قادر على التخلص من تلك القسوة المجهولة التي تدفعني نحو عيون العابرين لأسألهم عن العروس الضائعة» (كنفاني، ص. ١٧٧). إن القسوة فقط هي ما يدفعه إلى العيون ليسأل؛ هذه القسوة التي سمحت بأن تباع العروس مقابل البندقية، وهي ذاتها التي سمحت للبندقية بالضياع، وكأن مسؤولية ضياع العروس والبندقية على عاتق الجميع، لا على عاتق الأب وحسب حين قال عن البندقية: «دفعت بها مئة جنيه مهر ابنتي الوحيدة، لقد رفضت كل عمري أن أزوجها لذلك العجوز النتن، ولكن ماذا تريدني أن أفعل الآن؟» (كنفاني، ص ص. ١٨٦- ١٨٧)؛ إن أزمة الأب في مقايضته البندقية بابنته تتضاءل أمام أزمة الرجل الذي فقد البندقية والعروس وفقد عقله معهما، ففقدان السلاح أهم من فقدان الذات نفسها، ولعل تغييب العروس في مجهول يطالها من كل جانب دليل على ضياع تلك الذات حقاً: «لم أهتدِ بعد إلى اسم العروس التي بيعت ثمناً للبندقية» (كنفاني، ص. ١٨٧).

٢- البطل في الزنزانة

جاءت قصة «البطل في الزنزانة» في مجموعة «القميص المسروق»، وقد سردت على شكل قصة إطارية وأخرى مضمّنة وردت كلتاهما في رسالة، أما الإطارية فيتناول فيها موضوع الافتعال في الأدب ويضرب مثالاً عليه القصة المضمنة، وهي حكاية بسيطة عن مستأجر فلسطيني متورّط بمنشورات ضد الحكم في الأردن، تشي به صاحبة المنزل ويُزَجّ به في السجن. تُعرض القصة ببساطتها ومعطياتها، وهي قصة لا تملك نهاية في الواقع، فيضطر «كنفاني» للبحث عن نهاية تخدم القصة فنياً، فيطلب من اثنين من أصدقائه مساعدته في إيجاد نهاية، وفي غمرة البحث عن نهاية تخدم القصة، وتحافظ على ما بُذِلَ من إنسانية البطل، يشتكي كنفاني من موضوع الافتعال في الأدب ويناقشها، إذ يجد أنّ النهايات التي يقترحها أصدقاؤه، والتي تنصف البطل؛ (مثل أن يهرب الرجل من السجن ويخبر السيدة بأنّها قد سبّبت ألماً لإنسان آخر، ثمّ يتركها لتأنيب ضميرها، أو أن تكتشف السيدة أنّها تحبّ البطل، فتقدم له الطعام والسجائر مع رفضه لها، لتشعر السيدة آنذاك بجريمتها) هي نهايات مغلّفة بالافتعال، لأنّ احتمالات توبة السيدة وإنصاف البطل غير واردة في الواقع، وفي النهاية يقدم كنفاني تصوّراً واقعياً لخاتمة القصة، إذ يعيدُ البطل إلى قضيته من غير أن ينتصر لذاته.

الفضاء في «البطل في الزنزانة»

يهمَّش الفضاء في القصة الأولى التي تتناول فكرة معينة ورأيَ المرسِل فيها، وهي فكرة الافتعال في الأدب، فلا يذكر الكاتب شيئاً عن أفضيتها، وهو أمر مبرّر ومتوقَّع لكونه يناقش فكرة لا حادثة، أما في القصة الفرعية المضمّنة فيذكر بعض الأفضية دون إفاضة في وصفها، فالبطل في القصة شخص، وليس مكاناً حتى يُطال في وصفه، ومن تلك الأفضية البيت والزنزانة.

يحمل فضاء «البيت» مدلولاً يوحي بالضدية مع المألوف، فلم يكن في القصة فضاءً للأمان والطمأنينة، بل كان وسيلة طمأنينة زائفة تجعل البطل على حقيقته لتكشف ما يخفيه بالتجسس على ما يتعمّد إخفاءه، خلافاً للزنزانة التي شكلت الفضاء الآخر في القصة؛ والتي -على طبيعتها القاسية في العرف المألوف- كانت تبدي مدلولها دون نفاق، فاقتران البيت بالزيف والزنزانة بالصدق والحقيقة محاولة لعكس رؤية الكاتب لطبيعة علاقة الفلسطيني بالفضاء، إذ لا يجد نفسه في البيت، بل في السجن الذي يودي به إليه النزال والمواجهة، وهو ما أقرّه العنوان، إذ ترك البطل في الزنزانة، جاعلاً من فضاء القصة فضاءً إنبائياً.

وعلى امتداد القصة حدد الكاتب معالم الفضاء للضرورة فقط، إذ اكتفى ببعض الأوصاف له بما يفضي إلى مدلولات عميقة في القصة تخرجه عن كونه زخرفة أدبية، ومن ذلك وصفه للغرفة التي استأجرها البطل: «استطاع أن يجد غرفة متواضعة منعزلة في دار تسكنها امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، مع زوجها» (كنفاني، ١٥ ـ ٢، ص.٤٣). إن رغبة الراوي في إظهار الغرفة المتواضعة والمنعزلة كانت بغاية تصوير الشخصية، لا رغبةً في الاستفاضة برسم تفاصيل الفضاء، فذِكرُهُ لكونها متواضعة ومنعزلة تمهيد لما جاء في وصف البطل: «كان يمضي وقتاً طويلاً في غرفته، ويتم أعماله الخاصة غير مهمل البتة القيام بالواجبات الصغيرة التي تحتمها المجاملات مع أصحاب الدار» (كنفاني، ص.٤٣)، إذ يحتّم التواضع ما كان يقوم به من مجاملات، ويفرض الانعزال الاستمرار بالأعمال التي كان قد بدأ بها قبل رحيله إلى الأردن حيث استأجر تلك الغرفة. أما تتمة وصف الفضاء: «تسكن امرأة» فهو ما سيؤدي إلى انعطافات حادة في مسير القصة، إذ سيقع عبء تغيير مجرى الأحداث على عاتق تلك المرأة، وعُطِف عليها زوجها مستجيباً منفعلاً غير فاعل سلباً ولا إيجاباً «مع زوجها»، فلم يقل: «زوجان» مثلاً، بل ترك الأسبقية للمرأة، وألحق الزوج بها بالمعية، لأن التغيير برمته كان بسببها، موضحاً -بذلك- أن أي وصف من أوصاف الفضاء كان ضرورياً ولازماً في القصة، ولم يكن حشواً أو تجميلاً لا جدوى منه.

كما يبدو تقرير الكاتب لمستقبل البطل من خلال اختيار الفضاء للنهاية المفترضة، فالنهاية الأولى المقترحة على الكاتب من زملائه كانت بأن يعود البطل إلى البيت ويخبر المرأة بشناعة ما فعلته، فالبيت نهاية، والنهاية المفترضة الثانية أن تأتي المرأة إلى الزنزانة لتخبر البطل بندمها، فالزنزانة هي النهاية الثانية، غير أن الكاتب ينسفهما ولا يختار أياً منهما، بل يختار أن رياضاً سيخرج «... من السجن مع زملائه الأحرار، وسينغمس مرة أخرى في مشاغل القضية التي آمن بها» (كنفاني، ص.٥١)، فالحرية في الفضاء هي الاختيار الموفق للنهاية في رأي الكاتب، إذ ينسف فكرة أن يبقى الفلسطيني في بيت يحيط به العدو دون أمان، وينسف فكرة أن يبقى سجيناً، ويختار مجتمعاً حراً باختياره لتركيب: «زملائه الأحرار» الذي يعكس رغبته في النهاية والفضاء.

إن القصة المضمنة تتكون في فضاءين مغلقين، وقد زاد من انحصارهما كون أحدهما سجناً والآخر ارتبط بخديعة أودت بالبطل إلى السجن، وهي إحالات الفضاء الإنبائي الذي ورد في العنوان، فلا وجود للأماكن المفتوحة في القصة. من جانب آخر فإن كلا الفضاءين كان معادياً؛ الأول بزيفه، والثاني بحقيقته، وفي كليهما كان البطل حبيس ما أريد له فيه.
لقد أراد الكاتب تصوير ما يعاني منه البطل -ممثِّلاً للشعب الفلسطيني- في فضاء بلد آخر، مما يواجهه -فضلاً على انغلاقه على واقع ومجتمع لا ينتمي إليهما- من ودّ زائف يحوّل ارتباطه بأي فضاء وأي شخص في الفضاء إلى مجرد وهمٍ يقوده في نهاية المطاف إلى حقيقة مؤلمة.

الزمان في «البطل في الزنزانة»

أهم ما يُلاحظ عن زمان القصة أنه هُمّش في سرده وتعيينه، ولم ينل من الاهتمام ما يُذكر، إذ يبدو أنه لا يؤثر على فهم القصة، ولا يساهم في تشخيص بطلها، فقلّما وجدنا فيها تفصيلاً زمنياً يستحق الوقوف، ولكن ما يمكن تأكيده أن الزمان المفهوم يتشعب في هذه الرسالة لأنها كانت قصة مضمنة، فالزمن الأول ماضٍ قريب بالنسبة لوقت كتابة الرسالة، تناوبت أفعاله بين الماضي: «قرأت، فكرت، لمحت»، والماضي القريب: «قد تخلصت»، والحاضر: «يدعونه، أعرف»، والقصة المضمَّنة حدثت قبل كتابة الرسالة بعدة أشهر، أي في ماضٍ منقطع، وقد عُرضت باستراجاعات واستباقات بين ماضٍ منقطع قريب وبعيد من دون أن تدل الأفعال ذاتها على الجهة الزمنية المعنية، إلا أن التصريح المباشر كان فاصلاً بين زمني القصتين: «أحب أن أكتبها كما هي... وكما حدثت قبل عدة أشهر» (كنفاني، ص.٤٢)، وفيما عدا ذلك لم يُحمل الزمان على محمل الأهمية في جعله يشغل حيزاً من الرسالة، وهو أمر ينسجم مع طبيعتها حين لا يكون هناك ضرورة لذكر أي تفصيل ثانوي.

الشخصيات في «البطل في الزنزانة»

شخصيات القصة معدودة كما هو متوقع، فعدا عن الشخصيات الهامشية للقصة الإطارية ذات الوظيفة المرحلية التي يمثلها: المرسِل -الكاتب- والمرسَل إليه والصديق الأول للكاتب الذي اقترح عليه النهاية الأولى، والصديق الثاني الذي اقترح النهاية الثانية؛ نلاحظ وجود البطل والمرأة وزوجها والمحقق في القصة المضمّنة، لكن ما يستحق فنياً أن نسلط الضوء عليه هو فقط: البطل والمرأة؛ فالبطل هو محور القصة وأساسها، والمرأة هي المنعطف الذي حرفَ القصة باتجاه آخر ظهر -فيما يبدو- كاتجاه منحدِر.

أول ما نلمحه في بطل القصة أنه لا يحمل اسماً، لا لتغييبه في المجهول، بل لإطلاقه من القيود، ولعل رغبة الكاتب في تخصيصه جعلته يطلق عليه اسماً مفترضاً: «إن صديقي -بطل القصة- ولنسمه رياضاً...» (كنفاني، ص.٤٢)، وهو بهذا ميّزه عن الجميع باسم، وغيّب الكل في المجهول، لكن هذا الاسم المفترض لا يلتصق به التصاقاً حقيقياً يحدّ من إمكانية إطلاقه وجعله نموذجاً للأبطال جميعاً.
ويطالعنا من صفات البطل أنه قام في كل مرة على تناقضات ظاهرية تنتهي في نهاية المطاف إلى انسجام وائتلاف، وهذا ينسجم بطبيعته مع تقابل وجودين؛ الأول داخل الراوي، وكيانُه الوطنية يصده وجود آخر خارجي تكوّنه المؤامرة، مما خلق شرخاً في وجود البطل، وجعله مشتتاً بين الحقد والصدمة التي يغلفها الحزن الشديد، وما رسمُ نهايتين مفترضتين إلا بلورة لذلك التشظي، غير أن الراوي منحه وجوداً آخر بفرض نهاية أخرى، وعزز وجهه البطولي بتلك النهاية.

تقابلت داخل البطل -أيضاً- صفتان تبدوان على وجهي نقيض لكن الحقيقة تبيّن خلاف ذلك، وهما: القوة والليونة، ففي كليهما لا يخرج عن البطولة التي نسبها إليه العنوان: «كان قاسياً على نفسه غير متهاون أبداً في مطالبتها بالواجبات. كان رفاقه يحترمونه. لقد كان قوياً وقد فرض هذا الشعور على جميع من تعاون معه، فرضه إلى حد جعل بعضهم يتساءل هل يمكن ألا يكون لهذا الإنسان -رياض- جوانب أخرى غير قوته في ذاته؟ وأتى الجواب في لحظة عابرة؛ رأوه مرة يبكي» (كنفاني، ص ص. ٤٣- ٤٤)، فالليونة التي اتسم بها لا تعدّ ضعفاً، بل وجهاً آخر للقوة، إذ نتجت عن الإحساس العميق بالمسؤولية وعن الإنسانية المفرطة. إن الجانب الأول الذي رُسم في البطل -القوة- يفرض نهايته الأولى في أن يبقى في الزنزانة مليئاً بالحقد على المرأة التي وشت به، والجانب الثاني -الليونة- يقود إلى النهاية الثانية التي يعود فيها إلى بيتها لعتابها على ما فعلته، وكلا الجانبين يصور وجهاً من وجوه شخصيته.

كما برزت سمتان أخريان تبدوان ظاهرياً متناقضتين، لكن الحقيقة أن تناقضهما ظاهري يقود إلى تآلف داخلي: «رغم أن قسماً من هذا الجميع عندما تعرّف إلى رياض قال عنه إنه إنسان يحب التظاهر، وإنه في باطنه يريد أن ينطلق إلى أقرب ملهى كي يلعب مع العصافير -حسب تعبيرهم- ولكن رياضاً ما لبث أن فرض نفسه بتشامخ ارتباطه مع القضية الكبيرة» (كنفاني، ص. ٤٣)، وقد حكم الكاتب/ الراوي بأنه صادق في ذلك: «لم يكن رياض -إذن- مزيفاً بهذا الارتباط» (كنفاني، ص. ٤٣)، فالظن به أنه يحب الحياة ويتظاهر بارتباطه بالقضية، لكن الحقيقة أنه يرى حب الحياة لصيقاً بالنضال الذي لا يبتعد بأي شكل عن الدفاع عنها وعن الحرية فيها، وهو ما انسجم مع النهاية التي اقترحها الكاتب -الحرية- لهذا كان يراه بعيداً عن الزيف.

التناقض الثالث الذي يخفيه في داخله أنه كان على قدر كبير من الحذر لئلا يُكتَشف أمره: «ذهب رياض إلى هناك [التحقيق] هادئاً، وهناك قالوا له إنه يتآمر على العرش، ولكنه نفى ذلك بهدوء. إنه كان على يقين كبير أن أحداً لن يجد ضده إثباتاً واحداً. لقد كان حريصاً في إخفاء أوراقه، قديراً في التخلص منها في الملائم» (كنفاني، ص. ٤٦)، لكنه في الحقيقة على قدر من حسن النية مما أوقعه ضحية غفلته وانخداعه: «لقد رأى رياض في المصنف مجموعة من الأوراق كان قد كتبها في غرفته تلك؛ منشورات، وبعضها الآخر رسائل إلى هاربين، وأوراق أخرى. لقد أحس رياض لا شك وقع المفاجأة [...] إن صاحبة الدار هي صاحبة الوشاية» (كنفاني، ص. ٤٧). إن عمق الصدمة يتناسب مع عمق الحذر فيما مضى وعمق الشعور بالخديعة الراهنة التي جعلته يصدق زيف ادعائها بأنها أمّيّة في قوله عنها: «إنك يا أم... من الناس الذين قيل عنهم إنهم متعلمون رغم أنهم لا يعرفون القراءة» (كنفاني، ص. ٤٦)، وهذا الوجه من التناقض هو الوجه الآخر للتناقض الأول بين القوة والليونة، فقوّته حتّمت عليه أن يكون حذراً، وليونته جرفته إلى ألا يسيء الظن دون مبرر وأن يُخدَع بالمظاهر.

إن جدية الرسالة تحول دون ترسيم خارجي وظاهري لأيّ من الشخصيات، وحتى البطل شُخّص داخله وحسب، وهو أمر لا يبدو مستبعداً أمام غرض الرسالة في إيجاد نهاية للقصة تخلو من الافتعال، فإيجاد نهاية كهذه يستوجب الانتباه إلى تفاصيل القصة وداخل البطل وحسب.

لقد رأينا أن النهايات المقترحة للقصة تتناسب مع صفات البطل كما ذكرنا، فصفة القوة أودت به إلى السجن، وصفة الليونة أودت به إلى العودة إلى البيت، وصفة الانطلاق للحياة أودت به إلى الحرية، لكن يجب أن نلاحظ أن الغرض من الرسالة الاستفسار عن موضوع الافتعال في القصة، والنهايات المفترضة تبدو فيها سمة الافتعال، فالنهاية الحقيقية للقصة هي أنه بعد أن يواجه رياض بالأدلة يقول للضابط: «<إنكم أذناب صغيرة في بالوعة القاذورات المنتنة. فليسقط العرش ولتسقط الوزارة ولتسقط أنت> ويصفع بالسوط ويلقى في السجن» (كنفاني، ص. ٤٨)، وهي النهاية الأكثر واقعية، والتي تبتعد عن الافتعال الذي كتبت عنه القصة في البداية، كما أنها تترك المجال مفتوحاً لنهايات كثيرة. من جانب آخر رأينا أن إبراز صورة البطل كان بالاعتماد على ذاته وعلى غيره عن طريق مقابلته بشخصية مناقضة تمثلها المرأة، وقد ذكرنا أن البطل مُنح اسماً «رياض» إمعاناً في تثبيته وتهميشاً للآخرين، أما الشخصية المناقضة «المرأة التي وشت به» فلم يشأ الكاتب أن يكتفي بعدم منحها اسماً شأنها شأن زوجها والمحققين والمعذّبين والأصدقاء الذين استشارهم في تحديد نهاية القصة، بل اختار أن يمنحها لقب «أم...» إمعاناً في تهميشها وترسيخاً لبروز مفارقتين مع لقبها تربطها بهما في الحالين علاقة ضدية: الأولى تَظهر من تناقض فعلها مع فعل أي أمّ، ناسفاً عنها صفة الأمومة، مثلما يوصف الشيء بضده، والثانية مفارقة في إظهار تقليد اجتماعي عربي أصيل بنداء المرأة بأم بكرها، ناسفاً -أيضاً- عنها كونها جزءاً من هذا التقليد وهذا المجتمع الذي تنخرط فيه، وكأنه بمنحها هذا اللقب (أم...) يصفعها بما تفتقر إليه من صفات، خاصة مع تغييب اسم الابن، والاستعاضة عنه بنقاط تأكيداً على عدم أهميته، وإبرازاً للدعامة الأولى التي يقوم عليها اللقب «أم» بعلاقة ضدية، وهو ما دعمته بقدرتها على النفاق: «لقد توطدت صداقته مع أصحاب الدار فصاروا يحبونه حباً جماً [...] لقد كانت (أم...) صاحبة الدار تأتي إلى غرفته كل ليلة تقريباً مع زوجها [...]، وفي مرة رفعت أم... جريدة موضوعة على السرير أمام عينيها، ولاحظ رياض أن الجريدة مقلوبة، وقبل أن يتكلم رمت أم... الجريدة جانباً وهي تقول: <الله يلعن أيام زمان. على كل حال أنا تزوجت وصار عندي أولاد، ولم يبقَ في العمر قدر ما مضى>» (كنفاني، ص ص. ٤٥- ٤٦). إن ما بدأه السرد من محاولة إظهار الود المفتعل الذي تكنُّه المرأة للبطل أُفرِغ من محتواه بالجريدة المقلوبة، فقلبُها ينبئنا بأمرين: الأول قلب الرأي المفاجئ فيما يتعلق بالعلاقة بين أصحاب الدار والبطل، والثاني قدرة المرأة الفائقة على النفاق وقلب المواقف، وقد أيدت تصرفها بالإفصاح الذي يدعم نفاقها ويعززه.

لقد رسمت القصة الترسلية الشخصيات الرئيسة بما يكفي ويفي بغرض القصة دون حشو أو إفاضة، فأظهرت البطل بإبراز التناقضات الداخلية لديه، والتي يبرز أهمها في المفارقة التي يضمّها العنوان بين البطولة والزنزانة، وشُخّصت الشخصية المناقضة بما يلزم في القصة وحسب، ولم تعطَ من الأهمية إلا ما يستوجبه إتمام مفهوم القصة وإيضاح فكرتها.

الخاتمة والتوصيات

انتهت دراسة «البنية السردية في القصة الترسلية؛ العروس والبطل في الزنزانة نموذجاً» لقصتين لغسان كنفاني إلى مجموعة من النتائج تتلخص في أن الكاتب لم يسرف في سرده فيما يتعلق بعناصر البنية السردية المدروسة (الفضاء والزمان والشخصيات) بما ينسجم مع طبيعة الرسائل التي تبتعد عادةً عن الإطناب، ولكنها كانت مفصّلة على مقاس الفكرة، ولم يُغفل الاهتمام بها على حساب الفكرة، كما كانت طريقاً يؤدي في نهايته إلى تشخيص البطل، وهو بدوره ما يتناسب مع طبيعة الرسائل الشخصية التي تكون مليئة بالبوح مما يسهم في فهم فكر المرسل ومشاعره، وكان من النتائج أيضاً أن الاهتمام بتحديد فضاء القصتين كان مقتصراً على إظهار ما لاقاه البطل من تيه سبّبته كثرة الأفضية في «العروس»، وما لاقاه بطل «البطل في الزنزانة» من تقييد سبّبه كون أحد أفضية القصة منافقاً في ألفته والآخر صادقاً في قسوته وعِدائه.

من الملاحظ أيضاً أن فضاء البيت والزنزانة حُدّدا كتعيين في القصتين دون أن يلاقيا وصفاً إلا بما يخدم الفكرة في «العروس»، والشخصية في «البطل في الزنزانة»، إذ قوبل البيت فيها بالزنزانة طارحاً تناقضاً في داخل الشخصية وفي نهايتيها المفترضتين، وبيّن التحليل أيضاً أن الزمن في «العروس» ساهم في بيان تأزم الشخصية الذي ظهر بانفصالها عن الواقع والحاضر، وحُمل على محمل نفسي يعكس ما تضمره الذات الدفينة، كما كان انعكاسه في السرد امتداداً لما كان عليه في العنوان بعلاقة ضدية. أما الزمن في «البطل في الزنزانة» فهُمِّش تناسباً مع مقتضيات الرسالة التي لم تجد حاجة إلى إظهار تفاصيل في السرد الزماني.

على صعيد الشخصيات وجد البحث أن الكاتب ترك لشخصية الراوي في العروس المجال لحبك خيوط سرد قصة المجنون في محاولة لإيقاف الامّحاء في التهميش، فقد كان البطل المفترض الذي شكّله الراوي تدرّعاً بإيجاد بطل يفتقر إلى وجوده في الواقع الذي ينفصل عنه كبديل لخلق المواءمة معه، فجعل القصة تتمحور حول شخصية البطل على أنها شخصيات مركزية لا هدف للقصة إلا رسمها بدقة، وعمل على رفع شخصيتي المجنون والعروس ليكونا رمزاً أو نموذجاً لُبّسا بقالب الوطن نتيجة العجز عن حماية ذلك الوطن، ونظراً لكون القصة في رسالة فقد أتيح للراوي أن يفرض نبوءته حيال شخصية المجنون على أنها بطل، وأن يعمل على إثبات ذلك الجزء من الحدس برسم ماضيه برمّته، وكان لجوء الراوي إلى رسم الشخصية المثال هروباً من الواقع بالابتعاد عن الخيال، فبحث عن الحقيقة، وأعاد تشكيل نسيج القصة التي لم يكن قد ظهر منها إلا خيط رفيع، أما شخصية البطل في «البطل في الزنزانة» فاعتمدت في إبراز بطولتها على ذاتها وأفعالها، لا على ما نسبه إليه الراوي كما في القصة الأولى، وقد قامت هذه الشخصية على مجموعة من التناقضات الخارجية التي أدت في جوهرها إلى تشكيل اثتلاف داخلي عميق انسجم في كل جزء من تناقضاته الظاهرية مع نهاية محتمَلة للقصة، وقد لمحنا في القصة الأولى «العروس» أن إظهار البطل (المجنون) كان بمؤازرة الشخصيات الموافِقة (العروس والأبطال)، أما في القصة الثانية فكان إظهار البطل قائماً على شخصية مناقضة (المرأة) لم تنل من الأهمية أكثر من كونها محرّكاً للأحداث وعاطفاً لمسيرها.

يمكن مطالعة المزيد من التحليلات بالمزيد من التعمق، كما يمكن الوصول إلى المزيد من النتائج للوصول إلى السمات الأسلوبية للرسالة القصصية عند كنفاني بمتابعة بقية القصص الترسلية لديه ومقابلتها معاً للوصول إلى سمات عامة، كما يمكن دراسة قصص ترسلية لكتّاب مختلفين لبيان الملامح العامة لهذا النوع السردي المميز، وهو ما نعدّه اقتراحات وتوصيات لمقالات أخرى تكمل المقالة الراهنة وتدعمها.

المراجع

- بحراوي، حسن. (١٩٩٠). *بنية الشكل الروائي الفضاء والزمان والشخصية*. المركز الثقافي العربي.
- بوعزة، محمد. (٢٠١٠). *تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم الاختلاف*.
- التونجي، محمد. (١٩٩٩). *المعجم المفصل في الأدب*، ج١ و٢ (ط٢). دار الكتب العلمية.
- جنيت، جيرار. (١٩٩٧). *خطاب الحكاية* (ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، وعمر حلي، ط٢). الهيئة العامة للمطابع الأميرية (المجلس الأعلى للثقافة).
- حافظ، صبري. (١٩٨٢م). خصائص الأقصوصة البنائية وجماليتها. *مجلة فصول*. ٢(٤)، ١٩- ٣٢.
- روجو، جاك. (١٩٨٥). *الأدب الترسلي*، من مجموعة: الأدب والأنواع الأدبية (ترجمة: طاهر حجار). طلاس.
- زنور، مريم وقدور، سكينة. (٢٠١٩). أدب الترسل وتداخل الأجناس. *مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية*، ٣٣(٣)، ٣٣١- ٣٦١.
- زيتوني، لطيف. (٢٠١٠م). *معجم مصطلحات نقد الرواية*. مكتبة لبنان ناشرون.
- عبد النور، جبور. (١٩٨٤). *المعجم الأدبي* (ط٢). دار العلم للملايين.
- عتيق، عبد العزيز. (١٩٧٢م). *في النقد الأدبي* (ط٢). دار النهضة العربية.
- عزام، محمد. (٢٠٠٥م). *شعرية الخطاب السردي*. اتحاد الكتاب العرب.
- كنفاني، غسان. (٢٠١٤م). *عالم ليس لنا* (ط٢). منشورات دار الرمال.
- كنفاني، غسان. (٢٠١٥م). *القميص المسروق*. دار منشورات الرمال.
- لحمداني، حميد. (١٩٩١م). *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*. المركز الثقافي العربي.
- محمد، حسين علي. (٢٠١١م). *التحرير الأدبي: دراسة نظرية ونماذج تطبيقية* (ط٧). العبيكان.
- مرتاض، عبد الملك. (١٩٩٨م). *في نظرية الرواية*. سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠).
- وهبة، مجدي، والمهندس، كامل. (١٩٨٤م). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب* (ط٢). مكتبة لبنان.

سرقمة، عاشور، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 74-68، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/6h9cmm76

الطرق المختلفة للتعامل مع المخطوط مجهول المؤلف: عينات من المخطوطات الأدبية واللغوية

عاشور سرقمة

الملخص

يهدف البحث إلى دراسة إشكالية المخطوطات مجهولة المؤلف في التراث العربي، من خلال تحليل مناهج المحققين والمفهرسين في التعامل مع هذا النوع من النصوص، واستقراء أساليب توصيفها وضبط بياناتها الببليوغرافية. وتنطلق الدراسة من فرضية أن غياب اسم المؤلف لا يُعدّ عائقاً نهائياً أمام التحقيق العلمي، بل يفتح المجال لاعتماد مقاربات منهجية متعددة تمكّن من استجلاء هوية النص وسياقه المعرفي والتاريخي. واعتمدت الدراسة منهجاً تكاملياً يجمع بين الوصفي التحليلي، من خلال دراسة عينة من المخطوطات اللغوية والأدبية المحفوظة في خزائن الجنوب الجزائري، مع توصيف خصائصها المادية والعلمية وتحليل بياناتها الفهرسية، والمنهج التاريخي النقدي لتحليل طرائق تعامل القدماء والمعاصرين مع هذه النصوص، إضافة إلى المنهج المقارن لمقابلة آراء المحققين في قضايا النسبة والإثبات. وتخلص الدراسة إلى أن عدداً معتبراً من هذه المخطوطات ما يزال بحاجة إلى تحقيق علمي رصين، وأنها تمثل مادة أصيلة تسهم في إعادة قراءة قضايا لغوية وأدبية في التراث العربي. كما تؤكد ضرورة تطوير أدوات منهجية أدق، وتعزيز التعاون بين المحققين والمفهرسين لبناء قواعد بيانات دقيقة تحفظ هذا التراث وتدعم حضوره في البحث الأكاديمي العالمي.

الكلمات المفتاحية: مناهج وطرق، التحقيق والفهرسة، المخطوطات مجهولة المؤلف، اللغة والأدب.

Different Approaches to Dealing with Anonymous Manuscripts: Samples from Literary and Linguistic Manuscripts

Ashour Sergma

ABSTRACT

The study examines the issue of anonymous manuscripts in Arab heritage by analyzing how editors and cataloguers deal with them, particularly in terms of description and standardization of bibliographic data. It argues that the absence of an author's name is not a major obstacle to scholarly editing, but rather an opportunity to apply varied methodological approaches to uncover the text's identity and its intellectual and historical context. An integrative methodology is used, combining descriptive-analytical, historical-critical, and comparative approaches. The study investigates a sample of linguistic and literary manuscripts preserved in southern Algerian collections, focusing on their physical characteristics, scholarly features, and cataloguing records. It also reviews how both classical and modern scholars have treated issues of attribution and verification. The findings show that many manuscripts still require rigorous scholarly editing and represent valuable sources for revisiting linguistic and literary issues in Arab heritage. The study stresses the need for more precise methodological tools and stronger collaboration between editors and cataloguers to build reliable databases that preserve and disseminate this heritage globally.

Keywords: methodologies and approaches, editing and cataloguing, anonymous manuscripts, language and literature.

الأستاذ الدكتور عاشور سرقمة، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري، جامعة غرداية، الجزائر، للمراسلة: Sergma.achour@univ-ghardaia.edu.dz.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).
Prof. Ashour Sergma, Laboratory of Cultural, Linguistic, and Literary Heritage in Southern Algeria, University of Ghardaia, Algeria.
For correspondence: Sergma.achour@univ-ghardaia.edu.dz.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

من المعروف اليوم لدى الباحثين بأن البدايات الأولى للاهتمام بعلم تحقيق المخطوطات والعناية بها كانت لدى الغرب؛ والذين اهتموا بنشر نصوص الآداب القديمة خاصة اليونانية واللاتينية؛ وذلك منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ووضعوا في ذلك أسساً ومبادئ مكنتهم فيما بعد من نشر نصوص بعد نقدها خاصة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ثم بدا تأثيرهم واضحاً على المستشرقين ثم المستغربين وبعض المحققين العرب المحدثين بعد ذلك.

ولعلّه يُمكننا أن نشير إلى آراء بعض كبار الباحثين العرب الذين أرّخوا لحركة التحقيق في تراثنا العربي، من أمثال الدكتور عبد السلام هارون الذي أشار مثلا إلى صعوبات التحقيق والطريقة المُثلى لمعالجتها؛ لكنه لم يُشر إلى احتمال ألا يَجد المحقق أحياناً اسم المؤلف رغم جهده في البحث عنه بكل الطرق المتعارف عليها بين الدارسين والمُحققين، أو أيضاً كيفية التعامل مع المخطوط مجهول المُؤلف (هارون،١٩٩٨، ص. ١٠٠). وتوقف أيضاً الدكتور رمضان عبد التواب عند جهود علماء العربية القدامى في التحقيق ولكنه لم يقف عند نماذج لهم في معالجة هذه القضية، ما عدا ما ذكره عن الوزير أبو عبيد البكري الأندلسي (٤٨٧هـ) صاحب كتاب «اللآلي في شرح أمالي القالي» (عبد التواب، ١٩٨٥، ص. ٤٥) من جهود في نسبة الشعر المجهول إلى قائليه والتنبيه على اختلاف نسبة البيت الشعري لصاحبه؛ واعتمد في ذلك طرقاً شتى؛ أساسها معرفته الجيدة بالشعر وبحياة الشعراء وتفاصيل الحياة آنذاك، وأيضاً ما ذكره عن الإمام عبد القادر البغدادي (١٠٩٣هـ) في كتابه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» (عبد التواب، ١٩٨٥، ص. ٥٠) من نسبة الأبيات المجهولة لأصحابها، والإشارة لاختلاف الروايات في البيت الواحد وغيرها من الجهود، واستمد منهجه في ذلك من خلال اطلاعه الواسع بما تحويه المكتبة العربية من مؤلفات وما وردت فيها من معارف وتراجم مختلفة، ومن أمثلة ذلك:

«...وأنشد فيه أيضاً:

فتىً تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَه على أنَّ فيه ما يَسُوء الأعاديَا

... انتهى كلامه.

وأورده علماء البديع أيضاً في باب تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ.

وهذا البيت من أبيات النابغة الجعدي، رثى بها أخاه. وقد أوردها أبو تمام في باب المراثي من الحماسة، وهي من قصيدة، وقبله:

أَلم تَعلمي أنّي رُزئت مُحارباً فَمَا لكِ مِنه اليَوم شيءٌ ولا لِيَا..» (البغدادي، د. ت، ص.٣٣٥)

ربما مما لاحظناه هو أن الكثير من الباحثين يُركّزون في اختيارهم للمخطوطات المُراد تحقيقها على وجود مُؤلّف لها؛ حتى إن كان معروفاً بأنها تُنسب إليه فقط، ونجدهم أحياناً يَغضّون الطّرف عن المخطوطات الأخرى مَجهولة المُؤلّف؛ نظراً لما تطرحه من مُشكلات وقضايا في مسألة الترجيح في نسبة المؤلّف لهذا أو ذاك، لذلك بقيت نسبة مُعتبرة من المخطوطات في المكتبات والخزائن -للأسف- دون إخراج وتحقيق وتعريف بها، رغم أن بعضها يحمل عدداً مُهمّاً من العلوم والمعارف على اختلافها وتنوعها، وقد يرد اسم المؤلف عادة واسم النسخة في آخر المخطوطة.

لعل من أهم العناصر المتعارف عليها التي يجب أن يتبعها أي مُحقق في تحقيقه ما يلي:

- تحقيق عنوان الكتاب.
- تحقيق اسم المؤلّف (يتضمن أيضاً التعريف بالمؤلف).
- تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلّفه.
- تحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الإمكان مقارباً لنص مؤلفه.

ما يهمنا نحن هاهنا هو: تحقيق اسم المؤلف؛ ومنه أيضاً تحقيق نسبة الكتاب لمؤلفه، ولكن إن لم يرد ذكراً لاسم المؤلف في كتاب مُعين، وأيضاً لم يُنسب لكاتب مُعين، ألا يحق لهذا المخطوط أن يُحقق أيضاً باعتباره تراثاً علمياً وصل إلينا؛ بغض النظر عن القيمة العلمية الموجودة فيه.

سقوط اسم المُؤلّف من المخطوط

لقد غلبت الثقافة الشفوية على الحياة العربية فلم يكن التدوين والتسجيل يشكل هاجساً وهماً بالنسبة للعربي، ولعل البدايات الأولى للتدوين كانت مع تدوين القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وهكذا بدأت تُدَوَّن أغلب العلوم والمعارف، والأمر نفسه بالنسبة للشعر والأدب.

قد يسقط اسم المؤلف لسبب أو آخر، ونذكر بعض تلك الأسباب فيما يلي:

- خضوع المخطوطة لتلف خاصة في الجزء الذي ذكر فيه العنوان أو اسم المؤلف.
- عدم اهتمام الناسخ بذكر اسم المؤلف أثناء النسخ أو عدم الانتباه لذلك.
- عدم ذكر المؤلف أثناء فهرستها، أو نسبتها خطأ لمؤلف آخر.
- عدم ذكر العنوان تاماً أثناء عملية النسخ، فقد يكون العنوان مركباً من جزء عام وآخر خاص، فلا يُذكر إلا العام ويُهمل الجزء الخاص.

من الضروري الإشارة إلى أن الشعر يتميز بخاصية تميزه عن النثر؛ وهو أننا في كثير من الأحيان قد نجد اسم صاحب النص (الشاعر) مذكوراً في نهاية القصيدة، وهذا ما يسمى بالتوقيع (سرقمة، ٢٠١٧، ص. ٩٨)، وهو شائع بشكل كبير في الشعر الشعبي أو ما يُعرف أيضاً بالشعر الملحون أو العامي، ولعل هذا ما جعل الكثير من النصوص تنتقل أجيالا وأجيالا محافظة على اسم مؤلفها. تشكل الخطوة الخاصة بمعرفة المُؤلّف في عملية التحقيق قديماً وحديثاً أهمية كبيرة حيث يُركز المُحققون أثناء ترتيبهم للنسخ؛ من حيث أهميتها في عملية التحقيق على النسخ التي كتبها المؤلف بخط يده، وقد يرد في المخطوط ما يدل على ذلك من ذكر لاسم المؤلف وتصريحه بكتابته لهذه النسخة

التي تسمى «النسخة الأم»، ثم تليها من حيث الأهمية النسخة التي نقلت من النسخة الأم، ثم تليها النسخة التي أملاها المؤلف على أحد تلامذته ثم التي قُرأت عليه (المُؤلِّف)...وهكذا، وهم في الغالب يستأنسون فقط بالنسخ التي لم يُذكر مُؤلّفها في نسخة المخطوط المُراد تحقيقه وإخراجه. أحياناً قد تُضَمَّنُ كتبٌ ضِمن كتب أخرى بداية أو دون دراية من الناسخ دون ذكر أسماء تلك الكتب وأسماء مؤلفيها، وقد ذكر ذلك الدكتور عبد السلام محمد هارون (هارون، ١٩٩٨، ص. ٣٠)، وأشار إلى «أن هذا النوع من الأصول لا يخرج كتاباً مُحققاً، وإنما يُستعان به في تحقيق النص» (هارون، ١٩٩٨، ص. ٣١). كما أن الكاتب نفسه قد يؤلف كتابه مرتين، يستدرك في الثانية ما فاته في الأولى، كما فعل الجاحظ مع كتابه «البيان والتبيين» (هارون، ١٩٩٨، ص. ٣٣)، أو يعقد على كتابه الأول شرحاً مثل ما فعل محيي الدين ابن عربي مع كتابه «ترجمان الأشواق» شرحه في كتاب سماه: «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق» (ابن عربي، ٢٠٠٠، ص. ٩).

وهناك بعض الكتب التي حُققت ونُسبت لأكثر من مُؤلف في تراثنا العربي، فقد ذكر الدكتور رمضان عبد التواب مثلاً بعض الكتب لتي نُسبت إلى غير مؤلفيها مثل: «مخطوطة «الغريب المصنف» الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١ لغة، يوجد في صفحة العنوان بها: «الغريب المصنف لأبي عمرو الشيباني» والصواب أن الكتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، كما هو ثابت في مخطوطاته الأخرى، ولعل السبب في خطأ النسبة في هذه المخطوطة، أن الكتاب يبدأ بعبارة: «قال: أبو عبيد: سمعت أبا عمرو الشيباني يقول...» فظن الناسخ، الذي كان ينسخ -فيما يبدو- من نسخة ضاعت منها ورقة العنوان، أن الكتاب لأبي عمرو الشيباني، فعزاه إليه (عبد التواب، ١٩٨٥، ص. ٧٥)، وهو ما يتطلب خبرة ودقة كبيرة من طرف المُحقق.

وقد يحدث أيضاً خطأ في نسبة الكتاب لغير مؤلفه وواضح أن ذلك بسبب عدم ذكر اسم المؤلف فيه أو لخطأ في نسبته من طرف النُّساخ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره أيضاً الدكتور رمضان عبد التواب حيث قال: «ومن أمثلة الخطأ في عنوان الكتاب واسم مُؤلفه، ما نُشر قديما باسم: «نقد الشعر» ونُسب لقدامة بن جعفر، بتحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي، ثم تبين أنه جزء من كتاب: «البرهان في وجوه البيان» لأبي الحسين بن وهب الكاتب. وقد نشره في بغداد الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، سنة ١٩٦٧م، كما نشره بالقاهرة الدكتور حنفي شرف سنة ١٩٦٩م» (عبد التواب، ١٩٨٥، ص. ٧٦). وقد اختُلف أيضاً كما هو معروف في نسبة «كتاب العين» ونسبته للخليل بن أحمد الفراهيدي. كما أننا نضع في الاحتمال أن الدافع إلى نسبة أي كتاب مجهول المؤلّف إلى مؤلّف معين، هو عدم إبقاء هذا الكتاب دون مؤلف معروف؛ وقد يكون ذلك عن وعي وقد يكون دون وعي، وهو ربما ما يفسر وجود كتب كثيرة منسوبة لبعض المؤلفين في مختلف الموضوعات والعلوم والمعارف، فهذا أمر يحتاج أيضاً إلى كثير من التدقيق وأخذ الحيطة في نسبتها لهم أو نفي ذلك. ولعلنا عندما نتأكد من نسبة مخطوط لمؤلف معين نستطيع بذلك معرفة الكثير من المسائل، منها ما يتعلق بشخصه هو كثقافته وتوجهه المذهبي وغيرها، ومنها ما يتعلق بالعصر أو الفترة الزمنية التي عاش فيها: ١- ثقافته، ٢- توجهه ومذهبه: ومن ذلك ما قيل في كتاب «المواقف» الذي هو منسوب للأمير عبد القادر الجزائري، وشكك البعض في نسبته له لأنه في نظرهم مليء بالأكاذيب التي لا صحة لها؛ والتي لا يُمكن أن تُنسب لعالم وفقيه مثل الأمير عبد القادر -حسب رأيهم (سرقمة وموريدة، ٢٠٠٠، ص. ٨٨)، ٣- عصره.

ولعل هذا كله مما يساعد في نسبة كتاب مخطوط إلى مُؤلِّف مُعين. وقد ذكر الدكتور عبد السلام محمد هارون كلاماً مهماً جداً بخصوص أهمية أن يعرف مؤلف المخطوط، وترجيح مُؤلِّف معين في حال التشابه في التأليف: حيث يقول: «إن كل خطوة يخطوها المحقق لا بد أن تكون مصحوبة بالحذر، فليس يكفي أن نجد عنوان الكتاب واسم مؤلفه في ظاهر النسخة أو النسخ؛ لنحكم بأن المخطوطة من مؤلفات صاحب الاسم المثبت، بل لا بد من إجراء تحقيق علمي يطمئن معه الباحث إلى أن الكتاب نفسه صادق النسبة إلى مؤلفه» (هارون، ١٩٩٨، ص. ٤١).

وأحياناً تفقد النسخةُ النصَّ على اسم المؤلف، فمن العنوان يمكن التهدي إلى ذلك الاسم، بمراجعة فهارس المكتبات، أو كتب المؤلفين، أو كتب التراجم التي أخرجت إخراجاً حديثاً، وفهرست فيها الكتب؛ ك(معجم الأدباء) لياقوت، و (إنباه الرواة) للقفطي، أو غير ذلك من الوسائل العلمية. على أن اشتراك كثير من المؤلفين في عنوانات الكتب يحملنا على الحذر الشديد في إثبات اسم المؤلف المجهول، إذ لا بد من مراعاة اعتبارات تحقيقيّة، ومنها: المادة العلمية للنسخة، ومدى تطويعها لما يعرفه المحقق عن المؤلف وحياته العلمية، وعن أسلوبه، وعن عصره. والمحقق إذا عثر على طائفة معقولة من الكتب منسوبة إلى مؤلف معيّن في نقل من النقول؛ كان ذلك مما يؤيد ما يرجّحه أو يقطع به في ذلك. وأحياناً تدل المصطلحات الرسمية في الكتاب على ما يوجهنا إلى تعيين عصر المؤلف، يظهر ذلك لمن قرأ شيئاً من هذه المصطلحات في (صبح الأعشى) للقلقشندي، و(التعريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله العمري. وقد يعتري التحريف والتصحيف أسماء المؤلفين المثبتة في الكتب، فـ(النصري) قد يصحف بـ(البصري)، و(الحسن) بـ(الحسين)، و(الخراز) بـ(الخزاز)، وكل ذلك يحتاج إلى تحقيق لا يكتفى فيه بمرجع واحد؛ فقد يكون ذلك المرجع فيه عين ذلك التصحيف، أو تصحيف آخر أقسى منه، فليس هنا بدٌّ من اجتلاب الطمأنينة في ذلك بالبحث العلمي الواسع. وما قيل في تزييف العناوين يقال أيضاً في تزييف أسماء المؤلفين؛ لذلك لم يكن بد من أن يتنبه المحقق لهذا الأمر الدقيق» (هارون، ١٩٩٨، ص ص. ٤٤- ٤٥).

وقد أخذ الدكتور رمضان عبد التواب على الدكتور حسين عطوان أثناء جمعه وتحقيقه لديوان الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي (٧٥هـ) أخذ عليه عدداً من الملاحظات منها خلطه شعر ابن أحمر بشعر غيره (عبد التواب، ١٩٨٥، ص. ٣٥٥). أما بخصوص نسبة الكتاب إلى مُؤلف معين في حالة مَجهولية المُؤلِّف؛ فلعله مما يساعد في نسبة كتاب إلى مؤلف مُعين هو معرفة أسلوبه في التأليف؛ وكذا طريقته في الكتابة إن كان المخطوط قد كُتب بخط المُؤلف/الناظم، ويذكر في هذا الموقف المحقق العراقي د. بشار عواد معروف ما وقع له مع النسخة الجزائرية من كتاب «المستملح من كتاب التكملة» للذهبي، وكانت مجهولة المؤلف ولم يُصرَّح فيها إلا بعنوان الكتاب في آخرها، ورغم هذا يقول المُحقق: «...وحين وقع نظري عليه [الكتاب] عرفت أنه بخط الذهبي الذي أدمنتُ عليه من قُرابة خمسين عامًا، ثم سرعان ما أدركتُ، حين سَبَرتُ أمره واختبرتُ حاله وقرأت بعض تراجمه، أنه مختصرُه لكتاب (التكملة) لابن الأبّار، وأنه سمَّاه (المستملح من كتاب التكملة)...فكان فرحي به لا يُوصف» (الذهبي، ٢٠٠٨، ص. ٦).

وأيضاً الاطلاع على الكتب المختلفة التي ترجمت لهذا الكاتب خاصة إذا وجدنا عنوان أو اسم المخطوط قد ذكر فيه (سواء على الغلاف أو في المقدمة أو الختام)؛ فقد تذكر هذه التراجم بأن هذا الكتاب من مؤلفاته، وأيضاً يمكننا الرجوع إلى مؤلفات هذا الكاتب، «فرُبما عرض لذكر هذا المُؤلَّف في خلال مؤلفاته الأخرى، أو عرض لذكره في مقدمة الكتاب، التي بيَّن فيها أسباب تأليفه، أو الرجوع إلى الكتب المُؤلفة في بابه، وتأخرت عنه، لعلها اقتبست منه، أو أشارت إليه، أو الانتفاع من كتب التراجم التي عقدت له ترجمة خاصة، فأشارت فيها إلى مُصنفاته، أو كتب الفهارس التي وقفت عند مجاميع الكتب في أبوابها» (القيسي والعاني، ١٩٧٥، ص. ١٢)، وطبعاً لم تذكر كتب الفهارس كل الكتب؛ كما أنها لم تقف عند تراجم جميع المؤلفين.

وأيضاً «تُعَدّ الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها، فالكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف، ومن أمثلة ذلك: كتابٌ نُسب إلى الجاحظ، وعنوانه «كتاب تنبيه الملوك والمكايد»، ومنه صورة مودعة بدار الكتب المصرية برقم (٢٣٤٥ أدب)، وهذا الكتاب زيف لا ريب في ذلك؛ فإنك تجد من أبوابه باب «نكت مكايد كافور الإخشيدي» و «مكيدة توزون بالمتقي لله»، وكافور الإخشيدي كان يحيا بين سنتي ٢٩٢ و ٣٥٧ والمتقي لله كان يحيا بين سنتي ٢٩٧ و ٣٥٧، فهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات السنين ...» (هارون، ١٩٩٨، ص. ٤٦).

يقترح الدكتور عبد اللطيف الجيلاني مجموعة من الطرق للكشف عن المخطوطات «مجهولة المؤلف» أو «المجهولة»، وذلك في مقال له بعنوان: «ظاهرة المخطوطات المجهولة في التراث الإسلامي وأساليب الكشف عنها»، ويقصد بالمجهولة التي لا يعرف موضوعها أو عنوانها أو مؤلفها، ونحن ما يهمنا منها هو ما يتعلق بمجهولية المُؤلف؛ فهو يقترح بعض الآليات والطرق لمعرفة المؤلف (الجيلاني. ٢٠٢٢) منها: ضرورة مراجعة كتب التراجم والفهارس والأثبات والبرامج للوصول إلى اسم الكتاب، أو النظر في مقدمة المخطوط التي قد يصرح فيها ببعض المعلومات المفيدة في تحديد المؤلف، وأيضاً النظر في السماعات والتملكات والوقفيات والطرر والحواشي المدونة على الكتاب، فربما تحمل معلومات تفيد في التعرف على المؤلف أو على عنوان كتابه، وكذلك الوقوف عند ترتيب الكتاب وتبويبه ومنهجه ومصادره، أو النظر في مضمون الكتاب، وأيضاً مقارنة بعض نصوص الكتاب بما يناسبها في الكتب المؤلفة في الموضوع نفسه، أو مقارنة أسلوب مؤلف الكتاب بأساليب من ألّف في الموضوع نفسه، وكذلك النظر في الكتب الأخرى التي يضمها المجموع إذا كان المخطوط المجهول واقعا ضمن مجموع... وقد أضاف صبري عبد الخالق الشافعي إلى هذه المقترحات بعض العناصر الأخرى المساعدة منها الاستعانة بعلم المخطوطات، أو: الكوديكولوجيا. وهو يُعْنَى بدراسة الشكل المادي للكتاب المخطوط بوصفه أثرًا بصرف النظر عن نص الكتاب. وموضوعه: حوامل الكتابة: كالورق، والمواد والآلات المستخدمة في الكتابة، وشكل الكراسات وأحجامها وترتيبها، وشكل الصفحة وإخراجها وتسطيرها، وتزويق المخطوطة وتذهيبها وتجليدها، فإن هذا مما يعين على التعرف على زمن تدوين المخطوطة، مما يساعد على تحديد مؤلفها، خاصة إذا كانت بخطه، إلى غير ذلك من الفوائد (الشافعي، ٢٠٢٢).

وقد اهتم بعض الدارسين والمُحققين بالمخطوطات مجهولة المؤلف في موضوعات مُحددة، فقد اهتم مثلا: محمد بن شريفة بالمخطوطات التاريخية والجغرافية مجهولة المؤلف، واهتم حكمت بن بشير ياسين بالمخطوطات في الدراسات القرآنية مجهولة المؤلف (بن شريفة، ١٩٩٧، ص. ٢٠٧)، وأشار هذا الأخير إلى عديد القضايا التي تخص تحقيق المخطوطات مجهولة المؤلف، حيث أنه أحياناً كما يُجهل المؤلف قد تجهل أيضاً بعض التفاصيل التي تخصه مثل تاريخ ميلاده أو وفاته أو نسبته؛ فقد اختُلف مثلاً في تحديد هوية ابن عبد المنعم الحميري مؤلف كتاب «الروض المعطار» هل هو سبتي أم أندلسي أم تونسي؛ كما أنه اختُلف أيضاً في تاريخ وفاته (الحميري، ١٩٨٤، ص. ه المقدمة)، كما أننا أحياناً قد نعثر على بعض المؤلفين ولكننا لا نجد أي تفاصيل تذكر حول حياتهم، كما أن المصادر المتخصصة لم تُشر هي أيضاً إلى شيء حولهم.

- كتاب: «الرحلة المغربي إلى تَريم» المسماة: «بَذْلُ النِّحلة لمن يُحب الناصحين الكرام الأجلة، بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تَريم وأهلها في الرحلة» (مُشاهدات سَائح مَغْرِبي في بلاد حضرموت سنة ٨٦٥هـ) لمُؤلف مَجهول، تحقيق: أ.د. عبد الرحيم العَلَمي، طبع: دار الحديث الكتانية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٧.
- كتاب: «شرح أيها الولد للإمام الغزالي»، لمُؤلف مَجهول، اعتنى بها: محمد هادي الشمرخي الماردِيني، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٢.
- كتاب: «أنس العاشق ونزهة الشائق ورياض المُحب الوامق»، لمُؤلف مَجهول (من أهل ق٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن البشر، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٢.
- كتاب: «المختار من ذيل الخريدة وسيل الجريدة لعماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد الأصبهاني»، لمُؤلف مَجهول، ترجمة وتحقيق: محمد عايش، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٠.
- كتاب: «روح الروح»، لمُؤلف مَجهول (من ق٥هـ)، ترجمة وتحقيق: إبراهيم صالح، طبع: دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٩.
- كتاب: «شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن»، لمُؤلف مَجهول، تحقيق: حاتم صالح الضامن، طبع: دار البشائر، دمشق سورية، سنة ٢٠٠٣.

وغيرها كثير وكثير من الكتب الأخرى في تراثنا العربي خاصة في اللغة والأدب والتاريخ. إذا أردنا أن نقف عند مجموعة من أهم الكتب التي حُققت قديماً وحديثاً دُون نسبتها لمُؤلِّف مُعيَّن فيمكننا القول بأن هناك مجموعة من الكتب التي حُققت وأخرجت ورأت النور عن طريق نشرها وذلك رغم أنها مجهولة المؤلف، وذلك لما فيها من الفوائد والنفع العظيم على الأمة.

ننتقل الآن من عملية دراسة المخطوطات مجهولة المؤلف وتحقيقها إلى عملية فهرستها داخل المكتبات والخزائن، وسنحاول الوقوف عند أهم المحطات المتعلقة بفهرسة المخطوطات مجهولة المؤلف في المكتبات والخزائن الخاصة بالمخطوطات ثم نعرض بعد ذلك نماذج من المخطوطات بالمكتبات والخزائن بالجنوب الجزائري التي لم تُحقق ولعل السبب الأساس هو عدم معرفة مؤلفها.

فهرسة المخطوطات

من الضروري الإشارة إلى أن المكتبات والخزائن تعتمد عادة في فهرستها للمخطوطات على ما هو موجود من معلومات على غلاف المخطوط أو ما هو مذكور في نهايته وخاتمته أو ما يسمى بـ :«قيد الختام أو قيد الفراغ» من ذكر لمعلومات خاصة بالمؤلف والناسخ وتاريخ النسخ، وهو عمل حسن؛ لكن من المعروف بأن هذا قد يوقع في كثير من الوهم والتحريف في نسبة الكتب لغير مؤلفيها أحياناً. لذلك يجب أن يقوم بهذه العملية متخصصون؛ وذلك لضبطها بشكل جيد. وتعتمد المكتبات وخزائن المخطوطات عادة على منهجية خاصة في توثيق المعلومات بالنسبة للمعلومات المرتبطة بالمخطوطات مجهولة المؤلف فيستعملون بعض العبارات والرموز منها: «مجهول» أو «مخطوط مجهول المؤلف» أو «مخطوط لمؤلّف مجهول» أو «مُؤلّف غير معروف»... كما أنهم قد يرجحون نسبتها لمؤلف معين فيوردون عبارة: «ربما هو...» ثم يذكرون من ثم ترجيح نسبة الكتاب إليه من المؤلفين.

يمكننا الإشارة إلى أنه من الدراسات المهمّة التي اهتمت بشكل خاص بالمخطوطات مجهولة المؤلف نجد الدراسة القيمة التي قدمها الباحث مليحان بن مرهج الفايد العوني السلفي بعنوان: «التعرف على مخطوط مجهول» (العوني السلفي، ٢٠١٥)، وهي عبارة عن خلاصة تجربته وخبرته في مجال فهرسة المخطوطات، وقد أورد في بداية مقدمة هذه الدراسة آراء بعض كبار العلماء العرب بخصوص مسألة فهرسة المخطوطات مجهولة المؤلف (العوني السلفي، ٢٠١٥)، وهي:

قال يوسف زيدان: (هناك ما لا حصر له من صعوبات قد تعترض عملية توثيق المؤلف. بل إن العديد من المخطوطات، لمؤلفات غير مشهورة، لا تذكر -أصلا- اسم المؤلّف، وبالتالي، يتعين على المفهرس، حتى يوثق المؤلّف المجهول، أن يعرفه! وهو أمر ليس بالهين، في كثير من الحالات) (زيدان، ١٩٩٩، ص. ١٢٩).
وقال أيمن فؤاد سيد: (ويتطلب ذلك مرانا وخبرة كبيرة من المفهرس) (سيد، ١٩٩٧، ص ص. ٥٣٥-٥٣٦).
وقال صلاح الدين المنجد: (وإذا اكتسب المفهرس مرانا وتجربة فإنه على الأغلب لا يصعب عليه معرفة الكتاب) (المنجد، ١٩٧٦، ص. ٧٤).
ويُحدد الباحث ما يجب على المُفهرس القيام به أثناء فهرسة المخطوطات وكشف المجهول منها وسعيه في البحث عن مؤلفها، يُحصر ذلك في عدة مسالك منها: المسلك الذي يُعتمد فيه على قراءة المخطوط. وأيضاً من المسالك التي يتبعها المفهرس في كشف المجهول من التراث المخطوط، فيمكن الاستفادة من الحاسب الآلي في عملية البحث في المجاهيل (العوني السلفي، ٢٠١٥، ص. ٦ وما بعدها و ص. ١٩).

كيفية تعامل بعض المكتبات وخزائن المخطوطات بالجنوب الجزائري بالمخطوطات مجهولة المؤلف

أشرنا من قبل إلى اختلاف المكتبات وخزائن المخطوطات في كيفية تعاملها في فهرسة المخطوطات مجهولة المؤلف وسنأخذ الآن عينة واحدة من المكتبات بالجنوب الجزائري وبالضبط بولاية غرداية (وادي ميزاب) هي: الخزانة العامة لمؤسسة الشيخ عمي سعيد (مؤسسة عمي سعيد، ٢٠٠٢، ص. هـ المقدمة) بغرداية لنتوقف عند كيفية تعاملها معه.
بعد اطلاعنا على فهرس المخطوطات الموجودة بهذه الخزانة لاحظنا عدداً مُعتبراً من المخطوطات مجهولة المؤلف، وبعد قيامنا ببحث بسيط في الشابكة وجدنا أن معظمها غير مُحققة ولم تَرَ النُّور بعد، وربما عزف عنها الباحثون والمُحققون بسبب عدم معرفة مؤلفها وهي ذات موضوعات مهمة وربما كانت بعضها نادرة، وقد اعتَمَدت المكتبة منهجية خاصة في ذكرها فنجد في البداية عنوان المخطوط ثم رقمه في المكتبة، وأسفل منهما بين قوسين عبارة (مجهول) أي أنه مجهول المؤلف؛ ثم بقية المعلومات الأخرى المتعلقة بالوصف الكوديكولوجي للمخطوط، وهل أُخذ العنوان من ورقة الغلاف أم من ثنايا المخطوط، وأحياناً نجد بعض الترجيحات من طرف المُفهرسين في نسبة المخطوط، وسنورد الآن أمثلة على ذلك من القسم الأول (العلوم النثرية-علوم اللغة العربية):

في الصفحة ٧٧ من الفهرس ذكر المخطوط التالي:
- الأسد الضِّغز الصائِب مفاصِلَ معاني اللُّغز
رقمه في الخزانة: ٢١١ م١١
(مجهول)
العنوان من الديباجة في ٤١ظ، وهي قصيدة في ألقاب العروض.

في الصفحة ٧٨ من الفهرس ذكر المخطوط التالي:
- الأفعال (كتاب)
رقمه في الخزانة: ٢١٣ ك٢٨،
(مجهول)
مبتور الأول والآخر والوسط
أُخذ العنوان من آخر السفر ١ في ٦٣ظ.
عليه بعض التعليقات ومقابل بنسخة أخرى.

كُتب في آخر الفهرسة له: «لقد صَنَّفَ العديد من المُؤلفين في الأفعال وتصاريفه، ولعلّ هذا لأبي عثمان بن سعيد السرقسطي (ت٤٤٤هـ/١٠٥٢م). (هدية العارفين: ٥/٣٩٠)».

في الصفحة ٨١ من الفهرس ذكر المخطوط التالي:
- حدود الأجرومية في قواعد العربية، رقمه في الخزانة: ٢٢٣ دغ ٥٧
(مجهول)
الأول في مج به ٥ق، يتلوه ذكر اللامات للخليل بن أحمد.

في الصفحة ٨١ من الفهرس ذكر المخطوط التالي:
- حدود الأجرومية في قواعد العربية.
رقمه في الخزانة: ٢٢٣ دغ ٥٧
(مجهول)
الأول في مج به ٥ق، يتلوه ذكر اللامات للخليل بن أحمد.

في الصفحة ٨٩ من الفهرس ذكر المخطوط التالي:
- شرح شواهد قطر الندى وبل الصدى
رقمه في الخزانة: ٢٤٥ د.غ ١٠٦
(مجهول) (حي سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م)، به ٥٨ ق، وهو مبتور الأول والآخر والوسط بعد: ق١، ٢، ٢٥.

«ليس بكتاب فتح الأقفال لبحرق الحضرمي ... الورق أخضر اللّون... ليس كتاب «شرح شواهد شرح قطر النّدى وبل الصّدى» لأن مؤلف هذا هو صادق بن علي بن الحسين الأعوجي (توفي في حدود ١١٥٠هـ)» وقد حققه: د. عبد الله بن محمود فجال. وطبعاً ليس أيضاً كتاب: «شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى» الذي هو لابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، وليس بكتاب: «نهج التُّقى بتحقيق وإعراب شواهد قطر النّدى» للشيخ محمد جعفر الشيخ ابراهيم الكرباسي النجفي، لأن هذا مُعاصر توفي فقط سنة ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

فنلاحظ الجهد الذي قام به المفهرسون هنا بمراجعة جميع الكتب التي تشبه في موضوعها هذا المخطوط ومقابلته بها، والتأكد أنها ليست هو. وسنورد الآن أيضاً أمثلة على ذلك من القسم الثاني (المنظومات والقصائد والأراجيز ـ المديح) فنجد بعض القصائد الشعرية التي فهرست على أساس أنها مجهولة المؤلف:

في الصفحة ٢٦٨ من الفهرس ذكرت القصيدة التالية:
قصيدة اصطفاه المولى
رقمها في الخزانة: ٦٥٧ م٤٥
(مجهول)

ثم الصلاة على من اصطفاه المولى بخصائل العلى وختم المرسلين...
...ودين محمد أفضل من كل دين ليس الدين إلا دين العربي الأمين

(بهون بن إبراهيم فخار/ قبل ١٣٣٢هـ)
١ص ٩ أبيات ...لعلها مبتورة الآخر
الثالثة عشر في مج قصائد به ٣٣ق...

وبعدها مباشرة نجد نسخة أخرى لنفس القصيدة في الصفحة ٢٦٩:
قصيدة اصطفاه المولى
رقمها في الخزانة: ٦٥٨ ص١٢
(مجهول)

ثم الصلاة على من اصطفاه المولى
عظموا نبيكم يا معشر المسلمين
تاريخ النسخ (أوائل ق ١٤ هـ)
الأولى في مج من قصيدتين... أبياتها ٧٠ بيتاً

وهناك قصيدة أخرى ذكر مؤلفها اسمه فقط في آخرها، وهذا غير كاف لتحديد المعلومات الكاملة الخاصة بشخصيته وهو ما أشرنا إليه سابقاً:
- قصيدة بائية في المديح
رقمها في الخزانة: ٦٦٥ ص١٢
عبد الرحيم (؟)
يا ربِّ صلِّ على النبيء المُجتبى ما غرَّدت في الأيك سَاجعة الرُّبى...
...صلّى وسلّم ذو الجَلال عليكم عبد الرحيم توَسُّلاً وتقرُّباً
(نسخ حديثاً)
٥ق ...الثانية والأخيرة في المج ...اسم الناظم مستخرج من آخر بيت، عدد أبياتها ١٧ بيتاً... (مؤسسة عمي سعيد، ٢٠٠٢، ص. ٢٧١).

الخاتمة

بعد هذه الرحلة القصيرة في بحثنا حول كيفية التعامل مع المخطوطات مجهولة المؤلف، يمكننا القول بأننا لاحظنا وجود عدد كبير من المخطوطات مجهولة المؤلف؛ والتي لم تجد -للأسف الشديد- طريقها للتحقيق والإخراج والتعريف بما فيها من معارف ومعلومات؛ وهي في بعض الأحيان مدونات شعرية يمكن أن يجد طلاب العلم فيها ضالتهم بعد تحقيقها وإخراجها، إضافة إلى أن بعض تلك المخطوطات لا تحتاج سوى خطوات بسيطة من طرف المُحققين لمعرفة مؤلفها من خلال تتبع بعض المناهج والطرق التي تُمكن من التوصل إلى معرفة مؤلفها.

المراجع

- ابن عربي، محيي الدين. (٢٠٠٠). *ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق* (ط. ١). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر. (د.ت.). *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب* (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج. ١، د.ط.). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- الجيلاني، عبد اللطيف. (٢٢ ٢٠٢، ١٦ سبتمبر). *ظاهرة المخطوطات المجهولة في التراث الإسلامي وأساليب الكشف عنها* [مقال]. موقع الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية. استرجع بتاريخ ١٦ سبتمبر ٢٠٢٢، الساعة ١١:٢٥، من: الرابطة المحمدية للعلماء، صفحة ويب: https://www.arrabita.ma/blog.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم. (١٩٨٤). *الروض المعطار في خبر الأقطار* (تحقيق: إحسان عباس، ط ٢). بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.
- الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان. (٢٠٠٨). المستملح من *كتاب التكملة* (تحقيق: بشار عواد معروف، ط١). تونس: دار الغرب الإسلامي.
- السلفي، مليحان بن مرهج الفايد العوني. (٢٠١٥). *التعرف على مخطوط مجهول* [بحث منشور بصيغة Word] على موقع شبكة الألوكة.
- الشافعي، صبري عبد الخالق. (٢٢ ٢٠٢، ١٦ سبتمبر). *العناية بالمخطوطات مجهولة المؤلف والعنوان وأثر ذلك في خدمة التراث* [مقال]. استرجع بتاريخ ١٦ سبتمبر ٢٠٢٢، الساعة ٢١:٥٣، صفحة ويب: https://www.ihsanetwork.org.
- القيسي، نوري حمودي، والعاني، سامي مكي. (١٩٧٥). *منهج تحقيق النصوص ونشرها* (د.ط.). بغداد، العراق: مطبعة المعارف.
- المنجد، صلاح الدين. (١٩٧٦). *قواعد فهرسة المخطوطات العربية*. بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد.
- بن شريفة، محمد. (١٩٩٧). *ظاهرة المخطوطات مجهولة المؤلف: المخطوطات التاريخية والجغرافية مثالًا* [مقال]. في أعمال المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (ديسمبر ١٩٩٣). لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.
- زيدان، يوسف. (١٩٩٨). *مشكلات توثيق العنوان والمؤلف* [محاضرة]. في فن فهرسة المخطوطات: مدخل وقضايا (أعمال ندوة قضايا المخطوطات ٢، يومي ٢٧–٢٨ سبتمبر ١٩٩٨).
- سرقمة، عاشور. (٢٠١٧). *الشعر الشعبي الديني في منطقة توات: مع قراءة في شعر الشيخ سيدي محمد بن المبروك البودوي التواتي* (ط١). الجلفة، الجزائر: دار الضحى للنشر والإشهار.
- سيد، أيمن فؤاد. (١٩٩٧). *الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات* (ط١). القاهرة، مصر: الدار المصرية اللبنانية.
- عبد التواب، رمضان. (١٩٨٥). *مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين* (ط١). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- عبد السلام، موريدة، وسرقمة، عاشور. (٢٠٠٠- ٢٠٠١). *التفسير الإشاري للقرآن الكريم: مع مقاربة لمواقف الأمير عبد القادر الجزائري* [مذكرة ليسانس في اللغة والأدب العربي، غير منشورة]. جامعة تلمسان، الجزائر. إشراف: أ. بورديم عبد الحفيظ.
- مؤسسة الشيخ عمي سعيد، قسم التراث والمكتبة. (٢٠٠٢، أكتوبر). *فهرس مخطوطات الخزانة العامة*. غرداية، الجزائر. (شعبان ١٤٢٣هـ/ أكتوبر ٢٠٠٢م).
- هارون، عبد السلام محمد. (١٩٩٨). *تحقيق النصوص ونشرها* (ط ٧). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي (www. Alukah.net).

عياش، خالد، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 82-76، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/0kdkmg68

تمثُّلات علاقة الآباء بالأبناء في الأمثال الشعبية الفلسطينية: دراسة سوسيولوجية

خالد عياش

الملخص

اهتمت الدراسة بالأمثال الشعبية الفلسطينية بوصفها عنصرًا مهمًا من عناصر الفولكلور الفلسطيني، فهي مادة لا غنى عنها للكشف عن حياة الفلسطينيين وعاداتهم وتقاليدهم ونظرتهم إلى البيئة المحيطة بهم. وقد تناولت علاقة الآباء الفلسطينيين بأبنائهم كما بدت في تلك الأمثال من منظور سوسيولوجي، وبيّنت دورهم الإيجابي المتمثل في توجيه أبنائهم وإرشادهم وتربيتهم تربية صالحة، ولم تهمل دورهم السلبي الذي يقود إلى تشرد أبنائهم وتفكك أسرهم وتشرذمها. واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، فكانت تعمد إلى المثل الشعبي المتصل بعلاقة الأب بابنه، ثم تحلله بغية الكشف عن دلالاته الاجتماعية والثقافية. وخلصت إلى مجموعة من النتائج، يأتي في طليعتها أن الأمثال الشعبية ركزت على تشابه الوالد مع ولده في الشكل والسلوك والأخلاق، وحثت على العدل بين الأبناء، وحذرت من عقوق الآباء وطالبت باحترامهم، إلا أنها سخرت منهم في بعض الأحيان.

الكلمات المفتاحية: الآباء، الأبناء، الأمثال الشعبية، التربية، تمثلات، سوسيولوجيا.

Representations of the Parent–Child Relationship in Palestinian Folk Proverbs: A Sociological Study

Khaled Ayyash

ABSTRACT

The study focused on Palestinian folk proverbs as an essential component of Palestinian folklore, as they constitute an indispensable source for understanding the lives of Palestinians, their customs and traditions, and their perceptions of the surrounding environment. It examined the relationship between Palestinian fathers and their children as reflected in these proverbs from a sociological perspective. The study highlighted the positive role of fathers in guiding, advising, and properly raising their children, while also addressing their negative role, which may lead to the displacement of their children and the disintegration and fragmentation of their families. The study adopted a descriptive-analytical approach, whereby it selected proverbs related to the father–son relationship and analyzed them in order to uncover their social and cultural connotations. It concluded with several findings, foremost among them that folk proverbs emphasize the resemblance between fathers and their children in appearance, behavior, and morals; they advocate fairness among children; and they warn against disobedience toward parents and call for respecting them—though at times they also portray them in a satirical manner.

Keywords: Fathers, children, folk proverbs, upbringing, representations, sociology.

الدكتور خالد فريد عياش، جامعة النجاح الوطنية، للمراسلة: khaledayyash100@gmail.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).

Dr. Khaled Fareed Ayyash, Al-Najah National University. For correspondence: khaledayyash100@gmail.com.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

تجسد الأمثال الشعبية نظرة الإنسان إلى الحياة من حوله، وتختزل في طياتها أحلامه وآماله وطموحاته. وهي بلا ريب مادة زاخرة بالحكم والعبر والمواعظ والقيم الإنسانية التي سعى الأجداد إلى نقلها إلى أحفادهم، ليتداولوها ويأخذوا بما جاء فيها. وما يميزها أنها تختصر التجارب المثيرة والقصص الطويلة في عبارات موجزة مكثفة بليغة تؤدي الغرض المرجو منها، وتؤثر في سامعيها تأثيرًا ملحوظًا. ولا يخفى على أحد أن كثيرًا من الناس يتكئون على الأمثال الشعبية في أحاديثهم اليومية، فإذا تطرقوا إلى موضوع ما وكان قريبًا من مثل متداول، سارعوا إلى قوله، وقد يعود ذلك إلى قبول ذائقة العامة للأمثال الشعبية وتأثرهم بها وتعاطفهم معها، فهي تقود إلى إمتاعهم وتؤدي إلى إقناعهم. وكانت الأمثال الشعبية رفيقًا صادقًا للإنسان في محطات حياته المختلفة، فهناك أمثال تحدثت عن طفولته، وهناك أمثال تناولت شبابه، وأخرى ركزت على كهولته. ولم يُبقِ المثل شيئًا يتعلق بالإنسان إلا قد تحدث عنه.

ومما لا شك فيه أن الشعب الفلسطيني له تراث شعبي قديم قدم أرضه التي خطت أقدامه عليها. وكانت الأمثال الشعبية جزءًا أساسيًا من ذلك التراث، والمتمعن فيها يرى أنها أعطت الأب اهتمامًا لافتًا، فهناك أمثال بدا فيها ناصحًا أمينًا يسعى جاهدًا إلى الحفاظ على عائلته وتوجيه أبنائه لما فيه خير، وأخرى بدا فيها دوره سلبيًا، فكان معول هدم لأسرته. وتكمن أهمية الدراسة في سعيها إلى إبراز التصورات المحفوظة في الذاكرة الجمعية الفلسطينية حول علاقة الآباء بالأبناء، التي عبر عنها الفلسطينيون من خلال أمثالهم الشعبية. وكذلك تهدف إلى تقديم إسهام علمي في مجال الدراسات السوسيولوجية المرتبطة بالأدب الشعبي الفلسطيني الذي يعكس هوية المجتمع الفلسطيني وقيمه. وهي تحاول جاهدة أن تجيب عن الأسئلة الآتية:

١- ما أهمية الأمثال الشعبية الفلسطينية؟
٢- ما أبرز الأمثال الشعبية التي تناولت علاقة الآباء الفلسطينيين بأبنائهم؟
٣- كيف بدت علاقة الآباء الفلسطينيين بأبنائهم في الأمثال الشعبية؟
٤- ما ملامح صورة الأب في الأمثال الشعبية الفلسطينية؟ وهل يغلب عليها الطابع الإيجابي أم السلبي؟

وقد اتكأت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، فهو الأنسب لتحقيق أهدافها، فكانت تعمد إلى المثل الشعبي الفلسطيني ذي الصلة بعلاقة الأب بابنه، وتنطلق في تحليله بغية الكشف عن دلالاته الاجتماعية والثقافية. والحق أنه لا توجد دراسة سابقة تناولت علاقة الأب بابنه في الأمثال الشعبية الفلسطينية تناولًا وافيًا، وما يوجد هو نتف متفرقة عنه في بعض الدراسات، ومنها دراسة بعنوان: «الأمثال في البيئة الشعبية الفلسطينية»، وهي مشتركة بين إبراهيم يحيى وسعاد بسناسي، ولم تحتوِ على إشارات كثيرة لحضور الأب وعلاقته بأسرته ومكانته في المجتمع. ودراسة أخرى بعنوان: «الدلالات النفسية والتربوية لصورة الطفل في الأمثال الثقافية العربية: دراسة تحليلية»، لحمزة عبد الكريم الربابعة، وقد كثر الإحصاء في هذه الدراسة، ثم إنها كانت مخصصة للطفل وركزت على علاقته بوالدته، ولم تحط بالأمثال التي تناولت علاقته بوالده إحاطة شاملة، وعدا عن ذلك لم يكن عنصر التحديد واضحًا فيها، فهي تناولت الأمثال العربية بعامة، على عكس هذه الدراسة التي عالجت الأمثال الشعبية في فلسطين. وانطلقت الدراسة بمقدمة تبعها حديث عن المفاهيم المتصلة بها، ثم عرضت صورة الأب وعلاقته بأولاده، وانتهت بخاتمة لخصت أبرز النتائج التي توصلت إليها.

أولًا: مفاهيم الدراسة

١- **التمثلات:** يجيء في اللغة أن التمثل يعني التصور، يقول ابن منظور: «مثّل له الشيء: صوّره حتى كأنه ينظر إليه، وامتثله هو: تصوّره أو تصوّر مثاله... ومثّلت له كذا تمثيلًا إذا صوّرت له مثاله بكتابة وغيرها» (ابن منظور، د.ت، ص ص. ١١-٦١٣). أما في الاصطلاح فإنه يعني «حصول صورة الشيء في الذهن، أو إدراك المضمون لكل فعل ذهني أو تصور المثال الذي ينوب عن الشيء، ويقوم مقامه» (صليبا، ١٩٩٤، ص ص. ١-٣٤٢). وهو أيضًا «تفسير واقعة جديدة أو تجربة مستحدثة عن طريق إقامة الصلات بينها وبين المعرفة الموجودة سلفًا، فالتمثل هو استيعاب اللغة والتمكين منها في حقل القراءة والفهم والتعبير» (رزوق، ١٩٧٧، ص. ٨٩). وقد ذهب عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم إلى أن التمثلات «هي ذلك التدفق الدائم من صور الحياة تدفع بعضها بعضًا، كتدافع مجرى نهر دائم السيلان، ولا تبقى على حالها» (محمد، ٢٠١٠، ص. ١١٧). وقدم بياجي التمثل وفق منظور معرفي، فرأى أنه «الصورة الذهنية التي يستحضرها الفرد للموضوعات والعلاقات، يترجمها في شكل ملموس تمثل درجة عالية من التصوير (محمد، ٢٠١٠، ص. ١٢١). فالتمثلات هي التصورات التي تترسخ في ذهن الفرد حول موضوع ما، وتحدد مواقفه وردود فعله وتفاعله مع البيئة الاجتماعية.

٢- **السوسيولوجيا:** تعني السوسيولوجيا علم الاجتماع، وهو العلم الذي يهتم بدراسة المجتمع الإنساني أو التفاعلات الاجتماعية أو السلوكيات الاجتماعية أو العلاقات الاجتماعية. ويُعرف أيضًا بأنه «دراسة المجتمع في ظواهره ونظمه وبيئته والعلاقات بين أفراده دراسة علمية وصفية تحليلية، الغرض منها الوصول إلى الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها هذه الظواهر والنظم والقوانين التي تحكمها» (لطفي، ١٩٦٥، ص. ٣٤). وقد تناول تعريف السوسولوجيا أو علم الاجتماع كثير من العلماء المهتمين بهذا المجال، وكان من بينهم وليام أوجبرن الذي يقول: «إنه العلم الذي يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية للإنسان وعلاقاتها بعوامل أربعة، هي الحياة الحضارية والبيئة الطبيعية والوراثة والجماعة» (لطفي، ١٩٦٥، ص. ٣١). وعلى الرغم من التاريخ الطويل للإنسان ومعرفته بالحياة الاجتماعية منذ نشأته إلا أن عمر علم الاجتماع قد لا يتجاوز مئة عام، وهو كما يقول روبرت ميرتون علم جديد جدًا لموضوع قديم جدًا. ويمكن عدّ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م الحدث الأبرز في مسيرة علم الاجتماع، إذ ترجمت تلك الثورة إعلان حقوق الإنسان والمواطن ومبادئ الحرية والإخاء والمساواة (الزيود، ٢٠١١، ص ص. ١٨-١٩).

٣- المثل الشعبي: لا يقتصر المثل الشعبي على فئة دون أخرى، بل هو قول عامي يعرفه الصغير والكبير والمتعلم والجاهل، وتبدو أهميته في سهولة وصوله إلى الناس جميعهم، حتى قيل: «أسير من مثل». وقال الشاعر (ابن عبد ربه، ١٩٨٣):

ما أنتَ إلّا مَثَلٌ سائِرُ يَعرِفُهُ الجاهِلُ وَالخابِرُ

وأولى الباحثون المثل الشعبي اهتمامًا كبيرًا، وأفاضوا في الحديث عنه، وزخرت كتبهم بتعريفات له، ومنهم أحمد أمين الذي يعرّفه على أنه: «نوع من الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن المعنى، ولطف التشبيه، وجودة الكتابة، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تنبع من طبقات الشعب» (أمين، ١٩٥٣، ص. ٦١). ويقول طه حسين: «والأمثال بطبيعتها أدب شعبي مضطرب متطور يصح أن يؤخذ مقياسًا لدرس اللغة كيف تتكون، ومقياسًا للجملة القصيرة كيف تتكون» (حسين، د.ت، ص. ٣٦٩). ويقول محمد رضا الشبيبي: «الأمثال في كل قوم خلاصة تجاربهم ومحصول خبرتهم، وهي أقوال تدل على إصابة المحز، وتطبيق المفصل. هذا من ناحية المعنى أما من ناحية المبنى فإن المثل الشرود يتميز عن غيره من الكلام بالإيجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة. والأمثال ضرب من أحسن ضروب التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال، ومن هاهنا تتميز الأمثال عن الأقاويل الشعرية» (الشبيبي، ١٩٦٢، ص ص. ١- ٣). ويعني المثل الشعبي عند رايلز «القول الجاري على ألسنة الشعب، الذي يتميز بطابع تعليمي، وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة» (إبراهيم، د.ت، ص. ١٤٠). أما نبيلة إبراهيم فترى أن «كل مثل يصلح أن يكون موضوعًا لعمل أدبي كبير، إذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله فيعيش تجربة المثل، ويعبر عنها تعبيرًا تحليليًا دقيقًا» (إبراهيم، د.ت، ص. ١٤٤).

بيد أنه توجد تعريفات أخرى للمثل الشعبي، والأهم أن المثل الشعبي يعكس نضج قائليه وحسن تفكيرهم، فاستخلاص مثل موجز بليغ من تجربة أو قصة واقعية يحتاج إلى صفاء ذهني وملاحظة دقيقة. ثم إن المثل الشعبي هادف، فهو يحوي حكمة أو نصحًا وإرشادًا أو يوجه إلى سلوك معين. وما يميز الأمثال الشعبية أنها تتصف بإجادة التشبيه وإصابة المعنى، وكذلك تزخر بالأساليب البلاغية المختلفة من أمر ونهي وسجع وجناس وطباق ومقابلة وترادف وغيرها.

ثانيًا: صورة الأب وعلاقته بأبنائه في الأمثال الشعبية الفلسطينية

انتشرت ظاهرة جمع الأمثال الشعبية في البلاد العربية، لأنها تعكس عراقة تلك البلاد وأصالتها، وتكشف عن وجودها التليد. وزخرت المكتبات العربية في رفوفها بمؤلفات كثيرة عن الأمثال، من بينها كتاب «الأمثال العامية» لأحمد تيمور، وكتاب «حدائق الأمثال العامية» لفائقة حسين راغب، وكتاب «الأمثال البغدادية» لمحمد رضا الشبيبي. ولما كان الشعب الفلسطيني من أحوج الشعوب إلى الاهتمام بموروثه الأدبي الذي يثبت جذوره في أرضه، فإن كثيرًا من الباحثين الفلسطينيين اعتنوا عناية فائقة بذلك الموروث، وركزوا على الأمثال الشعبية التي تعد من أسرع الأشكال الأدبية الشعبية تعبيرًا عمّا يختلج بداخل الفرد من أفكار ومشاعر يريد نقلها إلى الآخرين، وكان من بين أولئك الباحثين محمد توفيق السهلي الذي ألف كتابًا بعنوان «موسوعة الأمثال الشعبية الفلسطينية»، وأيضًا محمد كمال جبر في كتابه «المثل الشعبي الفلسطيني». إن دراسة الأمثال الشعبية الفلسطينية تعطي انطباعًا عن العقلية الجمعية الفلسطينية، وتجعل المتلقي على مقربة من التفكير الفلسطيني، بل يمكن الذهاب إلى أنها مرآة تعكس حياة الشعب الفلسطيني بأكملها. ولقد خُصص جزء كبير من هذه الأمثال لصورة الأب وعلاقته بأبنائه، وستتناول الدراسة ما يلي:

١- مكانة الأب في الأسرة: أشارت الأمثال الشعبية الفلسطينية إلى مكانة الأب الرفيعة في الأسرة، فمنها ما يؤكد أن الأب عماد الأسرة، يقول المثل الشعبي: «الأب رب» (جبر، د.ت، ص. ٣٧). ولا يكون غياب الأب أمرًا هينًا في الفكر الشعبي الفلسطيني، بل يمثل مصيبة حلّت بالأسرة التي قد يصيبها التفكك ويلحق بها التشرد، ومن الأمثال الشعبية التي أشارت إلى مثل ذلك: «انقطع الخيط وتفتفتت المسبحة» (السهلي، د.ت، ص. ٩١). و«الجوز غايب والحال سايب» (جبر، د.ت، ص. ٤٦). فالأب سيد الأسرة وله سلطة على الأبناء والزوجة، وغيابه يعني افتقار الأسرة إلى التكامل، لذلك دعا له الفلسطيني بالبقاء بجانبها: «الله يخلّيك فوق روسهم».

ولا يعني المال شيئًا للأسرة الفلسطينية إذا لم يضم البيت أبًا ناضجًا يُعتمد عليه، يقول المثل الشعبي: «بيت رجال ولا بيت مال» (جبر، د.ت، ص. ١٤٩). والظاهر أن هذا المثل يعلي من قيمة الرجولة، ويحث الآباء على التحلّي بالشجاعة وتحمل الصعاب في سبيل أن تعيش أسرهم بطمأنينة وسعادة. ولا خلاف في أن وجود الأب يمنح الفتيات شعورًا بالأمان والدعم والحماية، وقد أكد ذلك المثل الشعبي: «يا ما أحلى البنات بوجود الأبّهات» (السهلي، د.ت، ص. ٤٨٩). فالبنت «تشعر بحاجة ماسة إلى الأب، ولكن إلى أب عطوف يتسم بسلوك لائق يكون أهلًا للاحترام حتى يمكنها أن تتخذه قدوة لها... إنها تريد أن يكون أبوها رجلًا بمعنى الكلمة عادلًا قادرًا على إزالة الظلم عنها» (القائمي، ١٩٩٤، ص. ١٩٠).

ويبدو أن الأمثال الشعبية الفلسطينية جمعت بين طياتها الشيء ونقيضه، فهناك أمثال حطت من شأن الأب وأعلت من شأن الأم، ومنها: «إن ماتت إمكو أُقعدوا ع المزابل، وإن مات أبوكو أُقعدوا ع المصاطب» (السهلي، د.ت، ص. ٨٦)، وقيل: «ريحة الأم بتلم، وريحة الأب بتخم» أو «شرش الإم بلم، وشرش الأب بخم» (جبر، د.ت، ص. ٢٢٦)، وقيل: «ما حدا بقول: كيف حال أبوك؟ الكل بقول: كيف حال إمك؟» (السهلي، د.ت، ص. ٤٠٥). وفي هذه الأمثال مبالغة، فلا نزاع حول مكانة الأم في الأسرة، ولكن الحق أن الأم والأب يكملان بعضهما بعضًا، والأسرة الناجحة تعتمد عليهما معًا. ولعل هذه الأمثال الشعبية التي انحازت إلى الأم كانت بتأثير من الموروث القديم، فمنذ بدء الحياة كانت الأم محور الكون لأنها مسؤولة عن الولادة والتكاثر، وكانت هناك أسبقية للمجتمع الأمومي على المجتمع الأبوي. وإذا كان الأب الفلسطيني لديه أولاد وأراد أن يتزوج، فإن النسوة يسارعن إلى التحذير من الارتباط به، كما ينجلي في المثل الشعبي الآتي: «سافري لعكا وازْواد، ولا توخذي رجال عنده أولاد» (السهلي، د.ت، ص. ٢٣١)، فكأن المجتمع ينظر إلى الرجل المتزوج ويرغب في أن يتزوج ثانية نظرة سلبية، فيشعره بالاحتقار والنبذ ممن حوله. أما المثل الشعبي: «قال له: يلعن أبوك إللي مات من الجوع، قال: هو لاقي شي وقصّر؟» (السهلي، د.ت، ص. ٣٣٢) فيظهر أن الأب الفقير مذموم في المجتمع، فيعيره الناس بفقره، وينظرون إليه بعين من السخرية والاستهزاء،

ولو كان ذا مال وفير لأصبح في نظرهم يستحق الاحترام والتقدير. وقلل المثل الشعبي من مكانة الأب الذي يجبر بناته على أن يتزوجن بأشخاص لا يرغبن فيهم، ومما جاء في ذلك: «الله يتقلد أبوي اللي تقلدني» (السهلي، د.ت، ص. ٤٢)، فهذا المثل تستدعيه المرأة عندما يظلمها زوجها الذي لم يكن من اختيارها، وهو يظهر أن الإناث يكنّ في موقع الرضوخ وتنفيذ الأوامر، مما يخلق نوعًا من عدم التوازن وعدم الانسجام والإحساس باللامساواة داخل الأسر (بركات، ٢٠٠٠، ص.ص ٢٤٥- ٢٤٦). ويوجد مثل آخر فيه ذم للأب الذي يتخلى عن ابنته، يقول: «أبوي باعني وجوزي اشتراني» (جبر، د.ت، ص. ٢٠)، وهذا المثل يمدح الزوج الذي ينقذ الفتاة من المعاناة التي تعيشها في كنف أبيها. وقد يلجأ والد الفتاة عند تحديد مهر ابنته إلى المثل الشعبي: «زي الناس، لا باس» (السهلي، د.ت، ص. ٢٢٧)، أي إنه يرغب في أن يكون مهر ابنته كما هي مهور بنات قريتها أو مدينتها أو المنطقة السكنية التي تعيش فيها. وفي هذا المثل إشارة إلى أن الآباء متأثرون بالعادات التي يسير عليها مجتمعهم، وفئة قليلة منهم تخرج عنها.

٢- دور الأب في تربية أبنائه: ثمة تصور قار في أذهان الفلسطينيين أن الأطفال هم الغذاء الروحي لآبائهم، «فالأبوة تهب الإنسان شعورًا بالقوة بحيث يرى في نفسه الكفاءة الكاملة لنيل احترام الآخرين» (القائمي، ١٩٩٤، ص. ٢٦). فالطفل يمثل نعمة للأسرة التي تفرح فرحًا جمًّا عندما تُبشّر بمولود يحفظ ذكر والديه، ويدعو لهما في الحياة وبعد الممات ويدل المثل الشعبي على ذلك: «اللي خلف ما مات». والطفل سند لأبيه في الحياة، كما يقول المثل: «ما يسند لحجار إلا صَرَارْهَا، وما يسند الرجال إلا صْغَارها». ويفصح القرآن عن أهمية الأولاد في حياة الأسر، قال تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» (الكهف، آية ٤٦).

والتربية حق من حقوق الطفل الفلسطيني لا يمكن إنكاره، وحري بالأب أن يهتم بأطفاله، فلا يقتصر دوره على الجانب الاقتصادي وتوفير الحاجات الحياتية لهم وحسب، «بل إنه مسؤول عن تهذيب أخلاقهم وتوجيههم وبنائهم ذلك البناء المعنوي الصلب الذي يمكنهم من مقاومة الصعوبات والشدائد وأن يعبد لهم الطريق ويقدم لهم ما ورثه من الثقافة، ويوجد عندهم العادات والصفات الحسنة ويهتم ببنائهم الجسدي والنفسي، ويجتهد في تأديبهم، ويمنع انحرافهم» (القائمي، ١٩٩٤، ص. ٦٣).

وتكون التربية الصحيحة وفق تعاليم الدين الإسلامي، فقد أوصى الإسلام الأسر أن تهتم بأبنائها ففي الحديث الشريف أن النبي قال: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» (مسلم، ١٩٩٨، ص. ٧٦٣)، فالرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم. وكان الرسول رحيمًا بالأبناء، فعن أنس بن مالك قال: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله» (مسلم، ١٩٩٨، ص. ٩٤٨).

وتظهر الأمثال الشعبية الفلسطينية مقدار الجهد الذي يبذله الآباء في تربية أبنائهم، فلم يدخروا طاقة في توجيههم إلى السلوك القويم، وكانوا يخافون أن يصيبهم الأذى، يقول المثل الشعبي: «ربيتك يا ولدي كُلْ شِبْرٍ بْنِذِر» (جبر، د.ت، ص. ٢٠٤)، ويقول: «فُؤادي وَلا أولادي» (السهلي، د.ت، ص. ٣١٩). حتى إن من الآباء من يخسرون صحتهم وتحل بهم الأمراض جراء اعتنائهم الزائد بأبنائهم، ففي المثل الشعبي الآتي تأكيد على ذلك: « إلمَحروس مَقروص» (السهلي، د.ت، ص. ٤٢٨). وقد ضُرب هذا المثل لذم الإفراط في الحرص على الأبناء. وهناك مثل شعبي يشير إلى أن الآباء يؤثرون أبناءهم على أنفسهم، فلا يشبعون حتى يشبع أطفالهم، يقول: «ما بشبع طير وراه فراخ» (جبر، د.ت، ص. ٣٣٤). فالأبوة مسيرة ممتعة، وصعبة، ومنعشة، ومرهقة، والتحدي عظيم في أن تأخذ بيد كائن حي جديد لترشده، وتلقنه كل ما يحتاجه ليحظى بحياة سعيدة وناجحة (دورانت، ٢٠٠٧، ص. ١).

ويتناول المثل الشعبي الفلسطيني ظاهرة الضرب في تربية الأبناء، إذ يقول: «اقتل ابنك واحسن أدبه، ما بموت ولا بقصر أجله» (السهلي، د.ت، ص. ٣٤)، فيعتقد بعض الآباء أن ضرب أولادهم يؤدبهم، ولكن العنف قد لا يكون الطريقة المثلى في تربية الأبناء، لأنه يمكن أن يولد لهم العقد النفسية التي تقود إلى إضعاف شخصياتهم عندما يكبرون في السن، فيميلون إلى الانطواء أو الخوف أو العناد أو العيش في حالة يُفقد فيها الأمن والاطمئنان، وقد تنتابهم نزعات عدوانية.

وتختلف تربية الذكور والإناث من مرحلة إلى مرحلة، فعندما يكبر الابن يحرص الأب على معاملته معاملة تختلف عن تلك المعاملة التي كان يعامله إياها وهو طفل صغير، وفي ذلك يقول المثل الشعبي: «إن طلعت لحية ابنك، خاويه» (جبر، د.ت، ص. ١٢٥). فالمثل السابق يؤكد أنه يستحسن في مرحلة البلوغ استخدام أسلوب النصح، إذ لا يجدي فيها القمع والتعنيف، وقد جاء في وصايا الإمام الصادق للآباء: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدّب سبعًا، وألزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلا فإنه لا خير فيه» (الطبرسي، د.ت، ص ص. ١- ٤٧٧). ثم إن الآباء مسؤولون عن نتائج أفعال أبنائهم التي تكون انعكاسًا لتربيتهم، فإذا أخطأ الابن فإن الأب يتحمل مسؤولية خطئه، يقول المثل الشعبي: «جحا أولى بلحم ثوره» (دانا، ٢٠١٤، ص. ١١٩). وهناك آباء يهملون أولادهم، وقد أشار المثل الشعبي إلى ذلك، يقول: «الأب عاشق والأم حيرانه، شو بصير بلولاد» (جبر، د.ت، صفحة ٣٧). وفيه دعوة للآباء والأمهات إلى الاهتمام بالأولاد ورعايتهم رعاية جيدة، وعدم الانشغال عنهم بالأهواء والنزوات غير المحببة.

٣- احترام الآباء وطاعتهم: ركز المثل الشعبي الفلسطيني على بر الأب وطاعته، إذ يقول: «رضا الأب من رضا الرب» (السهلي، د.ت، ص.٢١٢). ولكن إرضاء الأب كما بدا في هذا المثل الشعبي لا يكون في الشرك بالله، بل فيما هو خير وصلاح للأمة، وقد أراد الله تعالى ذلك في قوله: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (العنكبوت، آية ٨).

ويحضر مثل شعبي يدعو إلى ضرورة احترام الأب، إذ يقول: «احترم أبوك ولو كان صعلوك» (السهلي، د.ت، صفحة ١٩)، ولعل كلمة صعلوك هاهنا تعني الفقير أو قليل الشأن بين أفراد المجتمع. وإذا كان الأب كذلك إلا أن احترامه واجب على الأبناء، فذلك يعد من العادات والتقاليد الراسخة في الموروث الشعبي الفلسطيني. والماثل في ذهن الإنسان الفلسطيني أن الاعتناء بالآباء يكون في السراء والضراء معًا، فمن واجب الأبناء أن يوفروا لهم الراحة، يقول المثل الشعبي: «حاملينه على كفوف الراحة» (السهلي، د.ت، ص. ١٦٤).

٤- العدل بين الأبناء: لا خلاف في أن واجب الوالد أن يساوي بين أولاده، فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولا يُشعر أحدًا منهم بالدونية والاحتقار والنبذ، ومن يفعل ذلك فمصيره إلى الهلاك، كما بدا في المثل الشعبي: «مين عَز وَلَد عن وَلَد؛ هِلِك للأبَد» (السهلي، د.ت، ص. ٤٥٤). وهذا المثل لا يختلف من حيث المعنى عما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم» (مسلم، ١٩٩٨، ص. ٦٦٣).

ويؤدي التمييز بين الأبناء في الأسرة الواحدة إلى نشوب صراع محتدم مع والدهم، الأمر الذي ينعكس سلبًا على مشاعرهم، فالحياة الأسرية غير المتوازنة في المعاملة تجعل الفرد عرضة للإصابة بالأمراض النفسية. والأسرة التي يسود فيها التعامل القائم على العدل بين الآباء والأبناء، تكون أسرة سعيدة وتغدو العلاقات فيها مبنية على «الصراحة والود بشكل يتيح الفرصة أمام كل فرد من أفرادها أن يعبر عما يريد بحرية» (فهمي، ١٩٥٥، ص. ١٥٠). وقد يكون الأب الذي يميز بين أبنائه قد تعرض في صغره للتهميش من والديه، «فهناك فئة من الآباء تعيد مع أطفالهم نوع المعاملة التي كانوا يعاملون بها أثناء طفولتهم» (فهمي، ١٩٥٥، ص. ١٥٦).

٥- التشاؤم بالبنات: يشعر كثير من الآباء بالأسى لمجرد أن يبشروا بقدوم الأنثى، فيتشاءمون بذلك، وهذا ما أشار إليه القرآن، يقول تعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» (النحل، آية ٥٨). وتختزن الذاكرة الجمعية الفلسطينية تصورًا يبدو فيه تفضيل الذكور على الإناث، فيقول الفلسطينيون في مثلهم الشعبي: «ألف ولد مجنون، ولا بنت خاتون» (جبر، د.ت، ص. ٧٥).
وساد اعتقاد لديهم أن خطأ البنت كارثي، وخطأ الولد ممكن أن يُغتفر، يقول المثل الشعبي: «عليك بالأولاد ما أقل همهم، لو داروا مشلحين ما استحت أمهم» (السهلي، د.ت، ص. ٢٩٣)، فيستشف من هذا المثل أن الأولاد في نظر آبائهم لا يعيبهم شيء على عكس البنات اللواتي قد يجلبن العار لهم. ويبدو التقليل من شأن الإناث حتى عندما يكبرن بالعمر ويتزوجن وينجبن أولادًا، فابن الابن مفضل على ابن البنت كما يظهر في المثل الشعبي: «ابن ابنك إلك، ابن بنتك الو» (جبر، د.ت، ص. ١٧).
فثمة تحيز واضح للذكر، ونظرة دونية للأنثى كشفت عنها الأمثال الشعبية. وتُكثر الأسر الفلسطينية التي لم تنجب أولادًا من الذهاب إلى الأطباء لعلهم يساعدونها في إنجاب الذكور، ومن النسوة من يتعرضن للطلاق بسبب عدم إنجابهن للذكور، فإنجاب الذكور يسهم في منح الأم قيمة اجتماعية ويرفع من مكانتها داخل العائلة. والتصور الفلسطيني الذي يقلل من شأن البنت له جذور قديمة، فقد تعددت المرويات التي تحدثت عن بُغض البنات وكراهية ولادتهن، يقول الجاحظ (١٩٩٨، ص ص. ١/ ١٨٦): «هجر أبو حمزة الضبّي خيمة امرأته، وكان يقيل ويبيت عند جيران له، حين ولدت امرأته بنتًا، فمرّ يومًا بخبائها وإذا هي ترقّصُها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا»

٦- التشابه بين الابن والأب: ركزت الأمثال الشعبية على التشابه بين الوالد وولده في الشكل والسلوك والأخلاق، فقيل: «ابنِ النمرْ بِطْلَع مرقَّط» (السهلي، د.ت، ص. ١٢)، وقيل: «فرخ البط عوّام»، وقيل: «إللي أبوك عليه أنت عليه» (السهلي، د.ت، ص. ٤٥)، وقيل: «بوكل فول وبرجع للأصول» (السهلي، د.ت، ص. ١٣٧)، وقيل: «مين طلع لأهله ما تعدَّى» (السهلي، د.ت، ص. ٤٥٤). وإشارة الأمثال السابقة إلى التشابه بينهما ليست غريبة، «فالوالدان ينقلان العديد من صفاتهما إلى ولدهما عن طريق الدم أو الوراثة والمحيط كالشكل والحجم وتركيب العظام والذكاء وبعض الصفات الطبيعية الأخرى. ويمكن وصف الطفل بأنه خليط من صفات وخصائص الوالدين سواء في الأمور الظاهرية أو الباطنية» (القائمي، ١٩٩٤، ص. ٣١). والأب الناجح يحب أن يكون ابنه مثله أو يفوقه نجاحًا، وهذا التفكير ليس وليد اليوم، بل يعود إلى زمن مضى، فالأب العربي القديم يسعد إذا كان ابنه يشبهه، فمما يروى في ذلك أن جريرًا كان يرقص ابنه حزرة، ويخاطبه بقوله (جرير، ١٩٨٦، ص. ١١٠):

يا حَزرَ أَشبِه مَنطِقي وَأَجلاد[1] وَكَرَياني[2] الأَمرَ بَعدَ الإيراد
وَعَدوَتي[3] في أَوَّلِ الجَمعِ العاد وَحَسَبي عِندَ بَقايا الأَزواد[4]
وَحُبِّبَ الضَيفَ إِلى جَنبِ الزاد

وفي الأمثال الشعبية الفلسطينية إشارة إلى أن الأب إذا كان سيء الطباع فسيكون ابنه كذلك، يقول المثل:«إللي أبوه كلب لازم يعوّي» (السهلي، د.ت، ص. ٤٥)، ويقول: «إن كان أبوك البصل وإمك الثوم، الريحة المليحة منين بدها تجيك؟» (السهلي، د.ت، ص. ٨٢)، ويقول: «فَيِّ العود الأعوج، كيف بِدُّه يستقيم» (السهلي، د.ت، ص. ٣٢٢)، ويقول: «ما بطلع من دار المطبلين غير المزمرين» (السهلي، د.ت، ص. ٤٠٠)، ويقول: «ابن الذيب ما بترباش» (عراف، ١٩٩٦، ص. ٩٤٢). ولكن ليس شرطًا أن يكون الأبناء فاسدين إذا كان الآباء كذلك، فقد يكون منهم الصالح الذي يعمر المجتمع، ولا ينهج نهج أبيه.

٧- عقوق الابن لأبيه: تطرقت الأمثال الشعبية الفلسطينية إلى عقوق الأبناء لآبائهم، ومنها: «إن كان أبوك هِرِش، لا تشتريهوش بقرش» (السهلي، د.ت، ص. ٨٢)، فهذا المثل يضرب على لسان الابن العاق لأبيه، ومعناه: إذا كان الأب ضعيفًا أو عديم الحيلة (هِرِش)، فلا قيمة له حتى بثمن زهيد. ومن تلك الأمثال أيضًا: «قلبي على ولدي مثل الشجر، وقلب ولدي عليّ مثل الحجر» (جبر، د.ت، ص. ٢٩٣)، فيظهر من خلال هذا المثل الشعبي أن قلب الوالد عامر بالحنان والعطاء مثل الشجر الذي يعطي بلا مقابل، بينما قلب الابن قاسٍ كالحجر، فهو لا يعير والده الاهتمام الكافي. لقد أرادت الأمثال الشعبية أن تنبه الناس إلى خطورة عقوق الوالدين، فهو أمر منبوذ في الحياة الاجتماعية، بل إنه يعد سبب ضياع المجتمع ويقود إلى عواقب وخيمة، وقد نهى الإسلام عنه، يقول الله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» (الإسراء، آية ٢٣).

١- أجلاد، أراد أجلادي: جسمي وأعضائي.
٢- كرياني الأمر: إدارتي إيّاه.
٣- عدوتي: جريي.
٤- الأزواد، جمع الزاد: ما يتخذ من الطعام للسفر.

وأشار الشاعر الجاهلي أمية بن أبي الصلت إلى مثل ذلك الفعل الشنيع (أمية بن أبي الصلت، ١٩٩٨، ص ص. ١٨١-١٨٢):

تَخافُ الرَدى نَفسي عَلَيكَ وَإِنَني لَأَعلَمُ أَنَ المَوتَ حَتمٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمّا بَلَغَت السِّنَ وَالغايَةَ الَّتي إِليها مَدى ما كُنتُ فيكَ أُؤَمِلُ
جَعَلتَ جَزائي غِلظَةً وَفَظاظَةً كَأَنَكَ أَنتَ المُنعِمُ المُتَفَضِلُ

٨- الفخر بالآباء: يكثر الأبناء من الفخر بآبائهم، ولا سيما إذا كانوا عاجزين عن فعل أفعالهم، وقد جاء المثل الشعبي الفلسطيني لنبذ ذلك، إذ قال: «كان أبوي وأبوك، الله يرحم زمان الماضي. يضرب للمرء لا ينبغي أن يفخر بأجداده ونسبه بل بفعله وعمله» (السهلي، د.ت، ص. ٣٤٥). والنهي عن الفخر بالآباء والأجداد يراد منه حث الناس على العمل والاجتهاد لا الركون إلى الماضي والتغني به، ولعل في قول علي بن أبي طالب مصداقًا لذلك المثل (علي بن أبي طالب، ١٩٨٨، ص. ١٦):

كُن اِبنَ مَن شِئتَ وَاكتَسِب أَدَباً يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَسَبِ
فَلَيسَ يُغني الحَسيبُ نِسبَتَهُ بِلا لِسانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ
إِنَّ الفَتى مَن يُقولُ ها أَنا ذا لَيسَ الفَتى مَن يُقولُ كانَ أَبي

٩- السخرية من الآباء: كما أكثر الأبناء من الفخر بآبائهم كذلك سخروا منهم، يقول المثل الشعبي الفلسطيني: «قالوا للبغل مين أبوك؟ قال: الحصان خالي» (عباس، ١٩٨٩، ص. ١٧٤). ومعلوم أن البغل محصلة تزاوج بين الحمار والحصان، والحمار شأنه قليل في الفكر الشعبي، وإذا وصف شخص شخصاً آخر بالحمار، فإن الآخر يشعر بالغضب، ويعدّ ذلك إهانة له. فهذا المثل الشعبي ينتقد الذين يخجلون من أصول آبائهم، فيحاولون أن يرفعوا من قدر أنفسهم بالادعاء، ولو كلف الأمر أن ينسلخوا عن جذور آبائهم. وانتقاد الواقع سمة أصيلة في الأمثال، وقد أشارت إلى ذلك نبيلة إبراهيم في قولها: «على أن الأمثال إذا كانت لا تهدف إلى غرض تعليمي، فإنها تهدف من خلال تلخيصها للتجارب الفردية إلى نقد الحياة. وكثيرًا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الأخلاق. وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية. ولا يسعنا سوى أن نقدم بعض أمثالنا الضاحكة التي تعرض نماذج من حياتنا مليئة بالنقد والسخرية» (إبراهيم، د.ت، ص. ١٤٤).

الخاتمة

غاصت الدراسة في أعماق الأمثال الشعبية الفلسطينية محاولة الكشف عن تمثلات علاقة الآباء بالأبناء فيها، وقد خرجت بالنتائج الآتية:

١- يتجلى التنوع الأسلوبي في الأمثال الشعبية التي تطرقت إليها الدراسة، إذ حضر النداء: «ربيتك يا ولدي»، والأمر: «احترم أبوك»، والاستفهام: «قالوا للبغل مين أبوك؟»، والنهي: «لا تشتريهوش بقرش». وهذا التنوع يكسب الأمثال زخمًا وإقناعًا، ويقود إلى إقناع المتلقي بما يوجد فيها.

٢- يعود التناقض الموجود في مجموعة من الأمثال ذات الصلة بالآباء والأبناء إلى أن المثل لا يُعرف قائله، فيمكن أن يقول شخص مثلًا في وقت ما، ويأتي بعده شخص آخر يقول مثلًا مناقضًا للمثل الذي قاله سابقه.

٣- أعطت الأمثال الشعبية الفلسطينية صورتين للأب إحداهما بدا فيها إيجابيًا مهتمًا بأبنائه، وأثنت على ذلك، والأخرى كان فيها الأب مقصرًا بحق أولاده، ووجهت نقدًا صارخًا له، وكان هذا النقد محملًا بالسخرية أو التهكم، محاولًا توجيه سلوكه وتنبيهه إلى مسؤولياته الأسرية والاجتماعية.

٤- ظهر من خلال الأمثال الشعبية -التي كانت موضع الدراسة- أن الأب الفلسطيني يتشاءم إذا بُشر بقدوم الأنثى، ولكنه يفرح فرحًا جمًا إذا كان جنس المولود ذكراً.

٥- تناولت الأمثال الشعبية الفلسطينية التشابه بين الوالد وولده في الشكل والسلوك والأخلاق.

٦- اختزنت ذاكرة الفلسطيني تصورات حول العلاقة بين الآباء والأبناء من التجارب الحياتية ومن الموروث العربي القديم، وقد ظهرت إلى الملأ على شكل أمثال شعبية، انتقلت من جيل إلى جيل، وذلك بأسلوب موجز بليغ.

٧- حث المثل الشعبي الفلسطيني على العدل بين الأبناء، وحذر من التمييز بينهم، لأن ذلك يقود إلى جو أسري مشحون.

٨- بينت الأمثال الشعبية مقدار الجهد الذي يبذله كثير من الآباء الفلسطينيون في سبيل تربية أبنائهم.

التوصيات

تخلص الدراسة إلى التوصيات الآتية:

١- الحد من تداول الأمثال الشعبية التي تبرر العنف في التربية، والعمل على نشر بدائل تربوية حديثة قائمة على الحوار والإرشاد النفسي.

٢- إعادة النظر في التصورات الشعبية المرتبطة بتفضيل الذكور على الإناث، والسعي إلى ترسيخ المساواة والعدالة بين الجنسين بما يتوافق مع القيم الدينية والإنسانية.

٣- توظيف الأمثال الشعبية الإيجابية ضمن المناهج التعليمية، مما يسهم في تكريس القيم التربوية وتعزيز الوعي الاجتماعي لدى الطلبة.

٤- تشجيع الباحثين على إجراء دراسات أخرى تتناول الأمثال الشعبية الفلسطينية، وتبحث في قضايا تتصل بصورة الأم والطفل والعلاقات الأسرية المختلفة.

المراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم، نبيلة. (د.ت). *أشكال التعبير في الأدب الشعبي*. القاهرة: دار نهضة مصر .
- أمية بن أبي الصلت. (١٩٩٨). *الديوان (الطبعة الأولى)*. (تحقيق سجيع جميل الجبيلي) بيروت: دار صادر.
- أمين، أحمد. (١٩٥٣). *قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية* (الطبعة ١). القاهرة.
- بركات، حليم. (٢٠٠٠). *المجتمع العربي المعاصر بحث في تغير الأحوال والعلاقات*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٩٨). *البيان والتبيين* (الطبعة ٧). (تحقيق عبد السلام هارون) القاهرة: مكتبة الخانجي.
- جبر، محمد كمال. (د.ت). *المثل الشعبي الفلسطيني* (من الخابية٢). دائرة المعارف الفلسطينية.
- جرير. (١٩٨٦). *الديوان*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر .
- حسين، طه. (د.ت). *في الأدب الجاهلي* (الطبعة ٤). مصر: دار المعارف.
- دانا، يوسف. (٢٠١٤). *موسوعة الأمثال العربية العامية الدارجة حكم وتقاليد واستدلال*. حيفا: مكتبة كل شيء.
- دورانت، جون. (٢٠٠٧). *الانضباط الإيجابي-ما هو وكيف يمكن تطبيقه*. مؤسسة إنقاذ الطفل (المكتب الإقليمي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا).
- رزوق، أسعد. (١٩٧٧). *موسوعة علم النفس* (الطبعة ١). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الزيود، إسماعيل محمد. (٢٠١١). *علم الاجتماع* (الطبعة ١). عمّان: دار كنوز المعرفة.
- السهلي، محمد توفيق. (د.ت). *موسوعة الأمثال الشعبية الفلسطينية*. دار الأقصى.
- الشبيبي، محمد رضا. (١٩٦٢). *الأمثال البغدادية*. بغداد: مطبعة أسعد.
- شرقي، محمد. (٢٠١٠). *مقاربات بيداغوجية*. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- صليبا، جميل. (١٩٩٤). *المعجم الفلسفي*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- الطبرسي، أبو نصر الحسن بن الفضل. (د.ت). *مكارم الأخلاق*. (تحقيق علاء آل جعفر) مؤسسة النشر الإسلامي.
- عباس، فؤاد إبراهيم. (١٩٨٩). *معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية*. عمّان: دار الجليل للنشر.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (١٩٨٣). *العقد الفريد* (الطبعة ١). (تحقيق عبد المجيد الترحيني) بيروت: دار الكتب العلمية.
- عراف، شكري. (١٩٩٦). *المثل الشعبي بين المتحفية والاستمرارية*. مطبعة فحول.
- علي بن أبي طالب. (١٩٨٨). *الديوان* (الطبعة الأولى). (جمع وترتيب عبد العزيز الكرم) بيروت: دار الكتاب.
- فهمي، مصطفى. (١٩٥٥). *سيكولوجية الطفولة والمراهقة* (الطبعة ٢). مكتبة مصر.
- القائمي، علي. (١٩٩٤). *دور الأب في التربية* (الطبعة ١). بيروت: دار النبلاء.
- لطفي، عبد الحميد. (١٩٦٥). *علم الاجتماع*. بيروت: دار النهضة.
- مسلم، الحافظ أبو الحسين. (١٩٩٨). *صحيح مسلم*. الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع.
- معلوف، لويس. (١٩٧٥). *المنجد في اللغة والأعلام* . بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

سلامة، شاهر، وحريبات، ضحى، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 99-84، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/vb61x059

دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة وفقا لنموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة

شاهر سلامة (العالول) ضحى حريبات

الملخص

هدفت الدراسة إلى الكشف عن دور الجامعات الفلسطينية في تنمية المهارات الشخصية المهنية لدى طلبتها استنادًا إلى نموذج ستيفن كوفي، في ظل متطلبات عصر المعرفة وخصوصية التعليم تحت الاحتلال. استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وطُبقت استبانة على عينة طبقية عشوائية من طلبة جامعات محافظة الخليل (٣٤٨ استبانة صالحة للتحليل). أظهرت النتائج أن دور الجامعات كان مرتفعًا في تنمية المهارات وفق أبعاد نموذج كوفي السبعة، حيث جاءت مهارة «التعاون الخلاق» أولاً، «تلتها الإدارة الشخصية»، «فالقيادة الاجتماعية»، ثم «القيادة الذاتية»، و«التقمص العاطفي»، و«التجديد الذاتي»، وأخيرًا «الرؤية الشخصية». وأوصت الدراسة بتعزيز البيئة الجامعية الداعمة للأفكار الريادية وتبني المبادرات الإبداعية للطلبة، لما لذلك من أثر في تطوير الرؤية الشخصية وتحفيز المسؤولية الذاتية، بما يسهم في إعداد خريجين يمتلكون كفاءات مهنية قادرة على مواجهة تحديات المعرفة وظروف الاحتلال.

الكلمات المفتاحية: المهارات الشخصيّة المهنيّة، نموذج ستيفن كوفي، الجامعات الفلسطينيّة، التعاون الخلاق، التجديد الذاتي.

The Role of Palestinian Universities in Developing Professional Interpersonal Skills according to Stephen Covey's Model in the Knowledge Era

Shaher Salama, Duha Hreibat

ABSTRACT

The study aimed to identify the role of Palestinian universities in developing students' professional personal skills based on Stephen Covey's model, in light of the demands of the knowledge era and the unique nature of education under occupation. The study employed a descriptive-analytical approach, and a questionnaire was administered to a stratified random sample of students from universities in the Hebron Governorate (348 valid questionnaires were analyzed). The results revealed that universities play a high-level role in developing students' skills according to Covey's seven dimensions. The skill of «creative cooperation (synergy)» ranked first, followed by «personal management», «social leadership», «self-leadership», «empathic», and «balanced self-renewal skills», while «personal vision» ranked last. The study recommended strengthening university environments that support entrepreneurial ideas and adopting students' creative initiatives, as these contribute to developing personal vision and promoting self-responsibility, thereby preparing graduates with professional competencies capable of meeting knowledge-era challenges and the realities of occupation.

Keywords: Professional soft skills, Stephen Covey's model, Palestinian universities, creative cooperation (synergy), self-renewal.

الدكتور شاهر عامر سلامه (العالول)، معهد التنمية المستدامة، جامعة القدس، للمراسلة: sh.salameh@staff.alquds.edu.
الأستاذة ضحى شاهر حريبات، جامعة القدس، للمراسلة: doharashed55@gmail.com.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس. (www.alquds.edu).

Dr. Shaher Amer Salameh (Al-Aloul), Institute of Sustainable Development, Al-Quds University. For correspondence: sh.salameh@staff.alquds.edu.
Ms. Duha Shaher Hreibat, Al-Quds University. For correspondence: doharashed55@gmail.com.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

المقدمة

يشكل التعليم في فلسطين أحد أبرز ميادين الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي، حيث يتعرض باستمرار لتدخلات ممنهجة تهدف إلى تقويض بنيته ودوره في بناء المجتمع، فمنع الوصول إلى المدارس والجامعات، وتخريب البنية التحتية التعليمية، وتحويل البيئة التعليمية إلى ساحة مواجهة يومية، ليست سوى بعض ممارسات الاحتلال التي تعرقل العملية التعليميّة وتحاول إفراغها من مضمونها الوطني والثقافي. ويتميز التعليم الجامعي الفلسطينيّ بخصوصية واضحة نتيجة للظروف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تمرّ بها فلسطين، والتي تؤثر بدورها على طبيعة العملية التعليميّة ومخرجاتها، فالجامعات الفلسطينيّة تعمل في ظل معيقات بنيويّة تتراوح بين نقص التمويل، والانقطاعات المتكررة، وصعوبة الوصول، إلى جانب تأثر الطلبة بالضغوط النفسيّة والاجتماعيّة، وهو ما يفرض على الجامعات دورا مضاعفا في إعداد الطلبة لمتطلبات الحياة وسوق العمل.

من هنا، فإن تنمية المهارات الشخصيّة والمهنيّة للطلبة في هذا السياق لا تعدّ ترفا تربويا، بل ضرورة وطنيّة وتنموية، ويؤدي غرس المهارات الحياتيّة مثل: (التفكير الإبداعيّ، وحلّ المشكلات، والتواصل، والعمل الجماعيّ، والقدرة على المبادرة) دورا محوريا في تمكين الطلبة من التفاعل مع محيطهم ومواجهة واقعهم بتوازن وكفاءة.

وقد أكدت دراسة حمارشة (٢٠٢٢) أن ضعف مشاركة طلبة الجامعات الفلسطينية في الأنشطة اللامنهجية يعود إلى عوامل أكاديمية ومؤسسية تحدّ من فرص تنمية المهارات الشخصية خارج الصفوف الدراسية، مما يعزز الحاجة إلى تطوير بيئة جامعية داعمة للإبداع والمبادرة. كما أشار الفقهاء (٢٠٢٢) إلى أن استخدام التعليم الإلكتروني في الجامعات الفلسطينية أثناء جائحة كورونا أسهم في تطوير مهارات الطلبة التقنية والتواصلية، مما يعكس أهمية دمج التكنولوجيا في تعزيز المهارات المهنية. وخلص الخالص وزيدان (٢٠٢٢) إلى أن تبنّي أساليب تعليمية مبتكرة يسهم في تطوير مهارات التفكير والذكاء الطبيعي، وهي نتائج يمكن إسقاطها على أهمية المناهج الجامعية في بناء الشخصية المتكاملة. وهذا ما أكدّه حمدان وعلي بأن تطوير هذه المهارات يساعد في خفض معدلات البطالة بين الخريجين، وتعزيز قدرتهم على الانخراط في المبادرات الريادية والتنمويّة (حمدان، ٢٠٢٠؛ علي، ٢٠١٩).

ويعدّ التعليم استثمارا في تنمية الأفراد، وهم أساس العملية التنموية، ويعدّ التعلم الجامعي المحور الرئيس في تطوير المهارات التي تسهم في زيادة ثقة الطالب بنفسه، واحترامه لذاته، وعطائه لمجتمعه، كما يهدف إلى تزويد الطلبة بالجوانب الاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة، والجوانب التعليميّة والمهاريّة والمعرفيّة (الرميح، ٢٠٢١).

في هذا السياق، لا يعد التعليم الجامعي مجرد وسيلة لاكتساب المعرفة، بل يتحول إلى أداة للمقاومة الثقافية وتعزيز الهوية الوطنية الفلسطينية، ويسهم في تشكيل الشخصيّة الفلسطينيّة الفاعلة، ومن هذا المنطلق، يثار تساؤل جوهري حول الكيفية التي تسهم بها الجامعات الفلسطينيّة، في ظلّ واقع الاحتلال والتحديات المحيطة، في بناء الشخصيّة المهنيّة للطلبة، فهل تتمكن هذه المؤسسات من تهيئة بيئة تعليميّة تمكن الطلبة من تطوير مهاراتهم الذاتية والمهنية بما يتلاءم مع متطلبات عصر المعرفة؟ وهل تلعب دورا فاعلا في تعزيز قيم المبادرة، وتحمل المسؤولية، والتفكير الاستراتيجي، كما يشير ستيفن كوفي في نموذجه للعادات السبع؟ إنّ هذا التساؤل يضع التعليم الجامعي الفلسطينيّ في موضع تحليل عميق، لا بوصفه مسارا أكاديميا فحسب، بل كحاضنة ممكنة لتشكيل شخصية مهنية قادرة على التكيف والإنتاج والإسهام في المجتمع رغم التحديات السياسية والمعيشية.

الإطار النظري

١- التعليم الجامعيّ في السياق الاستعماريّ

في ظل الاحتلال الإسرائيليّ، يعدّ التعليم الفلسطينيّ، وبخاصة الجامعيّ، أداة مزدوجة بين تعزيز الصمود الوطني من جهة، ومحاولات الاختراق والسيطرة من جهة أخرى، ويشير عليان (٢٠٢٠) إلى أنّ النظام التعليميّ الإسرائيليّ يسعى إلى إضعاف الوعي القومي الفلسطينيّ من خلال محو الهوية الوطنية وإعادة تشكيلها بما يتوافق مع الرواية الصهيونيّة، لذلك، يصبح التعليم الجامعيّ الفلسطينيّ ليس مجرد بيئة أكاديميّة، بل فضاء مقاوماً، يسهم في بناء الشخصيّة الوطنية وتحصينها ضد الهيمنة الاستعماريّة. وقد دعمت نتائج دراسة عرمان (٢٠٢٢) هذا التوجه، إذ بيّنت أن تطوير استخدام المنصات التعليمية في المدارس والجامعات الفلسطينية يسهم في تعزيز مهارات التعلم الذاتي، ويؤكد أهمية بناء قدرات الطلبة على إدارة المعرفة بأنفسهم، وهي من ركائز الشخصية الفعالة في السياق الاستعماري. وفي هذا السياق، لا يمكن الحديث عن التعليم في فلسطين دون التطرق إلى الواقع الاستعماري الذي تفرضه سياسات الاحتلال الإسرائيليّ، فالجامعات الفلسطينيّة تعمل تحت ضغط ممارسات الاحتلال التي تعرقل الوصول إلى الحرم الجامعي، وتفرض القيود على حركة الطلبة وأعضاء الهيئة التدريسيّة، وتؤثر على التمويل والبنية التحتيّة، إن تنمية المهارات الشخصيّة والمهنية في هذا السياق ليست مجرد هدف تنموي، بل هي فعل مقاوم يهدف إلى تمكين الشباب الفلسطينيّ من الصمود، والتعبير عن الذات، والمشاركة الفاعلة في بناء مجتمعهم رغم الظروف القهرية (عليان، ٢٠١٧).

٢- نموذج ستيفن كوفي كإطار نظري

تمّ اختيار نموذج ستيفن كوفي لقياس المتغيرات المهنيّة الشخصيّة، إذ يعدّ من أبرز النماذج العالمية التي تناولت تنمية المهارات الشخصيّة والمهنيّة بطريقة متكاملة وممنهجة، ويقوم هذا النموذج على مبادئ عالميّة قابلة للتطبيق في مختلف السياقات الثقافيّة والتعليميّة، وقد اختار فريق البحث هذا النموذج لشموليته، واعتماده على القيم والقيادة الذاتيّة كعناصر محوريّة في بناء الشخصيّة الفعالة. في السياق الفلسطينيّ، تزداد أهمية هذا النموذج نظرا للتحديات المتعددة التي يواجهها الطلبة، والتي تتطلب تنمية مهارات مثل القيادة الذاتية، وإدارة الوقت، والقدرة على التكيّف والتعاون، وقد أظهرت دراسات دوليّة وعربيّة نجاحا ملحوظا لتطبيق النموذج في بيئات تعليميّة مشابهة (Shetty et al., 2021؛ Jarad et al., 2020؛ Lian et al., 2022).

فنموذج ستيفن كوفي من خلال العادات السبع يقوم على المبادئ الأساسية التي تستند إلى القوانين الطبيعية، والتي تعتبر أساسية لنجاح الطلاب في حياتهم الدّراسيّة وبعد التخرج (Shetty& Flosy & Souza , 2021)، وتعدّ هذه المبادئ حجر الزاوية في بناء شخصيّة فعالة ومهنية، قادرة على النجاح الأكاديمي والتكيف المجتمعيّ، وفي السياق الفلسطينيّ، فإن اعتماد هذا النموذج يتجاوز التطبيق التقني إلى استثمار تربويّ نضاليّ، يمنح الطلبة أدوات لفهم ذاتهم، والتفاعل مع مجتمعهم، ومواجهة التهميش والاستلاب الثقافي.

كما أنّ المهارات الشخصية، بحسب كوفي، ترتبط بالقدرة على إدارة الذات، وفهم الآخرين، والعمل ضمن فرق، وهي مهارات باتت أساسية في الحياة الجامعية والمهنية على حد سواء، كما أنّ المهارات الشخصيّة، بحسب كوفي، ترتبط بالقدرة على إدارة الذات، وفهم الآخرين، والعمل ضمن فرق، وهي مهارات باتت أساسية في الحياة الجامعية والمهنية على حدّ سواء (Kapur، 2020؛ بودردابن، ٢٠٢٠؛ الحارثي، ٢٠٢١). وفقا لكتاب ستيفن كوفي فان شخصيّة الإنسان مكونة بشكل أساسيّ من العادات، والعادات تعتبر ذات تأثير كبير على حياة الانسان؛ لأنها مترابطة ومتماسكة، ومن أجل ان يتحول سلوك ما إلى عادة لا بد من معرفة ثلاثة أمور وهي كما في الشكل التالي:

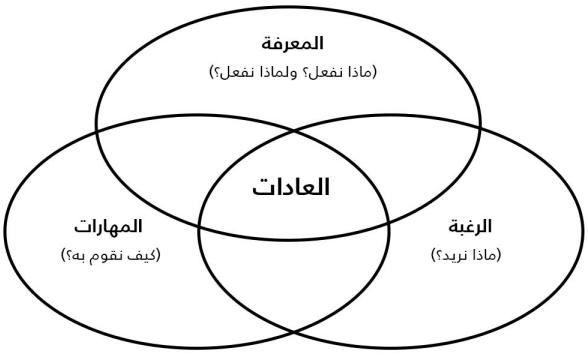

الشكل(1): العادات الفعالة المؤثرة حسب ستيفن كوفي، (Covey 2007)

وسوف نتناول العادات الفعالة المؤثرة حسب ستيفن كوفي التي تمّ ذكرها سابقا بإيجازه على النحو التالي:

أولا: المهارات الشخصيّة (Skills): تقوم المهارات الشخصيّة المهنيّة على فكرة التمكن من التعامل مع المواقف المختلفة، والصراعات والاختلافات التي قد يواجهها الفرد في حياته العمليّة أو الشخصية، داخل المنزل أو خارجه (Kapur , 2020). ويرى (بودردابن، ٢٠٢٠) أنّ المهارات الشخصيّة هي من ضمن المهارات الحياتيّة، فهي مجموعة كبيرة من المهارات الشخصيّة ومهارات التواصل الاجتماعي والمهارات النفسيّة والمهارات المهنيّة التي تساعد الأفراد على التغلب على التحديات اليوميّة، وتطور من قدراتهم وتعزز الثقة بأنفسهم ليصبحوا منتجين فاعلين في مجتمعاتهم.

أمّا المهارات الحياتيّة لدى طلبة الجامعة، فلها أهمية خاصة ترتبط بكونها تساعد الطلبة للتغلب على المشكلات التي يواجهونها أثناء الفترة الدّراسيّة في الجامعة، كما أنّها تساعدهم على اتخاذ القرارات المناسبة عند التعرض للمواقف المختلفة، ومن خلال اكتساب هذه المهارات يمكن للطالب الاندماج مع زملائه داخل الجامعة، ويصبح قادرا على الربط بين ما يدرسه نظريا وما يطبقه في حياته (الحارثي، ٢٠٢١).

وحدد ستيفن كوفي في كتابه (The Seven Habits Of Highly Effective People) (العادات السبع للأشخاص الأعلى تاثيراً) العادات السبع التي ينبغي على الأشخاص السير عليها لتحقيق الفاعلية الشخصيّة، ويهدف هذا الكتاب إلى مساعدة الناس في العثور على النجاح الذي يبحثون عنه من خلال ممارسة سبع عادات في حياتهم اليوميّة، والعادات السبع يمكن أن تساعد الطلاب على تحقيق «الكفاءة» من خلال تبني كوفي مبادئ بناء الشخصيّة والأخلاق التي تكون مبنية على بعضها بعضا، وهي على النحو الآتي:

١- مهارات الرؤية الشخصيّة: (كن مبادرا) (Be Proactive)

وهذه العادة ترتبط بتحمل المسؤولية عن الأفعال وتغيير الظروف (Holly , 2002) ويشجع المفهوم الاستباقي للطلاب على اتّخاذ المبادرة الشخصيّة في التعلم من خلال الاستكشاف دون التقيد بالتعليمات، بما يطور المسؤوليّة الشخصيّة لدى الطلاب (Bengrait, 2020) وبحسب ستيفن كوفي (2007 , Covey) فإنّ ذلك يرجع إلى:

الوعي الذاتي: (القدرة على التحكم في الأفكار).

الخيال: (القدرة على خلق واقع جديد عقليا).

الضمير: (وعي داخلي بالصواب والخطا).

الإرادة المستقلة (القدرة على التصرف بناء على الأفكار).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ (أنْ تكون استباقيا) لا تعني أن تكون انتهازيا أو مستغلا، وإنّما تعني التحكم في الموقف من جانبين، الأول: داخل الشخص (مرتبط بالتفكير والشعور)، والثاني: خارجي (مرتبط بالبيئة المحيطة والآخرين)، فبدلا من التركيز على الظروف الحالية، يمكن التكيف مع الظروف الموجودة لإزالة أي شيء خارجي يؤثر على الشخص (Covey , 2007).

ويرى فريق البحث من خلال كتاب ستيفن كوفي أنّ الخطوة الأولى من أجل أن تصبح أكثر فعالية، وبالتالي أكثر نجاحا، يجب عليك إدراك أنّ العالم يجب أن يتغير، وأن تكون مبادرا يعني أنّه لديك وعي وإرادة حرة، وحرية اختيار ومعرفة الطريقة التي ستستجيب فيها للمواقف بدلا من ردّات الفعل، وأن تحمل نفسك المسؤولية عن قراراتك بدلا من إلقاء اللوم على الجينات أو العوامل البيئية.

٢- مهارات القيادة الشخصيّة: (ابدأ والغاية في ذهنك: Begin with the end in mind)

وهذه العادة ترتبط بالفهم الواضح لما يريد القيام به قبل القيام به، وهي تعني معرفة مهمتك الشخصيّة واختيار الأدوار والأهداف بعناية وفقا لذلك (Holly , 2002)، وتعني أيضا أن يوجه الفرد نفسه للقيام بما يعتقد أنّ هدفه هو (القيادة الشخصية). وهذا من أجل خلق عادة التركيز على التمارين ذات الصلة وتقليلها وتحويلها إلى أنْ تكون أكثر ربحيّة وإنتاجيّة. (Lian & Hua & Mohd-said , 2022). أنْ تبدأ مع وضع النهاية في الاعتبار يعني أنْ تبدأ بفهم واضح لهدفك، وأنْ تعرف إلى أين أنت ذاهب حتى تفهم بشكل أفضل مكانك الآن، وبالتالي تكون الخطوات التي تتخذها دائما في الاتجاه الصحيح (Covey , 2007).

تُعلم هذه العادة الطلاب على التفكير في النتيجة النهائيّة والهدف المحدد، لأن ذلك يؤدي في النهاية إلى تقدير الذات وتوجيهها من خلال القيم والأهداف المحددة، فهذه العادة تحث على تمكين الطلاب من وضع الخطط المستقبليّة وتحقيق أداء أعلى (Bengrait, 2020). ويرى فريق البحث أنّ البداية والغاية في ذهنك تعني القدرة على تصور الشخص لما في عقله، إذ لا يمكن للفرد رؤيته في الوقت الحاضر بعينيه.

٣- مهارات الإدارة الشخصيّة: (ابدأ بالأهم قبل المهم: Put First Things First)

ترتبط هذه العادة بتحديد الأولويات لتحقيق نتائج عالية، وهي ترتبط بالعادة الثانية؛ لأنّها تتضمن تنفيذ الخطط التي تمّ تصورها في العادة الثانية (Holly , 2002)، يذكر كوفي أنّ العادة الثانية هي المرحلة الأساسية من تكوين العقل ولكن العادة الثالثة هي التصميم الثاني (Lian & Hua & Mohd-said , 2022). كما أنّ هذه العادة تعلم الطلاب تحديد الأولويات من خلال التنظيم والتنفيذ، كما تمكنهم من وضع الجداول التخطيطيّة، والسير عليها، وتحديد الخيارات الشخصيّة مع التركيز على الأولويات (Bengrait, 2020).

٤- مهارات القيادة الاجتماعيّة: (التصورات الذهنية بالتبادل تفكير المكسب/ المكسب) (Think Win/Win)

ترتبط هذه العادة بإيجاد أفضل حلّ لنزاع أو قضيّة أو مشكلة تواجه طرفين أو أكثر، وتؤدي إلى جعل الأشخاص يركزون على التعاون بحيث يمكن العثور على حلّ يرضي الجميع (Holly , 2002). ويرى فريق البحث أنّ الحياة تقوم على التعاون لا التنافس، حيث يسعى الفوز إلى تحقيق المنفعة المتبادلة للطرفين، ولتحقيق ذلك، يجب الموازنة بين التعاطف والثقة، والتفهم والشجاعة، إذ يمثل هذا التوازن جوهر النضج الحقيقي.

٥- مهارة التقمص العاطفيّ: (اسعَ من أجل الفهم أوّلا ثم اسعَ من أجل أنْ يفهم الآخرون) (Seek First to Understand، then to be Understood)

ترتبط هذه العادة بالفهم والإدراك الكامل لما يتحدث به الآخرون للاستفادة من هذه التجارب في الحياة الشخصيّة والتجربة الخاصة (Holly , 2002)، وتقوم هذه العادة على اعتبار أنّ غالبية الناس ليس لديهم المهارة الكافية للاستماع بفعالية، ففي حين يتم قضاء سنوات في تعلم القراءة والكتابة بفعالية، فإنّه لا يتم تعليمهم الاستماع بنية الفهم، وإنّما يتعلمون الاستماع بهدف الرد، إنّما الأصل أن يكون الاستماع للشعور والسلوك والإشارات غير اللفظية للوصول إلى الفهم الكامل (Covey , 2007). وممّا سبق تبيّن أنّ اتصال الفرد بالآخرين يؤدي إلى فهم وجهات نظرهم والتعبير عن نفسه، ممّا يعزز تأثيره عليهم ويوسع دائرة نفوذه، وفهم الآخرين يمنحه القوة والشجاعة للسعي إلى أن يفهم بدوره.

٦- مهارات التعاون الخلاق (التكاتف)

يعرف ستيفن كوفي (Covey , 2007) التكاتف بأنّ الكل أعظم من مجموع الأجزاء، وأنّ العلاقة التي تربط بين الأجزاء وبعضها هي جزء في حدّ ذاتها، والتكاتف ليس جزءا فقط، بل هو أهم محفز وأهم عامل معزز للقوة، وأهم موحد، وأكثر الأجزاء إثارة، وتحث هذه العادة على تعليم الطلاب تقدير قيمة العمل الجماعي، واحترام آراء فريق العمل، وتحديد نقاط القوة لديهم من أجل الاستفادة منها في العمل الجماعيّ (Bengrait, 2020). ويرى فريق البحث أنّ التكاتف يكشف الأمور المشتركة التي من الصعب أنْ يكتشفها الفرد بنفسه، وعندما يتفاعل الناس معا وبصدق يكتسبون رؤية جديدة تزيد قدرتهم على ابتكار مناهج جديدة، كما أنّ العمل بشكل جماعي يساعد في التغلب على جميع التحديات والمشاكل بأقل خسائر.

٧- مهارات التجديد الذاتي المتوازن: (اشحذْ المنشار: Sharpen the saw)

ترتبط هذه العادة بالتحسين المستمر وتعلم القدرات الجديدة، وتجنب الإرهاق والبقاء بصحة جيدة (Holly , 2002). وتبيّن لفريق البحث من خلال كتاب ستيفن كوفي أنّ المهارة الأخيرة وهي (اشحذ المنشار) أنّها تحتاج إلى الوقت الكافي من أجل تجديد أبعاد حياتنا الأربعة –الجسدية، والروحية، والعقلية، والاجتماعية/ العاطفية –بطريقة حكيمة ومتوازنة، دون إهمال لأي بُعد لأنه سيؤثر على باقي الأبعاد، من أجل أن يكون الفرد أكثر فاعلية في حياته وأعماله، وهذا يتعلق أيضا بالاستثمار في نفسه من جني الأرباح.

الدّراسات السابقة

دراسة لبنى الفريجات (٢٠٢٢)، هدفت إلى التعرف على معوقات دمج المهارات الحياتيّة من وجهة نظر الطلاب في كلية علوم الرياضة في جامعة مؤتة في الأردن، وذلك تبعا لمتغيرات (النوع الاجتماعي، المستوى الدراسي، والمعدل التراكمي)، واستخدمت الباحثة في هذه الدّراسة المنهج الوصفي وتمّ استخدام الاستبانة كأداة لجمع بيانات الدّراسة من عيّنة الدّراسة التي تكونت من (٣١٩) طالبًا وطالبة، (٢١٦ ذكور و١٠٣ إناث) من كلية علوم الرياضة بجامعة مؤتة، وقد توصلت الدّراسة إلى أنّ محور المقررات الدّراسيّة جاء في الترتيب الأول لمعوقات دمج المهارات الحياتيّة في المناهج التدريسيّة، يليه محور عضو هيئة التدريس، ثم محور الطلبة، وأظهرت النتائج أيضا وجود فروق ذات دلالة إحصائيّة في ترتيب معوقات دمج المهارات الحياتيّة على متغير النوع الاجتماعي لصالح الطلاب، وكذلك على متغير السنة الدّراسيّة لصالح السنة الرابعة وأظهرت كذلك عدم وجود فروق تُعزى لمتغير المعدل التراكمي. أما **دراسة ليان (Lian et al, 2022)**، هدفت إلى استكشاف تأثير تبني عادات ستيفن ار كوفي السبع للأشخاص ذوي الفعالية العالية على الأداء الأكاديمي للطلاب، اتبع الباحثون في هذه الدّراسة المنهج الوصفي، وتمّ استخدام الاستبانة لجمع البيانات من (٥٦) طالبا من مدرسة ثانوية صينية مستقلة في سيلانجور، وتوصلت النتائج إلى أنّ تبني العادات السبع كان له تأثير كبير على الأداء الأكاديمي للطلاب، وساعد على التعامل مع المرحلة الانتقالية في قطاع التعليم وتعلم الطلاب التغلب على التحديات التي تواجههم، كما أظهرت النتائج أن تبني العادات ساعد في تحسين موقف الطلبة تجاه التعلم والأداء الأكاديمي. و**دراسة شيتي (Shetty et al , 2021)** هدفت إلى تطوير برنامج تعليمي يعتمد على العادات السبع لستيفن كوفي وتأثيرها على التحصيل الأكاديمي لطلبة المدارس الثانوية، واعتمدت الدّراسة المنهج التجريبي، حيث قام الباحثون بإعداد المادة التعليمية وبناء اختبار التحصيل الأكاديمي لقياس التحصيل لدى الطلبة، واستغرق تطبيق الدّراسة (٨) شهور، وأظهرت النتائج وجود تأثير للبرنامج على التحصيل الأكاديمي لطلاب المدارس الثانوية. و**دراسة جيراد (Jarad et al , 2020)**، فهدفت إلى التعرف على العادات السبع لدى معلمي المدارس الحكومية في فلسطين، واعتمد الباحثون المنهج الوصفي، وتمّ استخدام الاستبانة وتوزيعها على (٧٠) مبحوثا من المعلمين الحكوميين في بيت لاهيا بغزة، وقد تمّ التوصل إلى أنّه يختلف تقييم ممارسة السلوكيات السبع للمدرسين باختلاف الجنس، كما أظهرت النتائج أنّه لا يوجد ارتباط بين ممارسة السلوكيات ومستوى تحفيز المعلم.

مشكلة الدّراسة وأسئلتها

في ظلّ التحولات المتسارعة التي يشهدها عصر المعرفة، تتعاظم مسؤولية الجامعات كمؤسسات رئيسية في بناء رأس المال البشري، من خلال تنمية المهارات الشخصيّة والمهنية التي تؤهل الطلبة للانخراط الفاعل في سوق العمل، وتعزز من قدرتهم على التكيف مع التحديات الحياتيّة والمجتمعيّة المعقدة. وتزداد هذه الأهمية في السياق الفلسطينيّ، حيث يرزح التعليم العالي تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، الذي يفرض قيودا على حرية الحركة، ويعيق البنية التحتية التعليميّة، ويفاقم التحديات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ممّا يستدعي تربية جامعيّة قادرة على إنتاج خريجين فاعلين، يتمتعون بالمرونة والقيادة والاعتماد على الذات.

وفي هذا الإطار، يُعدّ نموذج «العادات السبع للأشخاص الأكثر فاعلية» لستيفن كوفي أحد الأطر النظريّة العالميّة التي تؤكد على ضرورة تجاوز التعليم لمجرد التحصيل الأكاديميّ، والتركيز على بناء الشخصيّة وتنمية المهارات الحياتيّة المتكاملة التي تشمل الرؤية الشخصيّة، والإدارة الذاتية، والتفاعل الاجتماعيّ، والتجديد المتوازن (Lian & Hua & Mohd-said , 2022).

ورغم تزايد الاهتمام العالمي بتوظيف هذا النموذج في البيئات التعليمية، إلا أنّ الأدبيات العربية، والفلسطينيّة خصوصا، ما زالت تفتقر إلى دراسات تحليلية معمقة تقيس مدى تبني الجامعات لهذا الإطار النظري، ومدى فعاليته في بناء شخصيّة الطلبة ضمن ظروف محلية استثنائية، كالاحتلال، وعدم الاستقرار السياسيّ، وغياب فرص النمو الطبيعيّ للمؤسسات التعليميّة. وعليه، فإن مشكلة الدّراسة تنبع من الحاجة إلى سدّ الفجوة المعرفيّة في تقييم دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة وفق نموذج كوفي، ضمن السياق الفلسطينيّ الذي يفرض تحديات بنيوية مزمنة على النظام التعليميّ.

ومن هنا، تتمثل المشكلة الرئيسة للدّراسة في السؤال الآتي:

ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة لدى طلبتها، وفق نموذج ستيفن كوفي، في ظلّ متطلبات عصر المعرفة؟

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

١- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة (كن مبادرا) لدى الطلبة؟

٢- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الشخصيّة (ابدأ والغاية في ذهنك)؟

٣- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة (ابدأ بالأهم قبل المهم)؟

٤- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الاجتماعيّة (تفكير المكسب/ المكسب)؟

٥- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التقمص العاطفي (اسعَ أوّلاً للفهم ثم اسعَ لأن تُفهَم)؟

٦- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التعاون الخلاق (التكاتف)؟

٧- ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التجديد الذاتي المتوازن (اشحذ المنشار)؟

أهمية الدراسة

تنبع الأهمية النظرية للدراسة من كونها –حسب علم فريق البحث– من أوائل الدراسات التي تتناول تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة لدى طلبة الجامعات الفلسطينيّة في عصر المعرفة، استنادا إلى نموذج ستيفن كوفي، ضمن سياق تعليمي فريد يتسم بتحديات سياسية وأمنية مركبة نتيجة استمرار الاحتلال الإسرائيلي، ويضفي هذا السياق خصوصية على الدراسة، حيث تعدّ الجامعات الفلسطينيّة من أبرز مؤسسات الصمود المجتمعيّ، ودعامة أساسية في بناء الشخصيّة الوطنيّة والإنسانيّة للطلبة، إلى جانب دورها التربويّ والمعرفّي.

أمّا من الناحية العملية، فتتمثل أهمية الدّراسة في تقديم مؤشرات يمكن أن تسهم في تعزيز قدرة الجامعات الفلسطينيّة على تطوير برامج تعليميّة وأنشطة تنمويّة تتلاءم مع متطلبات سوق العمل، وفي الوقت ذاته تراعي واقع التعليم تحت الاحتلال وما يفرضه من معيقات ماديّة ونفسيّة، كما يمكن أن تعين صناع القرار في مؤسسات التعليم العالي، على تبني ممارسات من شأنها تمكين الطلبة من مهارات القيادة، والاستقلالية، والتفاعل الاجتماعي الفاعل، بما يعزز من قدرتهم على التكيف والمواجهة والإبداع في بيئة مضطربة.

أهداف الدراسة

يتمثل الهدف الرئيس للدراسة في تحليل دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة لدى طلبتها، وفق نموذج ستيفن كوفي للعادات السبع، مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية التعليمية التي يفرضها واقع الاحتلال، وذلك ضمن سياق عصر المعرفة ومتطلباته على التعليم الجامعيّ، ويتفرع عنه الأهداف الآتية:

ا. مهارات الرؤية الشخصيّة (كن مبادرا).

ب. مهارات القيادة الشخصيّة (ابدأ والغاية في ذهنك).

ج. مهارات الإدارة الشخصيّة (ابدأ بالأهم قبل المُهم).

د. مهارات القيادة الاجتماعيّة (تفكير المكسب/ المكسب).

هـ. مهارات التقمص العاطفيّ (اسعَ أوّلا للفهم ثم اسعَ لأن تفهَم).

و. مهارات التعاون الخلاق (التكاتف).

ز. مهارات التجديد الذاتي المتوازن (اشحذ المنشار).

منهجية الدراسة

اتبع فريق البحث المنهج الوصفي (الكمي)؛ فهو الأكثر ملاءمة لطبيعة هذه الدراسة، ونحاول من خلال هذا المنهج وصف الظاهرة التي تدرسها، وتحليل بياناتها، وبحث العلاقة بين أجزائها والآراء التي تطرح حولها والعمليات التي تتضمنها والآثار التي تحدثها، وصياغة بعض التوصيات في ضوء ما توصلت إليه نتائج الدراسة واستنتاجاتها.

مجتمع الدراسة

بالنظر إلى طبيعة مشكلة الدّراسة وأهدافها التي تمّ تحديدها، فقد تكوّن مجتمع الدّراسة من جميع طلبة الجامعات الفلسطينيّة في محافظة الخليل (القدس فرع دورا، الخليل، القدس المفتوحة، بوليتكنك فلسطين، كلية الدعوة الإسلامية).

	الجامعة	عدد الطلبة	نسبة من إجمالي المجتمع (%)	عدد الاستبانات الموزعة	النسبة من إجمالي العينة (%)	الاستبانات المستردة
1	جامعة القدس فرع دورا	300	1.44%	20	4.94%	12
2	جامعة الخليل	508,7	36.07%	135	33.33%	116
3	جامعة القدس المفتوحة	469,4	21.47%	80	19.75%	81
4	جامعة بوليتكنك فلسطين	200,8	39.40%	150	37.04%	127
5	كلية الدعوة الإسلامية	335	1.61%	20	4.94%	`12
	المجموع	812,20	100%	405	100%	348

جدول رقم (١) مجتمع الدّراسة (طلبة الجامعات الفلسطينيّة في محافظة الخليل)

عيّنة الدّراسة

قام فريق البحث بتحديد عيّنة الدّراسة بالطريقة الطبقية العشوائية، حيث تمّ توزيع (٤٠٥) استبانة على الطلبة في الجامعات سابقة الذكر بنسبة (٢٪) من مجتمع الدراسة، وذلك طبقا للأسس العلمية التي نظمها كريس ومورجان بخصوص حجم العيّنة المناسبة تبعا لحجم المجتمع (Kerjcie & Morgan1970)، وفي النهاية بلغ عدد الاستبانات المستردة الصالحة للتحليل (٣٤٨) استبانة، بنسبة استرداد (٨٦٪).

1	**الجنس**	**ذكر**	**109**	**31.3%**
		أنثى	239	68.7%
		المجموع	**348**	**100%**
2	**الجامعة**	جامعة القدس	12	3.4%
		جامعة الخليل	116	33.4%
		جامعة القدس المفتوحة	81	23.3%
		جامعة بوليتكنك فلسطين	127	36.5%
		كلية الدعوة الإسلامية	12	3.4%
		المجموع	**348**	**100%**
3	**التخصص**	علوم طبيعية	154	44.3%
		علوم إنسانية	194	55.7%
		المجموع	**348**	**100%**
4	**المستوى الدراسي**	المستوى الأول	48	13.8%
		المستوى الثاني	80	23%
		المستوى الثالث	97	27.9%
		المستوى الرابع	123	35.3%
		المجموع	**348**	**100%**
5	**العمر**	18-25 سنة	253	72.7%
		26-34 سنة	71	20.4%
		35 سنة فاكثر	24	6.9%
		المجموع	**348**	**100%**
6	**المؤهل العلمي**	دبلوم	45	12.9%
		بكالوريوس	276	79.3%
		ماجستير فأعلى	27	7.8%
	المجموع		**348**	**100%**

جدول رقم (٢): توزيع افراد العينة حسب متغيرات الدّراسة

صدق الأداة

وللتأكد من الصدق الداخلي لمجالات المقياس، قام فريق البحث بحساب معامل الارتباط في كلّ مجال من مجالات الاستبانة مع الدرجة الكليّة للمقياس كلّه والجدول (٣) يوضح ذلك.

المجال	معامل الارتباط	الدلالة الاحصائية
مهارات الرؤية الشخصيّة * الدرجة الكليّة	0.824	0.000
مهارات القيادة الشخصيّة *الدرجة الكليّة	0.865	0.000
مهارات الإدارة الشخصيّة * الدرجة الكليّة	0.895	0.000
مهارات القيادة الاجتماعية * الدرجة الكليّة	0.883	0.000
مهارات التقمص العاطفي * الدرجة الكليّة	0.907	0.000
مهارات التعاون الخلاق * الدرجة الكليّة	0.886	0.000
مهارات التجديد الذاتي المتوازن * الدرجة الكليّة	0.896	0.000

جدول (٣): معاملات ارتباط كلّ مجال من مجالات المقياس مع الدرجة الكليّة للمقياس

تبيّن من خلال البيانات الواردة في الجدول (٣) أنّ جميع قيم معاملات الارتباط لكل مجال من مجالات مقياس دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة ترتبط بالدرجة الكليّة للمقياس ارتباطا دالا إحصائيّا عند مستوى دلالة (٠,٠١≥)، وذلك لأنّ معامل ارتباط بيرسون (Person) للعلاقة بين درجة كل مجال والدرجة الكليّة للمقياس كان قويا بالنظر إلى القيم التي تراوحت بين (٠,٨٢٤-٠,٩٠٧)، ممّا يدل على قوة الاتساق الداخلي لفقرات الأداة وانها تشترك معا في قياس دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة.

ثبات الأداة

تمّ التحقق من ثبات استبانة الدراسة، باستخدام معادلة الثبات كرونباخ ألفا لمجالات أداة الدّراسة والدرجة الكليّة، وكانت النتائج كما هو موضح في الجدول (٥)

المقياس	عدد الحالات	عدد الفقرات	قيمة الفا
مهارات الرؤية الشخصيّة	348	8	0.914
مهارات القيادة الشخصيّة	348	6	0.869
مهارات الإدارة الشخصيّة	348	6	0.905
مهارات القيادة الاجتماعيّة	348	6	0.865
مهارات التقمص العاطفيّ	348	7	0.909
مهارات التعاون الخلاق	348	7	0.908
مهارات التجديد الذاتي المتوازن	348	9	0.936
الدرجة الكليّة	**348**	**49**	**0.979**

جدول رقم (٤): معاملات ثبات مقياس المهارات الشخصيّة المهنيّة وفق نموذج ستيفن كوفي وفق معادلة كرونباخ ألفا

يتبين من المعلومات الواردة في الجدول (٤) أنّ قيمة ثبات أداة الدّراسة لمقياس دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة من خلال معادلة (كرونباخ ألفا) عند الدرجة الكليّة بلغت (٩٧,٩٪)، وتراوحت قيمة ثبات مجالات المقياس بين (٨٦,٥٪ - ٩٣,٦٪) ممّا يشير إلى أنّ الاستبانة تتمتع بدرجة مقبولة من الثبات وقابلة لاعتمادها لتحقيق أهداف الدّراسة وتعميم النتائج.

أدوات الدّراسة

تمّ استخدام الاستبانة كأداة لتطبيق هذه الدّراسة وجمع البيانات؛ وذلك لملاءمتها لطبيعة الدّراسة في التعرف على دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة، حيث اتبع فريق البحث الخطوات التالية لبناء الاستبانة:

١- إعداد الاستبانة في الصورة الأولية، حيث راعى فريق البحث صياغة المحتوى على شكل عبارات لغتها سهلة وقصيرة، واشتملت الأداة بصورتها الأوليّة على (٤٩) فقرة موزعة على سبعة محاور رئيسية، إذ أعطي لكل فقرة من فقرات الأداة وزنا مدرجا.

٢- عرض الاستبانة بصورتها الأوليّة على المحكمين ثمّ تعديلها بناءً على ملاحظاتهم وآرائهم.

وقد تكونت الاستبانة في صورتها النهائية، من قسمين رئيسين:

القسم الأول: البيانات الشخصيّة عن المبحوثين عيّنة الدراسة: (الجنس، الجامعة، التخصص، المستوى الدراسي، العمر، المؤهل العلميّ).

القسم الثاني: دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب ستيفن كوفي في عصر المعرفة وأبعاده، وكان عدد فقرات كل مجال من مجالات الاستبانة بعد تحكيم الاستبانة كالتالي: مهارات الرؤية الشخصيّة وعدد فقراتها (٨) ،ومهارات القيادة الشخصيّة وعدد فقراتها (٦)، ومهارات الإدارة الشخصيّة وعدد فقراتها (٦)، ومهارات القيادة الاجتماعية وعدد فقراتها (٦)، ومهارات التقمص العاطفيّ وعدد فقراتها (٧)، ومهارات التعاون الخلاق وعدد فقراتها (٧)، ومهارات التجديد الذاتي المتوازن وعدد فقراتها (٩)، حيث تمّ استخدام مقياس ليكرت الخماسي لتقدير استجابة المبحوثين على فقرات الاستبانة.

إجراءات جمع البيانات

بعد أن تمّ التحقق من الصدق للاستبانة (أداة الدّراسة)، قام فريق البحث بتوزيع الاستبانة بشكل الكتروني على عيّنة من الطلبة في الجامعات في محافظة الخليل، إذ قام فريق البحث بتوزيع (٤٠٥) استبانة، واسترجاع (٣٤٨) استبانة صالحة للتحليل.

المعالجة الإحصائية

للوصول إلى أهداف الدّراسة التي تمّ تحديدها، والإجابة عن أسئلة الدّراسة وفرضياتها، تمّ استخراج المتوسطات الحسابيّة، والانحرافات المعياريّة للإجابة عن الأسئلة، واختبار (Pearson) لمعرفة وقياس الصدق الداخلي لفقرات الاستبانة، كما قام فريق البحث باستخراج معامل الثبات كرونباخ ألفا للتأكد من ثبات أداة الدّراسة، وذلك من خلال إدخال البيانات على برنامج التحليل الإحصائي الرزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعيّة (SPSS)، **وقد أعطيت سُلم الإجابة الآتي:**

١- أقل من ٢,٣٤ (منخفضة) ٢- ٢,٣٤-٣,٦٧ (متوسطة) ٣- ٣,٦٧ فأكثر (مرتفعة).

مناقشة النتائج

نتائج سؤال الدّراسة الرئيس: ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة؟

للإجابة عن السؤال الرئيس، تمّ حساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب ستيفن كوفي، وتظهر النتائج كالتالي:

الرقم	المجال	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الدرجة	الترتيب
1	مهارات الرؤية الشخصيّة	3.579	0.819	متوسطة	7
2	مهارات القيادة الشخصيّة	3.713	0.759	مرتفعة	4
3	مهارات الإدارة الشخصيّة	3.786	0.818	مرتفعة	2
4	مهارات القيادة الاجتماعيّة	3.775	0.791	مرتفعة	3
5	مهارات التقمص العاطفيّ	3.708	0.801	مرتفعة	5
6	مهارات التعاون الخلاق	3.808	0.793	مرتفعة	1
7	مهارات التجديد الذاتي المتوازن	3.603	0.852	متوسطة	6
الدرجة الكليّة		**3.701**	**0.710**	**مرتفعة**	

جدول(٥): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب ستيفن كوفي

يظهر من خلال المعلومات الواردة في الجدول (٥) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة، كان بدرجة مرتفعة، بمتوسط حسابي (٣,٧٠١) وانحراف معياريّ (٠,٧١٠)، ويمكن تفسير هذه النتيجة من خلال الدور الرئيس للجامعات، الذي يقوم على أساس إكساب الطلبة المهارات والمعارف اللازمة لانتقالهم لسوق العمل، ويعزو فريق البحث هذه النتيجة التي جاءت بدرجة مرتفعة إلى التطور في احتياجات المجتمع وسوق العمل في القرن الحادي والعشرين، والذي يتطلب تنمية المهارات الشخصيّة لدى الطلبة ليكونوا أعضاء فاعلين ومتميزين في مجتمعهم؛ ولإحداث التنمية المحليّة والمجتمعيّة، ويؤكد ذلك على ما أشارت إليه دراسة الفريجات (٢٠٢٢) إلى أنّ المقررات الدّراسيّة في الجامعة هي أبرز الوسائل التي تؤثر على اكتساب الطلبة للمهارات الحياتية، وكذلك دراسة صالح (٢٠٢٠) التي أظهرت تأثيرًا للبرامج والأنشطة الجامعية على تنمية الشخصيّة للطلبة الجامعيين، وتتفق هذه النتيجة مع دراسة صبطي وغربي (٢٠٢٠) التي أظهرت وجود دور للجامعة في بناء شخصية الطالب وفق احتياجات المستقبل.

وأظهرت نتائج الدّراسة أن مهارة التعاون الخلاق جاءت في المرتبة الأولى بمتوسط حسابي (٣,٨٠٨)، وهو ما يعكس اهتمام الجامعات الفلسطينيّة بتعزيز روح العمل الجماعيّ والمشاركة الفعالة بين الطلبة. ويمكن تفسير هذا التوجه في ضوء السياق الاستعماريّ الذي تعمل فيه الجامعات الفلسطينية، حيث تبرز الحاجة إلى تنمية مهارات الصمود والتكاتف المجتمعي كأولوية وطنية وتربوية. فالتعاون الخلاق ليس فقط أداة تعليميّة، بل هو ممارسة مقاومة تسهم في تعزيز الترابط المجتمعيّ والتغلب على التحديات الجماعية المفروضة من الاحتلال، مثل القيود على الحركة، ونقص الموارد، وتقييد الحريات الأكاديميّة.

ويرتبط هذا مباشرة بما طرحه نموذج كوفي في العادة السادسة (التعاون الخلاق)، التي تؤكد على أهمية التعاون الفعال والاستفادة من التنوع لإيجاد حلول إبداعية. ويبدو أنّ الجامعات الفلسطينيّة تفعل هذا المبدأ من خلال الأنشطة الجماعية، والمشاريع المشتركة، والبرامج التي تشجع الطلبة على التفاعل والعمل ضمن فرق. وفي ظلّ بيئة مضطربة سياسيا وأمنيا، يصبح التعاون الخلاق مهارة حيوية للنجاح الأكاديميّ والاجتماعيّ، كما أنّه يعكس نوعا من المقاومة التربوية الجماعيّة التي تواجه بها الجامعات محاولات التفرقة والتفكيك التي يفرضها الاحتلال.

تليها في الترتيب مهارات الإدارة الشخصيّة (٣,٧٨٦) والقيادة الاجتماعية (٣,٧٧٥)، وهي نتائج تنسجم مع ما طُرح في الإطار النظريّ حول أهمية تطوير الكفايات الذاتيّة والاجتماعيّة للطلبة في السياق الفلسطينيّ. ففي ظلّ التحديات اليومية التي يواجهها الطلبة، وتصبح القدرة على تنظيم الوقت، وضبط النفس، والتفاعل بفعالية مع الآخرين ضرورة للبقاء الأكاديميّ والنفسيّ، وليس مجرد كفاءات مهنية.

أمّا مهارات القيادة الشخصيّة (٣,٧١٣) والتقمص العاطفي (٣,٧٠٨)، فهي تعكس مستويات جيدة لكنها أقل من المتوقع، ممّا يشير إلى وجود فجوة بين التدريب الأكاديميّ وتطوير المهارات الشخصيّة العميقة، مثل الوعي الذاتي وفهم مشاعر الآخرين، رغم أنّها من أهم عناصر نموذج كوفي (خاصة العادة الأولى، والثانية، والخامسة).

في المقابل، جاءت مهارات التجديد الذاتي المتوازن (٣,٦٠٣) ومهارات الرؤية الشخصيّة (٣,٥٧٩) في أدنى المراتب. ويمكن ربط هذا بضعف التركيز في البرامج الجامعيّة على الجوانب المتعلقة بتنمية الذات وتجديد الطاقة النفسيّة والروحيّة والجسديّة، وهي المحاور التي تشكل جوهر العادة السابعة من نموذج كوفي (شحذ المنشار).

كما أنّ انخفاض تقييم مهارات الرؤية الشخصيّة يشير إلى غياب واضح لبرامج التوجيه الشخصيّ والمهنيّ، التي تساعد الطلبة على اكتشاف ذواتهم، وتحديد أهداف حياتهم، وبناء مشروعهم الشخصي. ويبدو أنّ السياق السياسي المأزوم والقيود المفروضة على البيئة التعليميّة قد تجبر الجامعات على التركيز على المهارات الجماعيّة الآنية أكثر من الرؤية الفردية المستقبلية، ممّا ينعكس سلبا على قدرة الطلبة في التخطيط الاستراتيجي لحياتهم المهنيّة والشخصيّة.

إن هذه النتائج تكشف عن أثر مباشر للواقع الاستعماري على توجهات التعليم الجامعيّ الفلسطينيّ، حيث يمنح أولوية لتنمية المهارات الجماعية والتشاركية كوسيلة للصمود والتكيف، بينما تهمش في كثير من الأحيان المهارات الفردية العميقة التي تتطلب بيئة آمنة ومستقرة للنمو، مثل الرؤية الشخصيّة والتجدد الذاتي.

تبرز نتائج الدّراسة أنّ التعليم الجامعيّ الفلسطينيّ يسهم بشكل ملحوظ في بناء شخصية مهنية جماعية فاعلة، تركز على التعاون، والانضباط، والقيادة الاجتماعية. ومع ذلك، تظهر النتائج ضعفا نسبيا في تنمية البعد الذاتي العميق، المرتبط بتحديد الرؤية الشخصيّة والتجدد الداخلي، وهو ما يحتاج إلى إعادة نظر في سياسات التعليم الجامعيّ لتوفير برامج توجيه وتطوير ذاتي تراعي خصوصية السياق الفلسطينيّ، وتعمل على بناء شخصية مهنية متوازنة تمتلك الرؤية، والقيادة، والمرونة النفسيّة في آنٍ واحد.

أمّا الإجابة عن الأسئلة الفرعيّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة حسب نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة، فكانت:

سؤال الدّراسة رقم (١): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة لدى طلبتها؟

للإجابة عنه، قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة لدى طلبتها، وهي كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
1	تبصر الجامعة الطلبة بالتحديات الداخلية	3.641	1.052	72.8%	2	متوسطة
2	تبصر الجامعة الطلبة بالتحديات الخارجية	3.356	0.926	67.1%	8	متوسطة
3	تشجع الجامعة الطلبة على إنتاج ابتكارات جديدة	3.626	1.057	72.5%	4	متوسطة
4	تتبنى الجامعة الأفكار الرياديّة للطلبة	3.569	1.032	71.4%	6	متوسطة
5	تشجع الجامعة الطلبة المبدعين على إظهار إبداعاتهم	3.670	1.026	73.4%	1	مرتفعة
6	تساعد الجامعة الطلبة على ابتكار حلول للمشكلات الحياتيّة التي أتعرض لها	3.560	1.079	71.2%	7	متوسطة
7	تشجع الجامعة المبادرات الذاتية لإنجاح الأعمال الإبداعية	3.572	1.040	71.4%	5	متوسطة
8	تساعد الجامعة الطلاب في اتخاذ المبادرة الشخصيّة في التعلم من خلال الاستكشاف دون التقيد بالتعليمات	3.641	1.076	72.8%	3	متوسطة
الدرجة الكليّة		**3.579**	**0.819**	**71.6%**		**متوسطة**

جدول (٦): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة لدى طلبتها

يتضح من بيانات الجدول أن دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة لدى طلبتها جاء بدرجة متوسطة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٥٧٩) والانحراف المعياريّ (٠,٨١٩). ويعزو فريق البحث هذه النتيجة إلى عدد من العوامل، أبرزها اعتماد بعض الجامعات على المنهج النظريّ في التدريس، مع غياب واضح للأنشطة الإبداعيّة والابتكاريّة التي يمكن أن تسهم في صقل رؤية الطلبة الشخصيّة وتعزيز قدرتهم على تحديد أهدافهم المستقبليّة. كما يشير ذلك إلى ضعف في منظومة الإرشاد والتوجيه داخل الجامعات، ممّا يحدّ من قدرة الطلبة المبدعين على إيجاد بيئة حاضنة تعينهم على التعبير عن إمكاناتهم وتطوير ذواتهم.

وقد بيّنت النتائج أن الفقرة التي تنص على «تشجع الجامعة للطلبة المبدعين على إظهار إبداعاتهم» كانت الأعلى تقييما، لكنها بقيت ضمن المستوى المتوسط، ممّا يدلّ على وجود اهتمام نسبي بالإبداع دون أن يكون مدعوما ببرامج عملية فعالة. كما أن ضعف تقييم الفقرات المتعلقة بـ «تبصير الطلبة بالتحديات الخارجية» و«مساعدة الطلبة على ابتكار حلول للمشكلات الحياتية» يعكس قصورا في ربط التعليم الجامعيّ بالواقع الحياتيّ والمجتمعيّ الذي يعيشه الطلبة.

ومن خلال ربط هذه النتيجة بالإطار النظري وسياق التعليم تحت الاحتلال، يتضح أن غياب تنمية الرؤية الشخصيّة لا يمثل فقط ضعفا تربويا، بل يعدّ فجوة في تمكين الطلبة من مواجهة واقعهم المعقد. فوفقا لنموذج ستيفن كوفي، تعدّ الرؤية الشخصيّة عنصرا محوريا في بناء الشخصيّة الفاعلة (العادة الثانية: «ابدأ والنهاية في ذهنك»)، وهي ضرورية في السياق الفلسطينيّ الذي يتطلب وعيا ذاتيا ومهنيا لمواجهة الاحتلال وتحديات الحياة. من هنا، تصبح الحاجة ملحة لإعادة النظر في البرامج الجامعيّة بما يدعم اكتساب الطلبة لمهارات تخطيط المستقبل، وبناء الأهداف الشخصية، والتفاعل الواعي مع بيئتهم.

سؤال الدّراسة رقم (٢): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الشخصيّة لدى طلبتها؟

للإجابة عنه قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الشخصيّة لدى طلبتها، **وتظهر النتائج كالتالي:**

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
9	تحفز الجامعة على تحمل المسؤوليّة الذاتية للطالب	4.037	0.905	80.7%	1	مرتفعة
10	توفر الجامعة الفرصة لتمكين الطلبة من التكيف مع الظروف الحياتيّة المختلفة	3.684	0.910	73.7%	3	مرتفعة
11	تساعد الحياة الجامعية على تحديد الأهداف المستقبلية للطالب	3.764	0.964	75.3%	2	مرتفعة
12	ساعدتني دراستي في الجامعة على التخطيط للمستقبل المهني	3.649	1.009	73.0%	4	متوسطة
13	توفر الجامعة فرصة تحويل الأفكار إلى واقع حقيقي	3.517	1.053	70.3%	6	متوسطة
14	تهتم الجامعة في بناء شخصية الطلبة في كافة النواحي	3.626	1.012	72.5%	5	متوسطة
الدرجة الكلية		**3.713**	**0.759**	**74.3%**		**مرتفعة**

جدول (٧): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الشخصيّة لدى طلبتها

يتضح من بيانات الجدول (٧) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الشخصيّة لدى طلبتها جاء بدرجة مرتفعة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٧١٣) والانحراف المعياريّ (٠,٧٥٩). ويُعزى ذلك إلى تركيز الجامعات الفلسطينيّة على تحقيق أهدافها التعليميّة في تمكين الطلبة بالمعرفة والمهارات المرتبطة بتخصصاتهم الأكاديمية، ممّا يعزز قدرتهم على التخطيط لمستقبلهم المهني وتحمل المسؤولية عن مسارهم الشخصي. ويرتبط هذا الدور بأهمية تنمية القيادة الذاتية في ظل واقع الاحتلال الإسرائيلي، حيث يواجه الطلبة الفلسطينيون تحديات سياسيّة واقتصاديّة ونفسيّة مركبة تتطلب وعيا ذاتيا عاليا، واتخاذ قرارات مبنية على الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية. وفي هذا السياق، فإن تعزيز مهارات القيادة الشخصيّة يعدّ خطوة حيويّة نحو تمكين الطلبة من الصمود والقدرة على التأثير ضمن بيئتهم المحاصرة.

وقد حصلت الفقرة التي تنص على «تحفز الجامعة على تحمل المسؤولية الذاتيّة للطالب» على أعلى متوسط، وهو ما يشير إلى وعي الجامعات بأهمية إعداد طلبة قادرين على إدارة ذواتهم في مواجهة ضغوط الاحتلال والحياة اليومية. كما أظهرت فقرات أخرى مثل: «تساعد الحياة الجامعية على تحديد الأهداف المستقبليّة للطالب»، و«توفر الجامعة الفرصة لتمكين الطلبة من التكيف مع الظروف الحياتيّة المختلفة» تقييما مرتفعا، وهو ما يعكس جهود الجامعات في تعزيز المرونة النفسيّة ومهارات التأقلم لدى الطلبة، وهي عناصر أساسية في بناء القيادة الذاتية تحت واقع الاحتلال.

ومع ذلك، فإن بعض الفقرات مثل «ساعدتني دراستي في الجامعة على التخطيط للمستقبل المهنيّ» و«تهتم الجامعة في بناء شخصية الطلبة في كافة النواحي» جاءت بتقدير متوسط، ممّا يشير إلى أنّ الجهود الجامعيّة لا تزال بحاجة إلى التكامل والشمول، بحيث تمتد لتغطي الأبعاد النفسيّة والاجتماعيّة والعمليّة لبناء شخصيّة قياديّة متكاملة.

أما الفقرة الأقل تقييما، فكانت «توفر الجامعة فرصة تحويل الأفكار إلى واقع حقيقي»، ما يعكس تحديا واضحا يتمثل في ضعف البيئة الجامعية في دعم تطبيق المبادرات والمشاريع الإبداعية، وهو أمر بالغ الأهمية في السياق الفلسطيني، إذ يحتاج الطلبة إلى فرص حقيقية لترجمة أفكارهم إلى مشاريع تخدم قضاياهم الوطنيّة والاجتماعيّة والمهنيّة.

وبناءً عليه، فإن تعزيز مهارات القيادة الشخصيّة في التعليم الفلسطينيّ لا يعدّ فقط جزءا من التطوير الذاتي، بل يمثل ضرورة استراتيجية لمواجهة الاحتلال، وبناء كوادر شبابيّة قادرة على إحداث تغيير فعال ضمن مجتمعها رغم القيود المفروضة على الحريات والموارد.

سؤال الدّراسة رقم (٣): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبتها؟

للإجابة عنه، قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبتها، وتظهر النتائج كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
15	تساعد الأنشطة الجامعيّة على تمكين الطلبة من إدارة الوقت بشكل فعال	3.856	1.034	77.1%	2	مرتفعة
16	أسهمت الجامعة في زيادة قدرتي على التفكير بطريقة مستقبليّة معمقة	3.718	0.918	74.4%	5	مرتفعة
17	زادت الجامعة من قدرتي على العزم والإصرار للوصول إلى أهداف الطلبة	3.859	1.013	77.2%	1	مرتفعة
18	عززت من قدرتي على إعداد الخطط الاستراتيجية	3.727	0.994	74.5%	4	مرتفعة
19	تساعد الجامعة الطلبة في اتخاذ القرارات المناسبة في المواقف الحياتيّة العملية	3.851	0.999	77.0%	3	مرتفعة
20	تبرز الجامعة أهمية الأعمال المهمة وغير العاجلة في إدارة الوقت للطالب	3.704	1.005	74.1%	6	مرتفعة
الدرجة الكليّة		**3.786**	**0.818**	**75.7%**		**مرتفعة**

جدول (٨): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبتها

يتضح من بيانات الجدول (٨) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبتها جاء بدرجة مرتفعة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٧٨٦) والانحراف المعياريّ (٨١٨,٠). ويعكس هذا التقدير المرتفع جهود الجامعات الفلسطينيّة في تهيئة الطلبة لاكتساب مهارات أساسية في الإدارة الذاتية، مثل إدارة الوقت، وضبط الأولويات، وتعزيز الثقة بالنفس، وهي مهارات باتت تشكل عنصرا محوريا في بناء الشخصيّة المهنية، خاصة في ظلّ ظروف الاحتلال وتقلص فرص التطور الفردي خارج الإطار الأكاديمي.

ويفسر هذا المستوى من التقدير بأنّ الجامعات تنفذ برامج وأنشطة تدريبية تسعى إلى تعزيز قدرة الطلبة على التنظيم الذاتي، وتحمل المسؤوليّة، والالتزام بالأهداف الشخصيّة والمهنيّة. كما تشير النتائج إلى وجود بيئة جامعيّة داعمة تسهم في تحفيز الطلبة على الإصرار والمثابرة، وهي صفات حيوية في السياق الفلسطينيّ، حيث يواجه الطلبة تحديات مضاعفة في طريقهم نحو النجاح، نتيجة للقيود المفروضة على الحركة، والضغوط الاقتصاديّة، والتوترات الأمنيّة.

وقد جاءت الفقرة التي تنص على «زادت الجامعة من قدرتي على العزم والإصرار للوصول إلى الأهداف» بأعلى تقدير، ممّا يعكس اهتمام الجامعات الفلسطينيّة بتنمية الإرادة الداخليّة للطلبة، باعتبارها من أهم أدوات المواجهة الفرديّة والجماعيّة للاحتلال. كما حصلت فقرات أخرى مثل «تمكين الطلبة من إدارة الوقت»، و«مساعدتهم في اتخاذ القرارات الحياتيّة»، و«تعزيز التفكير المستقبلي» على تقديرات مرتفعة، ممّا يعكس توجها نحو إعداد الطالب الفلسطينيّ ليكون فاعلا ومبادرا، لا مجرد متلقٍ في البيئة التعليميّة.

ومع ذلك، فإنّ الفقرة التي نالت أقل متوسط، وهي «تبرز الجامعة أهمية الأعمال المهمة وغير العاجلة في إدارة الوقت»، رغم أنّها حصلت أيضا على درجة مرتفعة، إلا أنّها تكشف عن وجود ضعف نسبي في تمكين الطلبة من إدراك البعد الاستراتيجي لإدارة الوقت، والذي يعدّ جوهريا في إدارة الأولويات ضمن واقع مضطرب مثل الذي يعيشه الطالب الفلسطيني. فغياب التوجيه الكافي في هذا المجال قد يحدّ من قدرة الطلبة على التخطيط بعيد المدى واتخاذ قرارات واعية مبنية على رؤية متكاملة.

وبناء على ما سبق، فإنّ تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبة الجامعات الفلسطينيّة لا تكتسب أهميتها فقط من منظور تطوير الذات، بل تمثل استجابة ضرورية لواقع الاحتلال الذي يفرض على الفرد الفلسطينيّ أن يكون قادرا على ضبط مساره الذاتي وسط الفوضى البنيويّة التي يخلقها الاحتلال، ممّا يجعل هذه المهارات أدوات بقاء ومقاومة ناعمة تسهم في تعزيز الصمود وبناء المستقبل رغم القيود.

سؤال الدّراسة رقم (٤): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الاجتماعيّة لدى طلبتها؟

وللإجابة عنه، قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات الإدارة الشخصيّة لدى طلبتها، وتظهر النتائج كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
21	زادت الجامعة من قدرتي على إقامة علاقات إنسانيّة مع الآخرين	4.075	0.930	81.5%	1	مرتفعة
22	تحث الجامعة الطلبة على التعبير عن أفكارهم بحرية	3.514	0.947	70.3%	6	متوسطة
23	تشجع الجامعة ثقافة النقاش الفعال لدى الطلبة	3.782	1.062	75.6%	3	مرتفعة
24	تركز المقررات الثقافية في الجامعة على ثقافة أنّ النجاح للجميع	3.727	1.075	74.5%	5	مرتفعة
25	تشترط الجامعة التطوع المجتمعيّ شرطا للتخرج	3.802	1.078	76.0%	2	مرتفعة
26	تشجع الجامعة الطلبة على التفكير في المنفعة المتبادلة لجميع الأطراف في حياتهم	3.753	1.036	75.1%	4	مرتفعة
الدرجة الكلّيّة		**3.775**	**0.791**	**75.5%**		**مرتفعة**

جدول (٩): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الاجتماعية لدى طلبتها

يتضح من بيانات الجدول (٩) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات القيادة الاجتماعيّة لدى طلبتها جاء بدرجة مرتفعة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٧٧٥) والانحراف المعياريّ (٧٩١,٠). ويفسر فريق البحث هذه النتيجة بقدرة الجامعات الفلسطينيّة على توفير بيئة جامعيّة تعزز من التفاعل الاجتماعيّ والتواصل الإيجابيّ بين الطلبة، عبر أنشطة أكاديميّة غير صفيّة تنمّي روح الفريق، والتعاون، والانخراط المجتمعيّ، وهي مهارات حيويّة لبناء شخصيّة قياديّة قادرة على التفاعل مع المجتمع بمختلف مستوياته.

وتأتي أهمية هذه النتيجة في السياق الفلسطينيّ الخاضع للاحتلال الإسرائيليّ، حيث تشكل الجامعات واحدة من المساحات القليلة التي تتيح للشباب الفلسطينيّ التعبير عن الذات، والانخراط في قضايا مجتمعه، وتطوير شبكة علاقات داعمة، في ظل واقع سياسيّ واجتماعيّ يحاصر فرص التطور الاجتماعيّ الطبيعيّ. من هذا المنطلق، فإنّ تعزيز مهارات القيادة الاجتماعيّة لا يعدّ ترفا تربويّا، بل هو ضرورة ملحة لتمكين الشباب الفلسطينيّ من ممارسة دور فاعل في مواجهة التحديات الجماعيّة، والمساهمة في بناء مجتمعاتهم رغم القيود البنيوية والسياسية.

وفي المقابل، جاءت الفقرة التي تنص على «تحثّ الجامعة الطلبة على التعبير عن أفكارهم بحرية» بالتقدير الأقل ، حيث حصلت على درجة متوسطة فقط، وهو ما يعكس وجود تحديات بنيويّة وثقافيّة قد تقيد حرية التعبير داخل البيئة الجامعية. فقد تكون هذه النتيجة ناتجة عن وجود قيود اجتماعيّة أو سياسيّة أو مخاوف من الرقابة الأكاديميّة، أو حتى ضعف في توفير المساحات الحرة للتعبير. وهو أمر يستدعي مراجعة من الجامعات الفلسطينيّة لآليات تمكين الطلبة من ممارسة حرية التعبير بأمان، لأنّ هذه المهارة تعدّ ركيزة أساسية في بناء شخصية قيادية واثقة، قادرة على طرح الرؤى والتفاعل النقدي البناء مع محيطها.

وبذلك، فإن النتائج تعكس دورا مهما تقوم به الجامعات الفلسطينيّة في تنمية القيادة الاجتماعيّة، ولكنّها في الوقت ذاته تشير إلى الحاجة لتعزيز بيئة أكثر انفتاحا وحوارا، ممّا يمكن الطلبة من تطوير مهاراتهم القياديّة في سياق يتطلب من القادة الشباب أن يكونوا قادرين على التأثير والتواصل وصناعة التغيير، رغم ما يفرضه الاحتلال من تضييقات على الحياة العامة والتعليمية.

سؤال الدّراسة رقم (٥): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التقمص العاطفي لدى طلبتها؟

وللإجابة على السؤال قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التقمص العاطفي لدى طلبتها، وتظهر النتائج كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
27	توفر الجامعة مصادر المعرفة للطلبة بشكل سهل	3.828	1.032	76.6%	1	مرتفعة
28	تطرح الجامعة تخصصات علمية تسهم في تلبية احتياجات الطلبة	3.566	0.954	71.3%	7	متوسطة
29	يهتم أعضاء هيئة التدريس بإكساب الطلبة المعرفة العلمية في مجال التخصص	3.770	1.021	75.4%	3	مرتفعة
30	أشعر بان قدرتي على فهم ذاتي أصبحت أفضل من خلال دراستي الجامعيّة	3.773	0.947	75.5%	2	مرتفعة
31	تهتم الجامعة في تعزيز مهارات الاعتماد المتبادل من خلال الاستماع	3.684	1.020	73.7%	4	مرتفعة
32	تعلم الجامعة الطلاب على أهمية الاستماع إلى أفكار ومشاعر الآخرين	3.655	0.988	73.1%	6	متوسطة
33	تعمل الجامعة على تعزيز مهارات التعاطف مع الآخرين	3.681	1.004	73.6%	5	مرتفعة
الدرجة الكليّة		**3.708**	**0.801**	**74.2%**		**مرتفعة**

جدول(١٠): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التقمص العاطفي لدى طلبتها

يتضح من بيانات الجدول (١٠) أن دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التقمص العاطفيّ لدى طلبتها جاء بدرجة مرتفعة، بمتوسط حسابيّ (٣,٧٠٨) وانحراف معياريّ (٠,٨٠١). ويُعزى ذلك، بحسب تفسير فريق البحث، إلى توفر مصادر المعرفة والأنشطة التعليميّة التي تدعم هذا النوع من المهارات، حيث تتيح الجامعات فرصا تعليميّة متنوعة تسهم في تنمية الفهم الذاتي والقدرة على إدراك مشاعر الآخرين، عبر برامج تدريبية، وورش عمل، وتفاعل أكاديمي واجتماعي يعزز من هذه القيم.

وتعدّ مهارات التقمص العاطفي ذات أهمية خاصة في السياق الفلسطينيّ، إذ يحتاج الطالب الفلسطينيّ في ظلّ الاحتلال إلى أدوات لفهم ذاته والتفاعل الإيجابيّ مع الآخرين، في بيئة اجتماعيّة متوترة وسياسيّة ضاغطة، ومن هذا المنطلق، فإن تعزيز مهارات التقمص العاطفي لا يرتبط فقط ببناء علاقات صحية ومتوازنة، بل يُعدّ وسيلة لرفع مستوى التماسك المجتمعيّ، وتطوير قدرة الطلبة على العمل الجماعيّ، وفهم السياقات النفسيّة للآخرين، وهو ما يعدّ ضروريا لبناء مجتمع متضامن قادر على الصمود والمبادرة.

وقد أظهرت النتائج أنّ أعلى فقرة حصلت على تقدير من الطلبة هي الفقرة التي تنص على: «توفر الجامعة مصادر المعرفة للطلبة بشكل سهل»، ما يشير إلى أنّ البنية التحتيّة التعليمية تسهم في خلق بيئة تعليمية مرنة، تساعد على تنمية المهارات النفسيّة والاجتماعيّة للطلبة، ومنها مهارات التقمص العاطفيّ، وتعزز هذه النتيجة فقرات أخرى مثل: «أشعر بأن قدرتي على فهم ذاتي أصبحت أفضل من خلال دراستي الجامعيّة»، و«تهتم الجامعة في تعزيز مهارات الاعتماد المتبادل من خلال الاستماع»، ممّا يدل على اهتمام نسبي من الجامعات بتطوير الوعي الذاتي والتفاعل الإنسانيّ. ومع ذلك، جاءت بعض الفقرات بدرجة متوسطة، ومنها الفقرة: «تطرح الجامعة تخصصات علميّة تسهم في تلبية احتياجات الطلبة»، والفقرة: «تُعلم الجامعة الطلاب على أهمية الاستماع إلى أفكار ومشاعر الآخرين»، وهو ما يظهر وجود فجوة في التوازن بين المحتوى الأكاديميّ والبعد الإنسانيّ في البرامج التعليميّة، فعدم توافق بعض التخصصات مع حاجات الطلبة قد يُضعف من شعورهم بالتقدير الذاتي والارتباط العاطفي مع ما يدرسونه، كما أنّ ضعف التركيز على تعليم مهارات الاستماع الفعال يؤثر على بناء علاقات قائمة على التفاهم والاحترام المتبادل.

وعليه، فإنّ الجامعات الفلسطينيّة رغم ما تبذله من جهود واضحة في تعزيز التقمص العاطفيّ، إلا أنّها بحاجة إلى مزيد من التكامل بين الجوانب الأكاديميّة والعاطفيّة في العمليّة التعليميّة، عبر تصميم مناهج تدمج بين المعرفة العقليّة والوجدانيّة، بما يسهم في إعداد شخصية متكاملة، قادرة على التفاعل الإيجابيّ داخل الجامعة وخارجها، ومؤهلة للقيادة والمبادرة في ظلّ واقع الاحتلال الذي يفرض تحديات نفسيّة واجتماعيّة مستمرة على الفرد والمجتمع الفلسطيني.

سؤال الدّراسة رقم (٦): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) لدى طلبتها؟

وللإجابة على هذا السؤال قام فريق البحث بحساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) لدى طلبتها، وتظهر النتائج كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
34	تزيد الحياة الجامعيّة من شـــعوري بالانتماء الوطني	3.862	1.097	77.2%	1	مرتفعة
35	تتطلب الأنشطة الجامعيّة العمل الجماعيّ	3.730	0.915	74.6%	7	مرتفعة
36	تعزز الأنشـــطة الجامعيّة الطلبة على احترام آراء فريق العمل	3.813	1.023	76.3%	5	مرتفعة
37	تسهم اتجاهات الطلبة الفكرية المتنوعة في بناء شخصيّة الطلبة	3.828	0.989	76.6%	4	مرتفعة
38	علمتني الحياة الجامعيّة كسـب ودّ الآخرين حتى لو اختلفت معهم في الرأي	3.836	0.957	76.7%	3	مرتفعة
39	تحث الجامعة على أهمية التواصل والتفاعل مع الآخرين بشكل متكاتف	3.845	0.954	76.9%	2	مرتفعة
40	تدرب الجامعة الطلبة على توزيع المهام داخل الفريق	3.741	0.967	74.8%	6	مرتفعة
الدرجة الكليّة		**3.808**	**0.793**	**76.2%**		**مرتفعة**

جدول(١١): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) لدى طلبتها

يتضح من الجدول (١١) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) لدى طلبتها جاء بدرجة مرتفعة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٨٠٨) والانحراف المعياريّ (٠,٧٩٣). ويفسر فريق البحث هذه النتيجة بأنّ الجامعات الفلسطينيّة تولي أهمية كبيرة لتنمية قيم التعاون والعمل الجماعي لدى الطلبة، من خلال تبنيها لبرامج وأنشطة تركز على الانتماء الوطنيّ، وتعزيز ثقافة التسامح، والتفاعل الإيجابيّ مع الآخرين.

وتعدّ مهارات التكاتف والتعاون الخلاق ذات أهمية محوريّة في السياق الفلسطينيّ، حيث يعيش الطلبة في ظلّ واقع سياسيّ واجتماعيّ ضاغط نتيجة الاحتلال الإسرائيلي، ما يجعل من العمل الجماعيّ والمشاركة المجتمعيّة أدوات رئيسية للصمود، وبناء روح جماعيّة تعزز من قدرة الشباب على المبادرة والتغيير.

وقد أظهرت النتائج أنّ الفقرة الأعلى تقييما كانت: «تزيد الحياة الجامعيّة من شعوري بالانتماء الوطني»، ما يؤكد دور البيئة الجامعية في تعزيز الهوية الوطنية كمحفز للتعاون والتكامل بين الطلبة، خاصة عبر الأنشطة الوطنية أو البرامج الثقافية التي تبرز أهمية التضامن المجتمعيّ في مواجهة الاحتلال.

وتلت هذه الفقرة فقرات مهمة مثل: «تحث الجامعة على أهمية التواصل والتفاعل مع الآخرين بشكل متكاتف»، و«علمتني الحياة الجامعيّة كسب ودّ الآخرين حتى لو اختلفت معهم في الرأي»، ممّا يشير إلى اهتمام الجامعات ببناء قدرات الطلبة على التواصل الفعال وتقبل الرأي الآخر، وهي مهارات ضرورية في مجتمع يتطلب وحدة الصف وتماسكه في ظلّ الانقسامات السياسيّة والضغوط الاجتماعيّة، كما أن الفقرتين: «تسهم اتجاهات الطلبة الفكرية المتنوعة في بناء شخصية الطلبة»، و«تعزز الأنشطة الجامعية احترام آراء فريق العمل»، تدلان على وعي جامعيّ بأهمية التنوع والاختلاف كعامل إثراء لا كحاجز للتعاون.

ورغم ارتفاع المتوسطات الحسابيّة لجميع الفقرات، إلا أنّ فقرتي: «تتطلب الأنشطة الجامعية العمل الجماعيّ» و«تدرب الجامعة الطلبة على توزيع المهام داخل الفريق»، جاءتا بأقل متوسطات نسبية، ممّا يشير إلى محدوديّة التفاعل العمليّ في بيئات العمل الجماعيّ، إذ قد تمارس هذه الأنشطة بشكل شكليّ أو دون تخطيط فعال لتوزيع الأدوار والمسؤوليات، ما يضعف تحقيق الفائدة الكاملة من روح التكاتف والتعاون الإبداعيّ، وقد يعود ذلك إلى نقص في التوجيه أو الإشراف، أو ضعف في تصميم الأنشطة ذات الطابع التشاركيّ الحقيقيّ.وعليه، يمكن القول: إنّ الجامعات الفلسطينيّة تؤدي دورا إيجابيا في تعزيز التعاون الخلاق ضمن بيئة أكاديميّة مقاومة للاحتلال، إلا أنّها تحتاج إلى تعزيز البُعدين: العمليّ والمهاري في هذه الأنشطة، من خلال تبنّي استراتيجيات تعليميّة تفاعليّة، وبرامج تدريبية تركز على حلّ المشكلات وتوزيع الأدوار بشكل واقعيّ، لضمان تنمية فعلية لمهارات التكاتف، بما يهيّئ الطلبة للقيادة المجتمعيّة والمشاركة الفاعلة في بناء مستقبلهم تحت واقع الاحتلال القائم.

سؤال الدّراسة رقم (٧): ما دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التجديد الذاتي المتوازن لدى طلبتها (اشحذ المنشار)؟

وللاجابة عنه، فقد تمّ حساب المتوسط الحسابيّ والانحراف المعياريّ لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التجديد الذاتي المتوازن لدى طلبتها، وتظهر النتائج كالتالي:

رقم الفقرة	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	الترتيب	الدرجة
41	تهتم الجامعة بإجراء المسابقات الرياضيّة بين الطلبة	3.506	1.199	70.1%	7	متوسطة
42	تهتم الجامعة بإجراء المسابقات العلمية بين الطلب	3.422	0.991	68.4%	9	متوسطة
43	تنسيق الجامعة مع المؤسسات المحلية لتوفير التدريب للطلبة	3.678	1.033	73.6%	3	مرتفعة
44	توفر الجامعة دورات علميّة للطلبة لتاهيلهم لبدء حياتهم العمليّة	3.460	1.050	69.2%	8	متوسطة
45	تفسح المجال للطلبة للمساهمة في تطوير مؤسسات المجتمع المحليّ	3.632	1.070	72.6%	5	متوسطة
46	تهتم الجامعة بتنفيذ الأنشطة اللامنهجيّة بين الطلبة لتحفيز المشاركة الاجتماعيّة فيما بينهم	3.572	1.020	71.4%	6	متوسطة
47	تشجع الجامعة الطلبة على أهمية القيادة الحكيمة	3.710	1.024	74.2%	2	مرتفعة
48	تعزز الجامعة الطلبة في القدرة على إجراء التفكير التحليلي	3.670	0.977	73.4%	4	مرتفعة
49	تعزز الجامعة الطلبة في القدرة على الكتابة التعبيريّة في مساقاتها	3.782	1.051	75.6%	1	مرتفعة
	الدرجة الكليّة	**3.603**	**0.852**	**72.1%**		**متوسطة**

جدول(١٢): المتوسطات الحسابيّة والانحرافات المعياريّة لدور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التجديد الذاتي المتوازن لدى طلبتها

يتضح من الجدول (١٢) أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية مهارات التجديد الذاتي المتوازن لدى طلبتها جاء بدرجة متوسطة، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ (٣,٦٠٣) والانحراف المعياريّ (٠,٨٥٢)، ويعزو فريق البحث هذه النتيجة إلى ضعف البنية التحتيّة الداعمة لهذه المهارات، بما يشمل غياب البرامج التعليميّة المتخصصة، وقلّة الفرص التطبيقيّة، والتركيز المفرط على الجوانب النظريّة في مقابل الإهمال النسبيّ للتدريب العمليّ، إلى جانب محدوديّة الدعم الأكاديميّ والإرشاديّ الذين يُفترض أنْ يعززا من قدرة الطالب على التكيف والنمو المستمر.

وتكتسب مهارات التجديد الذاتي المتوازن أهمية مضاعفة في السياق الفلسطينيّ، حيث يواجه الطلبة تحديات نفسيّة، واجتماعية، واقتصادية مركبة ناجمة عن الاحتلال، الأمر الذي يتطلب بناء شخصيّة طلابيّة قادرة على التكيف، وإعادة التوازن، وتطوير الذات في مواجهة هذه الظروف المُعقدة، لذا، فإنّ متوسط التقييم لهذه المهارات يشير إلى فجوة في الأداء الجامعي، ينبغي التعامل معها بجديّة لتطوير نماذج تعليميّة تراعي هذه الخصوصيّة.

وقد أشارت النتائج إلى أنّ الفقرة الأعلى تقييما كانت: «تعزز الجامعة الطلبة في القدرة على الكتابة التعبيريّة في مساقاتها»، ممّا يدل على اهتمام الجامعات بتطوير المهارات اللغويّة والتعبيريّة التي تعدّ مدخلا لفهم الذات والتواصل مع الآخر، وهي خطوة في الاتجاه الصحيح نحو تعزيز أبعاد من مهارات التجديد الذاتي، وتلتها فقرات مثل: «تشجع الجامعة الطلبة على أهمية القيادة الحكيمة»، و«تنسق الجامعة مع المؤسسات المحليّة لتوفير التدريب للطلبة»، التي تعكس وجود محاولات لربط الطلبة بالواقع العملي والمجتمعي، لكنّها تبقى في إطار جهود متفرقة لم ترتقِ إلى مستوى يحدث تحولا شاملا في هذا الجانب.

كما جاءت فقرات أخرى بدرجة مرتفعة مثل: «تعزز الجامعة الطلبة في القدرة على إجراء التفكير التحليلي»، و«تفسح المجال للطلبة للمساهمة في تطوير مؤسسات المجتمع المحليّ»، و«تنفذ الأنشطة اللامنهجيّة لتحفيز المشاركة الاجتماعيّة»، و«توفر الجامعة دورات علمية لتأهيل الطلبة للحياة العملية»، وكلها تشير إلى بوادر جيدة لكنّها تفتقر إلى تكامل واضح واستراتيجية متكاملة لتنمية التجديد الذاتي كمسار منظم ومخطط له داخل البيئة الجامعيّة.

في المقابل، جاءت الفقرة «تهتم الجامعة بإجراء المسابقات العلميّة بين الطلبة» بأقل تقييم، وبدرجة متوسطة، ممّا يدل على ضعف في تفعيل الجانب التحفيزيّ والتنافسيّ الذي يعدّ من أهم محركات التفكير الإبداعيّ والتجديد الذاتيّ، هذا القصور قد يُعزى إلى عدم تخصيص موارد كافية لتنظيم مثل هذه الفعاليات، أو إلى غياب رؤية واضحة لأهمية التنافس العلميّ في تعزيز روح المبادرة والطموح لدى الطلبة، وهي عناصر أساسية في بناء شخصيّة مهنية متجددة ومرنة.

ملخص النتائج

فيما يلي ملخص لأهم النتائج التي خلصت إليها الدّراسة:

١- تشير نتائج الدّراسة إلى أنّ دور الجامعات الفلسطينيّة في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة لدى الطلبة، وفق نموذج ستيفن كوفي في عصر المعرفة، جاء بدرجة مرتفعة بشكل عام، حيث بلغ المتوسط الحسابيّ الكليّ (٣,٧٠١)، وهذا يعكس جهود الجامعات في دعم الطلبة على تطوير مهاراتهم المهنيّة والشخصيّة رغم التحديات المرتبطة بالاحتلال والواقع الاجتماعيّ.

٢- فيما يتعلق بترتيب المهارات من حيث الأهمية والفاعلية، فقد تصدرت مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) القائمة بمتوسط (٣,٨٠٨)، حيث أظهرت الجامعات دورا فعالا في تعزيز قيم الانتماء الوطني، والتواصل الفعال، والتسامح، والعمل الجماعيّ بين الطلبة، ممّا يعزز روح التعاون والتكاتف لديهم.

٣- جاءت مهارات الإدارة الشخصيّة في المرتبة الثانية بمتوسط (٣,٧٨٦)، حيث نجحت الجامعات في تنمية قدرة الطلبة على إدارة الوقت، وزيادة العزم والإصرار لتحقيق أهدافهم، من خلال توفير بيئة تعليميّة داعمة وأنشطة تسهم في بناء مهارات الإدارة الذاتية لديهم.

٤- أمّا مهارات القيادة الاجتماعيّة فحلّت في المرتبة الثالثة بمتوسط (٣,٧٧٥)، مع تركيز الجامعات على تعزيز قدرة الطلبة على إقامة علاقات إنسانيّة إيجابيّة، وتشجيعهم على الانخراط في التطوع المجتمعيّ الذي يعدّ شرطا للتخرج، بالإضافة إلى تعزيز ثقافة النقاش الفعال والتفاعل الاجتماعيّ.

٥- وجاءت مهارات القيادة الشخصيّة في المرتبة الرابعة بمتوسط (٣,٧١٣)، حيث ساهمت الجامعات في تحفيز الطلبة على تحمل المسؤولية الذاتية، ومساعدتهم في تحديد الأهداف المستقبلية، ممّا يعزز استقلاليتهم وقدرتهم على التخطيط لمستقبلهم المهنيّ.

٦- فيما يخصّ مهارات التقمص العاطفيّ، فقد سجلّت الجامعات دورا مرتفعا بمتوسط (٣,٧٠٨)، من خلال تسهيل وصول الطلبة إلى مصادر المعرفة، وتحسين فهمهم لذواتهم، وذلك عبر برامج تعليميّة وورش عمل تركز على تنمية هذه المهارات.

٧- على الجانب الآخر، أظهرت مهارات التجديد الذاتي المتوازن أداءً متوسطا بمتوسط (٣,٦٠٣)، حيث برز الاهتمام بتطوير القدرة على الكتابة التعبيريّة وتشجيع القيادة الحكيمة، لكن مع وجود حاجة واضحة لتعزيز التدريب العمليّ والدعم الأكاديميّ لتطوير هذه المهارات بشكل أفضل.

٨- وأخيرا، جاءت مهارات الرؤية الشخصيّة في المرتبة الأخيرة بمتوسط (٣,٥٧٩)، حيث أظهرت الجامعات دورا متوسطا في هذا الجانب، من خلال تشجيع الطلبة المبدعين على إبراز إبداعاتهم، وتبصيرهم بالتحديات الداخليّة، إلا أنّ هذا المجال يتطلب المزيد من الدعم والبرامج المخصصة لتعزيز الرؤية الشخصيّة لدى الطلبة.

الاستنتاجات

في ضوء تحليل نتائج الدراسة، يمكن استخلاص الاستنتاجات الآتية:

١- تلعب الجامعات الفلسطينيّة دورا مهمًا ومرتفع التأثير في تنمية المهارات الشخصيّة المهنيّة لدى طلبتها وفق نموذج ستيفن كوفي، رغم التحديات الكبيرة التي يفرضها الاحتلال الإسرائيلي على العملية التعليميّة، وهذا يعكس حرص مؤسسات التعليم العالي الفلسطينيّة على إعداد طلبة قادرين على مواجهة ظروف معيشيّة صعبة وتحقيق التميز في ظلّ محدوديّة الموارد والقيود المفروضة.

لقد احتلت مهارات التعاون الخلاق (التكاتف) المرتبة الأولى، ممّا يدّل على قدرة الجامعات في تعزيز قيم العمل الجماعيّ والانتماء الوطنيّ في بيئة تتسم بالتحديات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ويؤكد ذلك أنّ الحياة الجامعيّة تعتبر مساحة مهمة لتطوير روح التضامن والتكاتف، وهو أمر ضروري في ظلّ معاناة الاحتلال وتأثيره على المجتمع الفلسطينيّ.

٢- أظهرت مهارات الإدارة الشخصيّة والقيادة الاجتماعيّة والقيادة الشخصيّة مستويات مرتفعة، ممّا يعكس فاعلية الأنشطة الجامعيّة والمقررات في بناء شخصيات قوية ومستقلة لدى الطلبة، رغم الضغوط النفسية والاجتماعية الناجمة عن الاحتلال، فقد أظهرت النتائج قدرة الجامعات على تمكين الطلبة من إدارة الوقت، واتخاذ القرارات، وتحمل المسؤوليّة، وهي مهارات أساسية لمواجهة التحديات اليوميّة.

٣- جاءت مهارة الرؤية الشخصيّة (كن مبادرا) في المرتبة الأخيرة، ممّا يشير إلى وجود صعوبات في تحفيز الطلبة على تحمل المسؤولية والمبادرة الذاتية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى القيود والضغوط التي يفرضها الاحتلال على حرية الحركة، وغياب فرص واسعة للإبداع والمبادرة في بعض المجالات، ممّا يتطلب تعزيز برامج تشجع الطلبة على الابتكار والمبادرة رغم الظروف الصعبة.

٤- سجلّت مهارات التجديد الذاتي المتوازن مستوى متوسطا، وهو ما يعكس وجود فجوات في دعم الصحة النفسيّة والتجديد الذهنيّ والتوازن بين جوانب الحياة المختلفة لدى الطلبة، نتيجة الظروف الاستثنائيّة التي يعيشونها تحت الاحتلال التي تفرض عليهم ضغوطا مستمرة على المستويين: النفسيّ والاجتماعيّ، وهذا يستدعي من الجامعات تعزيز برامج الدعم النفسيّ والاجتماعيّ لتأهيل الطلبة للنمو المتوازن والمتكامل.

التوصيات

تتلخص توصيات الدراسة بما يلي:

١- تعزيز برامج التدريب العمليّ والمهارات القياديّة: ينبغي على الجامعات الفلسطينيّة تطوير برامج تدريبيّة وورش عمل عمليّة تركز على تنمية مهارات الرؤية الشخصيّة والمبادرة الذاتيّة، مع توفير بيئات داعمة تمكن الطلبة من التعبير عن أفكارهم وتنفيذ مشاريعهم، رغم القيود التي يفرضها الاحتلال.

٢- تعميق دعم مهارات التعاون والانتماء الوطنّي: يوصى بمواصلة تعزيز قيم العمل الجماعي والتكاتف الوطنيّ من خلال أنشطة جامعية تفاعلية ومبادرات تطوعية، لما لها من أثر كبير في بناء شخصيّة طلابيّة قويّة ومتضامنة قادرة على مواجهة تحديات الاحتلال.

٣- تطوير برامج الإدارة الشخصيّة والقيادة الاجتماعيّة: ينبغي تعزيز مهارات إدارة الوقت واتخاذ القرار، إضافة إلى تعزيز مهارات التواصل الفعال والتفاعل الاجتماعي، من خلال إدخال مناهج وأنشطة تعليمية تركز على هذه الجوانب لتعزيز استقلالية الطلبة وقدرتهم على التعامل مع المتغيرات المحيطة.

٤- توفير الدعمين: النفسيّ والاجتماعيّ لتعزيز التجديد الذاتيّ: لا بدّ من توفير خدمات دعم نفسيّ واجتماعيّ للطلبة داخل الجامعات، تشمل جلسات إرشاد نفسيّ، ودورات في إدارة التوتر والتجديد الذهنيّ، لمساعدتهم على تحقيق توازن صحيّ بين متطلبات الحياة الأكاديميّة والشخصيّة في ظلّ الظروف الاستثنائية للواقع الفلسطينيّ.

٥- تعزيز التنسيق مع مؤسسات المجتمع المحليّ والقطاعات المختلفة: توصى الجامعات بالتعاون مع المؤسسات المحليّة والمنظمات المجتمعيّة لتوفير فرص تدريبيّة وعمليّة تسهم في تطوير مهارات الطلبة، وتحسين فرصهم في سوق العمل، مع التركيز على البرامج التي تتيح للطلبة المشاركة الفاعلة في خدمة المجتمع.

المراجع

المراجع العربية

- الأرميح، صالح. (٢٠٢١). دور الأنشطة اللاصفية في تعزيز قيم المواطنة لدى الطالبات الجامعيات. *مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة*، ٦٢، ٧١–١٢٦، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

- بودردابن، أمينة. (٢٠٢٠). التعليم والمهارات الحياتيّة. *مجلة العلوم الإنسانية*، ٣١(٣)، ٢٢١–٢٣٠.

- الحارثي، سارة. (٢٠٢١). المهارات الحياتيّة وعلاقتها بالضغوط النفسيّة لدى طالبات الجامعة في ضوء بعض المتغيرات. *مجلة شباب الباحثين في العلوم التربوية*، ٨، ٩٣٩–٩٩١.

- حمارشة، عبد السلام. (٢٠٢٢). أسباب ضعف مشاركة طلبة جامعة القدس في الأنشطة الطلابية اللامنهجية من وجهة نظرهم. *مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١(١). https://aquja.alquds.edu/index.php/arts/article/view/125.

- حمدان، أحمد. (٢٠٢٠). دور الجامعات الفلسطينيّة في تعزيز الكفايات الحياتيّة لدى طلبتها في ضوء متطلبات سوق العمل. *مجلة الجامعة الإسلاميّة للدراسات التربويّة والنفسيّة*، ٢٨(٣).

- الخالص، بعاد، & زيدان، عفيف. (٢٠٢٢). دور عباءة الخبير في تنمية الذكاء الطبيعي لدى الملتحقين برياض الأطفال في مدينة القدس. *مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١(١). https://aquja.alquds.edu/index.php/arts/article/view/122.

- صالح، عماد. (٢٠٢٠). دور البرامج والأنشطة اللاصفية في تنمية شخصية الطالب الجامعي: الأهمية والمتطلبات. *مجلة الآداب*، ١٣٤، ٥١٣–٥٣٨، جامعة بغداد.

- صبطي، عبيدة، & غربي، صباح. (٢٠٢٠). دور الجامعة في بناء شخصية الطالب وفق متطلبات المستقبل: دراسة ميدانيّة بجامعة بسكرة – الجزائر. *المجلة العلمية للعلوم التربويّة والصحة النفسيّة*، ٢(٢)، ٤٥–٦٤.

- ابن عبد الظاهر، شيماء. (٢٠١٥). الأنشطة الطلابيّة وتنمية المهارات الحياتيّة لطالبات الجامعة. *المجلة العلميّة للخدمة الاجتماعيّة*، ١(٢)، ٤٢٣–٤٣٧.

- عرمان، إبراهيم، & شحاتيت، إنتصار. (٢٠٢٢). تصوّرات معلمي الرياضيات في محافظة الخليل حول المنصات التعليمية الإلكترونية. *مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١(١). https://aquja.alquds.edu/index.php/arts/article/view/124.

- علي، إيمان يوسف. (٢٠١٩). درجة امتلاك طلبة جامعة النجاح الوطنية للمهارات الحياتيّة من وجهة نظرهم وعلاقتها ببعض المتغيرات. *مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية)*، ٢٣(١)، ٨٣–١١١.

- عليان، خالد. (٢٠١٧). التعليم في فلسطين تحت الاحتلال: تحديات البقاء ومقاومة الإخضاع. *مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية*، ٣٤، ١٧–٣٩.

- عليان، سميرة. (٢٠٢٠). التربية والتعليم والبحث العلمي. في: دليل إسرائيل العام. *مؤسسة الدراسات الفلسطينية*. تمّ الاسترجاع من https://www.palestine-studies.org/ar/node/1650136.

- الفريجات، لبنى غازي. (٢٠٢٢). معوقات دمج المهارات الحياتيّة في المناهج التدريسية من وجهة نظر طلبة كلية علوم الرياضة في جامعة مؤتة. *مؤتة للبحوث والدراسات: سلسلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة*، ٣٧(٤)، ٥٧–٩٢.

- الفقهاء، سام، & عبد الناصر نور. (٢٠٢٢). الآثار الاقتصادية للتعلم الإلكتروني الجامعي خلال جائحة كورونا ١٩. *مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١(١). https://aquja.alquds.edu/index.php/arts/article/view/121.

- الفوزان، هيفاء. (٢٠١٩). الأنشطة الجامعيّة ودورها في تعزيز المسؤولية الاجتماعية لدى طالبات جامعة شقراء. *مجلة اتحاد الجامعات العربيّة للبحوث في التعليم العالي*، ٣٩(٣)، ٨٩–١١٨.

- محمود، يوسف. (٢٠٠٨). *رؤى جديدة لتطوير التعليم الجامعيّ*. الدار المصريّة اللبنانيّة.

المراجع الإنجليزية

- Bengrait, N. (2020). *Covey's Seven Habits of Highly Effective People Impact on EFL Students' Educational Achievements*.
- Covey, S. (2007). *The Seven Habits of Highly Effective People*. Franklin Covey Co, USA.
- Holly, D. (2002, October 11-13). *Engineering the Seven Habits.* Management Issues and Challenges in the Third Millennium.
- Jarad, N. et al (2020). A study of the seven habits among teachers of highly educated and motivated people in government schools in Palestine, *Edukasi Journal,* 14(2), 100-108.
- Kapur, R. (2020). *Professional skills: Fundamental in promoting well-being and goodwill.* University of Delhi, India.
- Kerjcie, R. V. & Morgan, D. W. (1970). Determining sample size for research activities. *Educational and Psychological Measurement*, 30(3), 607–610. https://doi.org/10.1177/001316447003000308.
- Lian, C. Hua, T. & Mohd-Said, N. (2021). The impact of Stephen Covey's 7 habits on students' academic performance during the COVID-19 pandemic, International Journal of Learning. *Teaching and Educational Research*, 21(1), 109-126.
- Shetty. S. & Flosy & Souza (2021). Impact Of Stephen Covey's Seven Habits On The Academic Achievement Of Secondary School Students. *International Journal Of Multidisciplinary Educational Research*, 10, 1(1), 105-108.

Research Articles

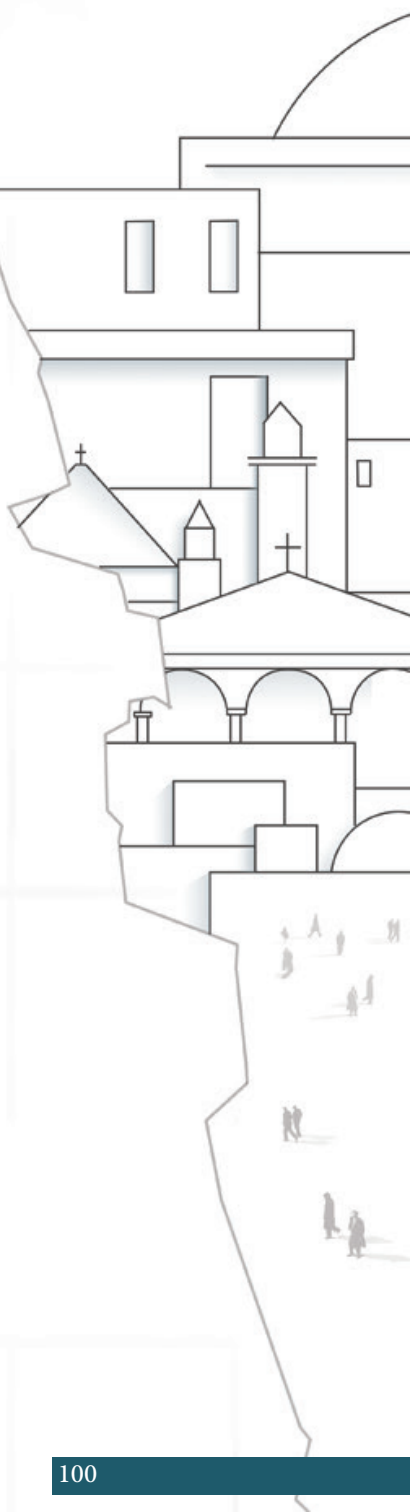

Abu-Al-Keshek, Esra'a. Al-Quds Journal for Academic Research
Humanities and Social Sciences 2 (1): 101- 117, 2026.
DOI: https://doi.org/10.47874/pzczzg34

Predicting Decision-Making among Graduate Students in Jordanian Universities through Cognitive Dissonance, Perceived Self-Efficacy, and Thinking Styles

Esra'a Abu-Al-Keshek

ABSTRACT

This study aims to examine the effect of cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles on the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities. The descriptive correlational predictive method is employed using validated measurement instruments applied to a sample of 383 male and female graduate students enrolled in Jordanian universities. The findings reveal a statistically significant effect of perceived self-efficacy and thinking styles on graduate students' ability to make various academic and personal decisions related to their university life, whereas cognitive dissonance shows no significant influence on decision-making when perceived self-efficacy and thinking styles are taken into account. The results emphasize the importance of strengthening students' self-confidence and encouraging diverse thinking styles within higher education environments, as enhancing these psychological and cognitive factors may improve graduate students' decision-making abilities and reduce the potential impact of cognitive dissonance.

Keywords: Cognitive dissonance, perceived self-efficacy, thinking styles, decision-making, Jordanian Students.

التنبؤ باتخاذ القرار لدى طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية من خلال التنافر المعرفي والكفاءة الذاتية المدركة وأنماط التفكير

إسراء أبو الكشك

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أثر التنافر المعرفي والكفاءة الذاتية المدركة وأنماط التفكير في القدرة على اتخاذ القرار لدى طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية. ولتحقيق أهداف الدراسة، يُستخدم المنهج الوصفي الارتباطي في إطاره التنبؤي، من خلال تطبيق أدوات قياس تم التحقق من صدقها وثباتها على عينة مكوّنة من (٣٨٣) طالبًا وطالبة من طلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية. وتكشف نتائج الدراسة عن وجود أثر ذي دلالة إحصائية لكل من الكفاءة الذاتية المدركة وأنماط التفكير في قدرة طلبة الدراسات العليا على اتخاذ القرارات الأكاديمية والشخصية المرتبطة بحياتهم الجامعية، في حين لا يُظهر التنافر المعرفي أثرًا ذا دلالة إحصائية في القدرة على اتخاذ القرار عند أخذ متغيري الكفاءة الذاتية المدركة وأنماط التفكير في الحسبان. وتؤكد النتائج أهمية تعزيز ثقة الطلبة بقدراتهم الذاتية وتشجيع تبني أنماط تفكير متنوعة داخل بيئات التعليم العالي، إذ يسهم تنمية هذه العوامل النفسية والمعرفية في تحسين قدرة طلبة الدراسات العليا على اتخاذ القرارات بصورة أكثر فاعلية، والحد من التأثيرات المحتملة للتنافر المعرفي على عملية اتخاذ القرار.

الكلمات المفتاحية: التنافر المعرفي، الكفاءة الذاتية المدركة، أنماط التفكير، اتخاذ القرار، الطلبة الأردنيون.

الدكتورة إسراء أبو الكشك، علم النفس التربوي، الجامعة العربية المفتوحة، للمراسلة: Israa.abualkishik@hotmail.com.
المعرف الرقمي للباحث: orcid.org/0009-0000-5603-8807.
حقوق النشر ٢٠٢٦، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس. (www.alquds.edu).

Dr. Esra'a Abu-Al-Keshek, Department of Educational Psychology, Arab Open University, Jordan.
For correspondence: Israa.abualkishik@hotmail.com, orcid.org/0009-0000-5603-8807.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

INTRODUCTION

Decision-making is one of the most essential cognitive and behavioral processes that individuals use to navigate complex life situations. For graduate students, decision-making is an endeavor that bears heightened importance because it impacts academic advancement, career goals/job-finding, and emotional/mental health. It is not just the act of deciding between two or more options. Rather, it is an ongoing psychological process that is merely influenced by internal and external factors. These factors interact in various dynamic ways. Many studies have pointed out that making good decisions requires some combination of cognitive and emotional factors to influence how people perceive a situation, weigh alternative options, and assess consequences (Woreta et al., 2025; Li et al., 2020). Of these specific factors, cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles have received much attention as the variables that may help to explain why people may exhibit variance in their ability to demonstrate good decision-making (El Othman et al., 2020).

Cognitive dissonance, a concept introduced by Leon Festinger in 1957, is the inner discomfort that arises when there is a discrepancy between beliefs, attitudes or behaviors. This discomfort generates psychological tension that drives individuals to alleviate, through attitudinal change or justifying behavior. Within the context of academic life, cognitive dissonance emerges when students must make decisions with conflicting goals, such as when students need to choose between upholding academic integrity versus the pressure of achieving high grades, or between safe and risky career paths. Research has demonstrated that with high levels of dissonance, students may become muddled, stressed, and exhibit irrational decision-making tendencies as they focus on restoring internal alignment instead of objectively evaluating options (Berthet, 2022). When cognitive dissonance prevails in the decision process, individuals may also opt out of choosing any option that creates discomfort, even if doing so is considered advantageous in the long run.

Conversely, perceived self-efficacy is a psychological resource that can help individuals navigate these inner conflicts. Based on Bandura's (1986, p. 391) social cognitive theory, self-efficacy is defined as the belief in one's capabilities to organize and execute the courses of action required to produce given attainments, or in other words, a person's belief about their competence to succeed. For instance, high self-efficacy individuals will be more willing to interact with an external environment (i.e., faced with challenges) and do so without hesitation, while low self-efficacy will express anxiety, self-doubt, and avoidance behavior when confronting challenges. In the academic domain, for instance, students with higher self-efficacy will better be able to grapple with uncertainty, make alternative configurations, and come to a resolution through logical reasoning as opposed to emotional distress. Zhou et al. (2015) stated that higher self-efficacy is associated with better academic decision making and provides more resilience to students faced with difficult academic decisions. In addition, Schunk and DiBenedetto (2020) argued, self-efficacy provides motivation and cognitive capacity to make informed and steady decision-making when the stakes are heightened.

Thinking styles are also an important aspect that can impact the decision-making process. Sternberg (1988) describes thinking styles in his theory of mental self-government as preferred ways of processing information, problem solving, and collaborating with the environment. However, they do not measure intelligence and rather describe how individuals are able to use their cognitive resources. For instance, analytical thinkers often use facts and logical evidence to make decisions, while creative thinkers will gauge decision-making based on instinct, imagination, and unorthodox associations (Phillips et al., 2016; Zhang & Sternberg, 2019). Berthet (2022) proposed thinking style is a seminal contributor to how an individual handles cognitive conflict, and that some styles (like analytical or reflective) are designed to accommodate systematic reasoning and ambiguity tolerance. It can also affect how students engage with feedback, evaluate risk, and formulate an academic pathway.

The skill set of strong decision making has grown into one of the highest priorities of graduate students in college today. Graduate students make a variety of academic decisions, along with a multitude of other professional and personal decisions affecting their schooling, future careers, and development overall. As universities continue to place increasing importance on making sound decisions, it is still not well defined what causes the range of students' decision-making skills to vary; this is evident in particular with Arab and Jordanian students. Much of the previous research on decision-making has separately addressed factors like cognitive, psychological, or behavioral variables. However, very little focus has been given to studying how cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles interact and work together to impact decision-making outcomes. This gap has been observed particularly in graduate education, where students deal with complex situations, require evaluation, have confidence in their abilities, and need to balance competing alternatives. Therefore, the goal of this current study is to examine the psychological and cognitive aspects of graduates' decision making at Jordanian universities holistically.

By focusing on the predicted role of cognitive dissonance, perceived self-efficacy and thinking styles within one full model, this study will add significant insights to educational psychology and also provide practitioner implications through its contribution to understanding the process that governs decision-making among graduate students at Jordanian universities.

Research Problem and Importance

Not all decisions made by graduate students are the same. Some students hesitate and experience emotional turmoil, while others exhibit confidence, logic, and perseverance in the face of uncertainty. Ineffective decision-making ability may result from a combination of cognitive information processing methods, psychological stress, and personal beliefs in self-efficacy. Students who had imposed on themselves high degrees of cognitive dissonance but also high levels of self-efficacy, were able to tolerate their discomfort and resolve conflicting data and arrived at reasonable decisions (Köpeczi-Bócz, 2025). Analysis of rational thought type seemed to lessen the negative effect of dissonance in producing self-control and rational reasoning. Instead of expanding considerably, the literature of the total population of coping procedures is growing, but not a great deal of primary data is available from the Jordanian environment. The contradictions produced by cognitive dissonance theory may be increased by the inhibiting situations characteristic of Jordanian universities-such as social pressures, competitive situation in higher education, economic pressures-that aggravate the problem. Because of these stresses and strains, it may be increasingly difficult for students to remain confident with the tenacity to struggle with this cognitive dissonance when faced with the opinions about their competence. However, the way students think may moderate or then multiply these problems. For colleges it is significant to comprehend this interaction to ascertain in what way they can assist students in developing cognitive flexibility and emotional stamina to make wiser decisions. Therefore, the study aims at identifying the cognitive and psychological factors that have the most significant influence over students in their ability to make informed, self-confident, and balanced choices.

Research Questions

This study seeks to answer the following questions:

1. To what extent does cognitive dissonance predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?
2. To what extent does perceived self-efficacy predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?
3. To what extent do thinking styles predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?
4. To make suggestions that assist colleges in creating plans to enhance students' capacity for making decisions and adjusting to academic life.

Research Objectives

1. To investigate how graduate students in Jordanian universities make decisions in relation to cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking patterns.
2. To examine how these variables interact and identify the combinations that most accurately forecast making wise decisions.
3. To make suggestions that assist colleges in creating plans to enhance students' capacity for making decisions and adjusting to academic life.

Significance of the Study

Theoretical Significance: The theoretical significance of this study lies in its contribution to the literature on educational psychology, particularly in the areas of cognitive processes, motivational beliefs, and decision-making in higher education. The study integrates three theoretical perspectives: cognitive dissonance theory (Festinger, 1957), social cognitive theory and perceived self-efficacy (Bandura, 1986), and thinking styles theory (Sternberg, 1997). Through this integration, the study provides a broader explanation of how cognitive conflict, belief in personal ability, and preferred ways of thinking may contribute to students' decision-making ability. Our study further extends this theoretical discussion to the Jordanian university context where empirical research on interaction of these variables is scant. Hence it may enrich the academic literature by offering a predictive model that links cognitive dissonance, perceived self-efficacy and thinking styles with decision making among graduate students.

Practical Significance: How does this work in practice? This study has implications for how universities, academic advisors, faculty members, and student counseling centers can utilize its findings. Given that perceived self-efficacy and thinking styles predict one's decision-making ability, higher education institutions could benefit from

developing training programs that enhance students' confidence in their abilities and cultivate flexible ways of thinking. Such programs may consist of decision-making workshops, reflective learning assignments, problem-solving exercises, and counseling sessions designed to assist students in analyzing alternatives, managing ambiguity, and making balanced choices. The findings may even be useful for curriculum designers and graduate program administrators who want to incorporate activities that promote analytical, creative, and applied thinking within academic coursework. In sum, the research offers helpful suggestions about improving students' educational fit, career readiness, and mental health and well-being.

Definition of Study Terms

Cognitive Dissonance: Cognitive dissonance reflects a state of psychological discomfort experienced by individuals holding two or more beliefs, attitudes or behaviors that are inconsistent, resulting in an internal tension that triggers efforts to restore consistency (Stone & Taylor, 2021). In the present study, cognitive dissonance means the extent of inner clash between graduate students when faced with opposing concepts, views, or options about academic and life decisions.

Perceived Self-Efficacy: Perceived self-efficacy refers to an individual's belief in his or her ability to organize and execute the actions required to achieve desired outcomes and successfully deal with challenges and demanding situations (Woreta et al., 2025). In this study, perceived self-efficacy refers to graduate students' confidence in their ability to make effective decisions and successfully manage academic and personal responsibilities.

Thinking Styles: Thinking styles refer to individuals' preferred ways of processing information, solving problems, and making decisions. They reflect how people use their cognitive abilities rather than the level of those abilities themselves (Phillips et al., 2016). In the present study, thinking styles refer to the cognitive preferences adopted by graduate students when evaluating alternatives, analyzing information, and making decisions in academic and personal contexts.

Decision-Making Ability: Decision-making ability refers to an individual's capacity to evaluate available alternatives, anticipate consequences, and select the most appropriate course of action to achieve specific goals (Berthet, 2022). In this study, decision-making ability refers to the competence of graduate students in making informed, balanced, and effective academic and personal decisions.

Graduate Students: Graduate students are students enrolled in postgraduate programs, including diploma, master's, and doctoral degrees, in accredited Jordanian universities during the academic year 2024/2025. For the purposes of this study, graduate students are those who participated in the study sample and completed the research instruments.

Previous Studies

Several studies have also investigated the psychological and cognitive factors involved in decision-making in educational settings. They offer valuable insight into how self-efficacy, thinking styles and cognitive processes impact one's ability to make good choices. In their meta-analysis, Phillips et al. (2016) found that analytical, rational thinking was positively correlated with effective decision making while intuitive, experiential thinking led to varied results depending on the context. It was concluded that thinking styles are an important cognitive factor when evaluating alternatives and responding to uncertainty. In El Othman et al.'s (2020) study, there were strong links found between emotional intelligence, personality and decision-making styles amongst medical students in Lebanese universities. Emotionally intelligent and cognitively savvy students made better choices, demonstrating the importance of psychology in academic decision making. Schunk and DiBenedetto (2020) reviewed the role of social cognitive theory in education and stressed that "self-efficacy" is among the strongest predictors of student achievement, motivation, persistence, and other decision making behaviors. These authors argue that if students believe in themselves they will be better able to take on challenges confidently and make informed choices.

Woreta et al. (2025) studied the mediating role of self-efficacy and outcome expectations between peer context and academic engagement. They concluded that self-efficacy made a significant contribution to students' academic engagement and behavioural outcomes. Li et al. (2025) found that there was a significant positive relationship between growth-oriented thinking and career decision-making self-efficacy, which means that students who have higher growth-oriented thinking are more confident in making career-related decisions and facing future work challenges. Köpeczi-Bócz (2025) studied how cognitive-dissonance-based educational approaches affect learning motivation and conceptual changes. Their study revealed that approaches to education grounded in cognitive dissonance can motivate students to challenge existing beliefs, enhance their desire to learn, and engage with tasks in meaningful ways. Woreta et al. (2025) investigated the mediating role of self-efficacy and outcome expectations in the link between peer context and academic engagement among university students. Applying the tenets of Social Cognitive Theory, they reported that self-efficacy significantly mediated the association between environmental

influences and student engagement in academics. Furthermore, individuals with greater self-efficacy beliefs were more prone to engage in academic tasks and demonstrate favorable learning outcomes. Li et al. (2025) studied the association between growth-oriented thinking and career decision-making self-efficacy among university students. They found that there was a significant positive correlation between growth-oriented thinking and career decision-making self-efficacy, as those with higher growth-oriented beliefs expressed stronger confidence in making career decisions and managing potential future obstacles. This suggests that positive mindsets can increase students' conviction when faced with crucial life and career choices.

Karakuş (2024) looked at the connection between cognitive flexibility and critical thinking dispositions among university students. There was also a significant positive link between cognitive flexibility and students' tendency toward critical thinking. Cognitive flexibility significantly contributed to predicting critical thinking disposition. These results imply that students who can adapt to various circumstances possess better capacities to analyze data and draw logical conclusions, both of which are integral elements of successful decision-making. Dawson et al. (2024) examined how cognitive skills, thinking patterns, convictions, and methods of reasoning impact evidence-based decision-making. Their work illustrated how distinctive mental characteristics significantly shape individuals' approaches to processing information and making choices. Masi et al. (2025) explored whether use of a career counseling app improved career decision-making self-efficacy for university students. Results indicated statistically significant increases in student self-efficacy in relation to self-assessment, goal setting, planning, and problem-solving. They concluded that increasing self-efficacy enhances students' sense of confidence when choosing their educational and occupational pathways. While Sofyan et al. (2022) studied the role of self-efficacy in students' career decision-making process during online learning. It was discovered that self-efficacy significantly mediated the relation between educational factors and career decision-making whereby students with high levels of self-efficacy had more confidence and were more effective in making career-related decisions.

Finally, the previous studies have proven the importance of self-efficacy, thinking styles, and cognitive factors on shaping students' academic behaviors and decision-makings, however, none has tried to examine cognitive dissonance, perceived self-efficacy and thinking styles all at once within a single predictive model especially for Jordanian graduates' university.

Theoretical Background

Decision-Making

Decision-making is one of the core cognitive processes whereby people identify a problem, assess alternatives, predict outcomes, and choose the best option. Decision-making is not simply choosing. Instead, it is a complex process involving cognition, emotion, motivation, and contextual knowledge. Decision making has been considered a crucial skill in educational psychology because it influences students' achievement, personal adjustment, vocational plans, and ability to handle challenges during higher education (Berthet, 2022). Decision-making skills are subject to cognitive biases, past experience, feelings, and the manner in which individuals perceive and interpret data. Critical thinking, emotion regulation, and rational evaluation are therefore necessary for informed decisions. In the university setting, decision-making becomes even more important for graduate students who have to decide about research areas, specializations, careers, time allocation, and life goals, all while coping with uncertainties and competition among multiple options. Cognitive load and self-relevance dictate how students look for information and make decisions, particularly if those decisions affect them personally (Li et al., 2020). Graduate students might not base decisions solely on logical reasoning, but rather on how vital the decision is to their goals, values, and identity. Decision-making ability is also closely related to psychology and cognition. Students with high perceived self-efficacy are more likely to tackle tough decisions confidently and tenaciously. They tend to think that they can assess the situation, exert some degree of control over what happens, and handle the consequences of their choices. On the other hand, students with low self-efficacy might vacillate, shirk responsibility, or depend too much on others when making decisions. Similarly, thinking styles influence how students approach decision situations. Analytical thinkers might weigh up options, creative thinkers might look for novel solutions, and practical thinkers might consider the practicality of each option. Phillips et al. (2016) note that thinking styles are highly related to decision-making as they influence how individuals interpret information and cope with ambiguity. Cognitive dissonance also plays an essential role in decision-making. When faced with alternatives that challenge their beliefs, values, or past choices, students might become uncomfortable. This could cause them to rationalize their decisions, shy away from counterarguments, or alter their views to resolve the inconsistency. Stone & Taylor (2021) assert that dissonance can affect attitude change and evaluation after a decision, particularly if individuals perceive themselves as being responsible for the choice. In this regard, decision-making is both a rational and a psychological process driven by the desire for consistency and justification. Based on this theoretical view, decision-making

in the present study is understood as a multidimensional ability that reflects students' capacity to evaluate alternatives, manage internal conflict, trust their personal abilities, and use suitable thinking strategies. It is influenced by the interaction between cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles. Therefore, examining decision-making among graduate students provides a useful framework for understanding how psychological confidence, cognitive flexibility, and internal conflict contribute to students' academic and personal choices in Jordanian universities.

Cognitive Dissonance

In 1957, Leon Festinger introduced the term cognitive dissonance to explain an individual's discomfort that arises when beliefs, values, and behaviors are inconsistent. This tension creates mental conflict that pushes individuals to offset the dissonance by changing a belief, behavior, or perception (Festinger, 1957). The discomfort resulting from cognitive dissonance leads to justification or rationalization of beliefs and behaviors rather than more rational revisions. In educational and social settings, this phenomenon explains and manifests why individuals sometimes come to determine behaviors that reinforce their self-image as opposed to behaviors that are more rational (Li et al., 2020). Cognitive dissonance occurs whenever a person's behavior conflicts with their values or when behavior is determined by new information threatens their previously accepted knowledge. For example, a student may hold the value of honesty but cheat on an exam, indicating dissonance between moral values and dishonesty. Someone who believes in environmental sustainability but consumes single-use plastics will also feel dissonance and will work to rebalance this discomfort by finding excuses for the behavior or changing behaviors altogether (Morvan & O'Connor, 2017). The motivation for self-consistency fuels a large amount of behavior and is also closely linked to decision-making.

Forms of Cognitive Dissonance

Depending on the nature of the disagreement, cognitive dissonance can manifest in a variety of ways. When someone's actions go against their morals or beliefs, it's known as behavioral dissonance. One instance of this kind of dissonance is when someone believes in corporate social responsibility but buys a product made unethically (Hinojosa et al., 2017). When people come upon fresh information that contradicts their preexisting opinions or understanding, information dissonance occurs. Reading studies that contradict one's health views, for example, might lead to conflict and resistance to change (Stone et al. 2021). After choosing between two desirable or undesirable options, a third kind of dissonance known as choice dissonance manifests. After making a decision, the person may experience post-decisional distress due to regret or ambiguity regarding the alternative they did not choose.

Causes of Cognitive Dissonance

Cognitive dissonance can arise for a number of reasons. The coexistence of opposing attitudes or views is one of the main causes. Holding two opposing ideas causes tension, which in turn causes mental remodeling, according to Matz and Wood's (2005) research. According to Berthet (2022), dissonance frequently occurs when a person realizes that their beliefs and actions are inconsistent, such as when they value health but keep smoking. According to Ajzen (2012), one of the main causes of people acting against their moral or social values is behavior-value conflict. Dissonance can also result from being exposed to new knowledge, particularly if it challenges preexisting beliefs or thought processes.

The Effect of Cognitive Dissonance on Decision-Making

Cognitive dissonance has a profound effect on the ease and quality of decision-making. When experiencing dissonance, individuals change their cognition more frequently to restore internal cognitive harmony rather than attempt to make an objective decision. This change can often lead to rationalizing or self-justifying to protect self-esteem and contributes to biases in decision-making (Gökcek et al., 2019). For instance, if a person purchased a costly item, the individual would later rationalize the purchase as a "long-term investment" in order to lessen the discomfort of possible overspending (Pandey & Jamwal, 2015). Dissonance also drives selective exposure to information. Folks will choose to avoid facts that oppose their cognition (beliefs) and favor data that supports their decision to alleviate dissonance. The reinforcement from dissonance contributes to cognitive bias by reducing the opportunity to learn from the information accessed or avoided. In education, dissonance affects decision-making when students seek feedback on assessment practices, create personal learning goals, and engage in learning to become accustomed to change. Students who have dissonance between personal learning goals, and those imposed by the educational context, explain away constructive or critical feedback, enhance their beliefs about themselves, or enhance their perception of the importance of the task or assessment to minimize the dissonance or defend their self-esteem (Woreta et al., 2025). While cognitive dissonance certainly can cause irrationality and poor

decisions, it can motivate self-reflection and personal growth at the same time, just as long as the dissonance can be metabolized in a productive or constructive manner. Recognizing cognitive dissonance and processing can motivate and encourage learners to develop deeper reasoning and more balanced decision-making.

Perceived Self-Efficacy

As a component of his social cognitive theory, Albert Bandura first proposed the idea of perceived self-efficacy in the late 1970s. He described it as a person's confidence in their capacity to carry out the tasks required to accomplish particular goals (Bandura, 1989, 2012). Self-efficacy is a reflection of how people believe they can use their skills effectively in specific contexts rather than a direct measure of skill (Bandura, 2001). Good decision-making requires confidence, perseverance, and motivation, all of which are enhanced by high levels of perceived self-efficacy (Panadero et al., 2017).

Components and Determinants of Self-Efficacy

Bandura found that self-efficacy is influenced by a number of things. The first is mastery experience, when confidence is bolstered by prior accomplishments and undermined by recurrent failures (Shen et al., 2021). Secondly, social modeling is the process by which people think they can accomplish a task by seeing others do it effectively (Bandura & Wessels, 1997). The third element is verbal persuasion, wherein one's self-esteem is raised by constructive or encouraging criticism. Since emotions like excitement, fatigue, or anxiety can either improve or worsen perceived ability, the mental and physical state comes in last (Bandura, 1978).

The Importance of Perceived Self-Efficacy

Human desire and perseverance are strongly impacted by self-efficacy (Shen et al., 2021). People with high levels of self-efficacy set more ambitious goals, work more, and recover from setbacks faster (Bronstein, 2014; Al-Adwan, 2025). It works to succeed academically. DeNoyelles et al. (2014) state that self-efficacy is associated with belief in one's own talents, control over learning, and perseverance in overcoming obstacles. These factors promote excellent academic adaptation and performance in the long run (Al-Adwan, 2025).

The Self-Efficacy of Making a Decision

The self-efficacy is the perceived capability of a student to understand the possibilities and possible dangers; such a concept has a strong impact on the decision-making process (Yang and Delgado, 2025). Yang and Delgado posit that students with high rates of self-efficacy are better placed to address complex issues, make calculated risk-taking, and make fair judgments. They see problems not as threatening but as something that can be dealt with, making them impervious to uncertainty. Fan (2016), said that in contrast to people with a weak sense of self-efficacy who are often guarded or too dependent on external advice, people with a high sense of self-efficacy make better long-term decisions that have more permanence (Joo, et al., 2021). Therefore, the study of self-efficacy will help students to make decisions which are independent, assured and reasonable in their strategies of higher education (Al-Adwan, 2025).

Thinking Styles

Thinking styles are the preferred ways in which individuals reason, process information, and form opinions (Bond, et al., 2021). The concept of mental self-government, first proposed by Robert Sternberg in 1988, remains one of the most significant theories in this field. His theory holds that thinking styles are not measures of intelligence but rather cognitive preferences that reflect how people approach problems and organize their thoughts (Sternberg, 1997). These learning styles have an impact on people's problem-solving, opinion-forming, and interaction with their environment in addition to their academic achievement (Zimmerman, & Schunk, 2021; Zhang, 2002).

Classifications of Thinking Styles

The hypothesis was expanded by means of multiple types of thinking styles distinguished by Sternberg and Zhang (2014). Legislative kind thinkers prefer autonomy in their jobs and develop new plans or laws. Executive type thinkers prefer structure and follow established protocols. Judicial type thinkers evaluate and examine ideas critically before making decisions. Local type thinkers are concerned with specifics and tasks while global type thinkers are concerned with broadly defined ideas. While external type thinkers cooperate with others, the internal thinkers prefer working independently. The progressive thinkers search for innovation and change, while the conservative thinkers stick to the tried and the true ones (Kałuszyńska, 2023).

Types of Thinking Styles

Sternberg's theory was extended by Dennin et al. (2022), who distinguished four primary modes of thought that

are relevant to learning and decision-making scenarios. Analytical thinking involves breaking down problems into their constituent parts and analyzing them systematically. The goal of creative thinking is to generate original, novel ideas. Critical thinking necessitates objective analysis and reasoning in order to form sound judgments. When applying information to actual problems, practical thinking places a higher priority on usefulness and efficiency. Each style contributes differently to the quality and adaptability of decision-making.

The Importance of Thinking Styles in Education and Decision-Making

Cognitive flexibility and problem-solving abilities are improved through different thinking styles in educational settings. Creative thinkers provide new views and creative ideas, while analytical thinkers are often adept at tasks that require logical thinking (Clarke et al., 2010). Practical thinkers convert theoretical knowledge into useful results, whereas critical thinkers objectively assess arguments and supporting data to facilitate logical decision-making. Students who are exposed to a variety of thinking patterns are better able to comprehend complicated material and adjust to a variety of learning situations, according to Zhang (2002). These decision-making styles affect whether people base their decisions on experience, intuition, or reasoning, which in turn affects the caliber and results of their decisions.

Study Variables

The present study includes two types of variables: independent variables and one dependent variable. The independent variables are cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles. These variables are examined as psychological and cognitive predictors that may influence graduate students' ability to make decisions. The dependent variable is decision-making ability. It represents the outcome variable that the study seeks to predict through the independent variables. Thus, the study model can be presented as follows:
Independent variables: cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles.
Dependent variable: decision-making ability among graduate students at Jordanian universities.
In this study, cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles are expected to contribute to explaining variation in decision-making ability. Multiple linear regression is used to examine the predictive effect of these independent variables on the dependent variable.

Method and Procedures

Study Methodology: To achieve the objectives of the current research, the descriptive correlational predictive method was followed, which is the method that relies on studying the phenomenon as it exists in reality and is concerned with describing it accurately and expressing it qualitatively or quantitatively.
Study population: The current study community consisted of all university students in Jordanian universities during the second semester of the academic year (2024/2025), estimated at 11,814 male and female students.
Exploratory study sample and sampling method: Before starting to apply the study tools to the basic sample, they were applied to a survey sample that was randomly selected by 50 male and female students, to verify the validity, stability and suitability of the tool for application.
Basic study sample and sampling method: After the researcher worked to limit the study community, four public and private universities in Jordan were randomly selected, from which a convenience sample of 383 male and female students was selected. based on Stephen Thompson's equation to determine the sample size representing the study community, and Table 1 shows the characteristics of the sample:

In terms of		NO	percentage
Gender	Male	172	44.91%
	Female	211	55.09%
University	Yarmouk University	94	24.54%
	Al-Ahliyya Amman University	88	22.98%
	The University of Jordan	102	26.63%
	Irbid National University	100	26.11%
Specialization	Arts and Sciences	93	24.28%
	Educational and Psychological Sciences	105	27.42%
	Business	94	24.54%
	Sharia	91	23.76%
Total		**383**	**100%**

Table 1: Distribution of study sample individuals

Study tool: To achieve the study objectives and answer its questions, four research tools were developed: the cognitive dissonance scale based on the study of Toprak et al., (2026) with (19) Items. The perceived self-efficacy scale based on the study of (Maddux, 2016) and the study of (Bronstein, 2014) with 14 items. The decision-making ability scale was based on the studies by El Othman et al. (2020) and Fan (2016), comprising 18 items. The thinking styles scale was based on the study of (Berthet, 2022) and the study of (Phillips et al., 2016) with 15 items.

Verifying the validity of the tool for application: The procedures used to verify the validity and reliability of the study tool included: A) Apparent validity was verified by presenting the study tools to five arbitrators who are faculty members in Jordan's public and private universities to obtain their opinions about how valid the tool is for application. Further verification included identifying the degree to which each item belongs to the axis it associates with, and the clarity and linguistic integrity of each item. The agreement rate (80%) between the arbitrators was relied upon to keep, delete or modify the Item. Accordingly, the wording of some Item was altered and some Item were deleted.

The researcher evaluated the construct validity of each of the measures used in this study by administering them to a survey sample of 50 students, comprising both males and females. Correlation coefficients between each Item score and the total score of the associated Scale were calculated. The results of these correlation coefficients are reported below.

1. Cognitive dissonance Tool

NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients
1	.644**	8	.463**	15	.824**
2	.629**	9	.709**	16	.643**
3	.678**	10	.819**	17	.608**
4	.675**	11	.844**	18	.813**
5	.409**	12	.833**	19	.723**
6	.344**	13	.826**		
7	.436**	14	.805**		
**Statistically significant at (0.01)					

Table 2: Correlation coefficients of item scores with the total score of the cognitive dissonance Tool

It is clear from Table 2 that the correlation coefficients of the scores of the cognitive dissonance Tool items with the scale scores ranged between (0.344-0.844). All correlations were statistically significant at the 0.01 level.

2. Perceived Self-Efficacy Tool

NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients
1	.838**	6	.783**	11	.725**
2	.837**	7	.736**	12	.673**
3	.822**	8	.723**	13	.723**
4	.795**	9	.736**	14	.682**
5	.792**	10	.721**		
**Statistically significant at (0.01)					

Table 3: Correlation coefficients of item scores with the total score of the Perceived Self-Efficacy Tool

It is clear from Table 3 that the correlation coefficients of the scores of the self-efficacy scale items with the scores of the scale itself ranged between (0.673-0.838), and from a statistical perspective, all correlations were statistically significant at the 0.01 level.

NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients
1	.608**	7	.578**	13	.439**
2	.683**	8	.568**	14	.489**
3	.677**	9	.646**	15	.719**
4	.645**	10	.573**	16	.483**
5	.464**	11	.579**	17	.712**
6	.594**	12	.491**	18	.714**
**Statistically significant at (0.01)					

Table 4: Correlation coefficients of item scores with the total score of the Decision-making ability tool

It is clear from Table 4 that the correlation coefficients of the scores of the decision-making ability scale items with the scores of the scale itself ranged between (0.439-0.719). All correlations were statistically significant at the 0.01 level.

4. Thinking Styles Tool

NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients	NO	Correlation coefficients
1	.719**	6	.613**	11	.759**
2	.794**	7	.712**	12	.592**
3	.855**	8	.499**	13	.422**
4	.732**	9	.546**	14	.535**
5	.519**	10	.672**	15	.618**

****Statistically significant at (0.01)**

Table 5: Correlation coefficients of item scores with the total score of the Thinking Styles Tool

Table 5 shows that the correlation coefficients between the individual items of the decision-making thinking styles scale and the total scale scores ranged from 0.422 to 0.855. All correlations were statistically significant at the 0.01 significance level. These results indicate that the instrument demonstrates adequate construct validity and that its items are appropriate for use with the main study sample.

B. Reliability

The reliability of the study instrument was assessed using Cronbach's alpha coefficient and the split-half method. The analysis was conducted on a pilot sample of 50 male and female students. The results are presented in Table 6.

NO	Domain	Item NO	Cronbach's alpha	split-half
1	Cognitive Dissonance	19	0.902	0.738
2	Perceived Self-Efficacy	14	0.962	0.922
3	Decision-Making Ability	18	0.922	0.836
4	Thinking Styles	15	0.924	0.825

Table 6: Reliability coefficients of the study tools

It is clear from Table 6 that Cronbach's alpha reliability coefficient for the cognitive dissonance scale reached (0.902), while its split-half reliability coefficient reached (0.738). In addition, the Cronbach's alpha reliability coefficient for the perceived self-efficacy scale reached (0.962), while its split-half reliability coefficient reached (0.922). In addition, the Cronbach's alpha reliability coefficient for the decision-making ability scale reached (0.922), while its split-half reliability coefficient reached (0.836). In addition, the Cronbach's alpha reliability coefficient for the thinking styles scale reached (0.924), while its split-half reliability coefficient reached (0.825). Since all values were above the acceptable level of 0.65, the instrument was considered sufficiently stable and appropriate for use, in line with (Audeh, 2022; Karakuş, 2024).

Statistical methods used to process the study data

The multiple linear regression analysis test was relied upon to determine the extent to which the independent variables could influence the dependent variable of the main study question. The instrument's validity was examined using Pearson's correlation coefficient, while its reliability was assessed through Cronbach's alpha coefficient and split-half stability.

Study Results

First question: Does cognitive dissonance predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?

To answer this question, a simple linear regression test was used as follows:

Model		R	R^2	Unstandardized Coefficients		Standardized Coefficients	f	Sig.	t	Sig.
				B	Std. Error	Beta				
1	(Constant)	0.018	0.00	52.223	2.967		.118	.731	17.603	.000
	cognitive dissonance			-.017	.048	-.018			-.344	.731

a. Dependent Variable: decision making ability

Table (7): Simple linear regression analysis to examine the ability of cognitive dissonance to predict decision-making among graduate students at Jordanian universities

The results of the simple linear regression analysis in Table 7 show that cognitive dissonance does not predict decision-making ability among graduate students at Jordanian universities. The correlation coefficient (R = 0.018) indicates a very weak relationship between the two variables, and the coefficient of determination (R^2 = 0.000) means that cognitive dissonance did not explain any significant portion of the variance in decision-making ability. The non-standard regression coefficient (B = -0.017) and the standard regression coefficient (Beta = -0.018) indicate that changes in cognitive dissonance do not correspond to significant changes in decision-making ability. The results also show a t-value of -0.344 at a significance level of (Sig. = 0.731), which is not statistically significant at the significance level ($\alpha \leq 0.05$). Therefore, cognitive dissonance does not have a statistically significant predictive power for decision-making ability among the study participants.

Second question: Does perceived self-efficacy predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?
To answer this question, a simple linear regression test was used as follows:

Model		R	R^2	Unstandardized Coefficients		Standardized Coefficients	f	Sig.	t	Sig.
				B	Std. Error	Beta				
1	(Constant)	0.934	0.873	1.304	1.049		2614.51	.000	1.244	.214
	perceived self-efficacy			1.103	.022	.934			51.132	.000
a. Dependent Variable: decision making ability										

Table (8): Simple linear regression analysis to examine the ability of self-efficacy to predict decision-making among graduate students at Jordanian universities

The results in Table 8 indicate that perceived self-efficacy strongly and statistically predicts decision-making ability among graduate students at Jordanian universities. The correlation coefficient (R = 0.934) and the coefficient of determination (R^2 = 0.873) mean that perceived self-efficacy explained 87.3% of the variance in decision-making ability. The regression coefficient for perceived self-efficacy was also positive and statistically significant (B = 1.103, β = 0.934, t = 51.132, $p < 0.001$), and the model as a whole showed high statistical significance (F = 2614.51, $p < 0.001$). This confirms that perceived self-efficacy has strong predictive power for decision-making ability among the study participants. Therefore, the prediction equation is as follows:
decision-making = 1.304+1.103* perceived self-efficacy.

Third question: Do thinking styles predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?
To answer this question, a simple linear regression test was used as follows:

Model		R	R^2	Unstandardized Coefficients		Standardized Coefficients	f	Sig.	t	Sig.
				B	Std. Error	Beta				
1	(Constant)	0.802	0.643	7.818	1.777		686.152	.000	4.399	.000
	thinking styles			1.019	.039	.802			26.195	.000
a. Dependent Variable: decision making ability										

Table (9): Simple linear regression analysis to examine the ability thinking styles to predict decision-making among graduate students at Jordanian universities

The results of the simple linear regression analysis in Table 9 show that thinking styles significantly predict decision-making ability among graduate students at Jordanian universities. The correlation coefficient (R = 0.802) and the coefficient of determination (R^2 = 0.643) indicate that thinking styles explained 64.3% of the variance in decision-making ability. The regression coefficient was positive and statistically significant (B = 1.019, β = 0.802, t = 26.195, $p < 0.001$), and the model as a whole showed high statistical significance (F = 686.152, $p < 0.001$). Therefore, thinking styles can be considered an important variable capable of predicting decision-making ability among the study participants.
Therefore, the prediction equation is as follows: decision-making = 7.818+1.019*thinking styles.
Fourth question: Do cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles collectively predict the decision-making ability of graduate students at Jordanian universities?

Model	R	R Square	Adjusted R Square	Std. Error of the Estimate	F	Sig
1	.936[a]	.876	.875	7.37614	891.945	.001*
Predictors: (Constant), Thinking styles, cognitive dissonance, Perceived self-efficacy						

Table (10): Model Summary for Correlation coefficient value (R2) and f-test

Table 10 shows the significance of the proposed model in examining the effect of cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles among graduate students in Jordanian universities on their ability to make decisions. This result is figured out from the (Sig) value of the (F) test, which was less than (0.05). Table 7 also shows that the independent research variables can explain the variance in the variable of ability to make decisions by a percentage of (87.6). This confirms that these variables affect graduate students' ability to make various decisions.

Model		Unstandardized Coefficients		Standardized Coefficients	t	Sig.
		B	Std. Error	Beta		
1	(Constant)	-.698-	1.482		-.471-	.638
	cognitive dissonance	.018	.017	.019	1.063	.288
	Perceived self-efficacy	1.014	.038	.859	26.674	.001*
	Thinking styles	.117	.041	.092	2.860	.004
a. Dependent Variable: decision-making ability						

Table (11): Multiple linear regression analysis to examine the effect of independent variables on the decision-making ability

Table 11 shows that there is a statistically significant effect for both the perceived self-efficacy variable and the thinking styles variable on the ability of graduate students to make various decisions. This result can be assumed from the (Sig) value of the (t) test, which was less than (0.05), which means that the effect is not due to chance. In contrast, the cognitive dissonance variable did not have a statistically significant effect on decision-making when the variables of perceived self-efficacy and thinking styles were entered into the analysis. That is, cognitive dissonance did not add effect when controlling for the other two variables, which reflects the nature of the relationship between these variables.

Therefore, the prediction equation is as follows:

decision-making =–0.698+0.018 cognitive dissonance +1.014Perceived self-efficacy+0.117Thinking styles.

DISCUSSION

The present study examined the combined effect of cognitive dissonance, perceived self-efficacy, and thinking styles on the ability of graduate students in Jordanian universities to make decisions. The regression analysis suggested that the perceived self-efficacy and thinking styles had a statistically significant positive influence on decision-making, while cognitive dissonance had no significant direct effect on decision-making when the other two variables were in the model. Overall, the model explained a substantial amount of variance in students' decision-making ability (R^2= 0.876), which suggests that psychological and cognitive factors are essentially the foundation of students' competence in decision-making.

Having an effect on decision-making that was statistically significant, and that is consistent with Bandura's (1986, 1989) social cognitive theory, self-efficacy refers to the degree to which individuals believe in their abilities related to tasks. Individuals who firmly believe in their abilities are more likely to face challenges with a sense of confidence and stick-to-itiveness (Joo, et al., 2021; Sofyan, et al, 2022; Dawson, et al., 2024). Self-efficacy acts as a psychological asset that not only helps students affirm their confidence as a productive process but also confirms their confidence in their competence to organize and perform the actions required. Graduate students with higher self-efficacy are more likely to encounter problems as manageable problems and continue to engage with problems rather than withdraw from them. Additionally, with confidence, graduate students are better able to effectively evaluate alternatives, which is necessary in decision-making (Bronstein, 2014; Panadero et al., 2017; Sofyan, et al, 2022; Dawson, et al., 2024).

Additionally, the findings corroborate previous research that shows self-efficacy positively contributes to important aspects of decision-making such as cognitive control, cause and effect for analytical reasoning, and emotional regulation (deNoyelles et al., 2014; Li, et al., 2025). Students that are confident in their abilities typically do not struggle with as much anxiety and wavering when making decisions, allowing them to centralize their attention on the quality of reasoning as opposed to fear of failure (Berthet, 2022; Woreta, et al., 2026; Sofyan, et al., 2022).

Furthermore, self-efficacy enables students to take responsibility for their decisions and be future-oriented and goal-directed rather than behaviors and outcomes being attributed to outer influence. Findings also support the works of Fan (2016) and Yang and Delgado (2025) that self-efficacy as a variable increases a person's willingness to take calculated risks and would choose to make decisions that would be more sustainable and long-term.

Furthermore, as to the thoughts that had previously developed, the findings confirmed the influence of thinking styles as a proxy for decision-making ability. Following Sternberg's theory of mental self-government (1997), students can vary in how they process information and problem solve, and these characteristics may have implications on decision-making processes. The category of analytical thinking focuses on evaluating information in a systematic manner and, at the same time, relies on evidence-based reasoning (Zhang & Sternberg, 2019; Li, et al., 2025). Individuals categorized as creative thinkers focus on finding novel and unorthodox solutions whilst individuals defined as practical thinkers solely concern themselves with the application of the decision in real contexts. The substantial influence found to exist regarding thinking style, when contrasted with past research and literature, seemed to place heavier weight on analytical thinking.

On academic, professional, and personal levels, graduate students usually have to make tough choices that need knowledge and cognitive flexibility. People can take the same issue in different angles due to their ability to think independently. As an illustration, analytical people facilitate thorough analysis of the data, creative people encourage the idea of imagination, and practical people help to perform the abstract concepts practically. This multimodal approach is especially beneficial in situations when decisions that require independent judgment and adaptability (like in the case of postgraduate education) have to be made (Clarke et al., 2010; Masi, et al., 2025). However, the cognitive dissonance could not make a significant direct impact on decision-making when self-efficacy was considered as well as cognitive styles. This finding is indicative that cognitive resources, namely self-efficacy or cognitive flexibility, can mitigate the pain of conflicting beliefs or values in line with the findings of Festinger (1957) that cognitive dissonance produces unease. According to Acharya et al. (2018), people with high self-efficacy have increased coping abilities to overcome the stress caused by dissonance, thus decreasing the chances that their judgment is influenced (Joo, et al., 2021). Also, individuals with a high level of complex or reflective thinking are able to rationalize the dissonant evidence, thus alleviating the resultant distress (Bandura, 1989; Masi, et al., 2025). These results support the hypothesis provided by Morvan and O'Connor (2017) that the processing of cognitive dissonance can be done both by means of emotional regulation and logical thinking. The non-significant effect of dissonance on decision outcomes could be explained by the distribution of the direct effect by the dominance of an indirect one. According to Lunitel and Timsina (2024), dissonance often influences motivation and affective aspects of the action, but not the resulting decision.

Based on this, cognitive dissonance may also act as an aspect of situational influence that elicits introspection or mental conflict, but this influence can be reduced by the presence of cognitive resources, including self-efficacy and cognitive flexibility (Shen et al., 2021; Masi, et al., 2025). Graduate students can effectively develop coping mechanisms, which allow them to integrate dissonant information without undermining the quality of decisions due to their academic training.

These results indicate to the perception that the process of decision making is not purely deliberative, reasoning style, but it is a form of interaction between belief systems, emotional mediational processes, and favored ways of thinking.

Self-efficacy and styles of thinking may function as protective or enabling constructs that buffer the stresses connected with cognitive dissonance (Joo, et al., 2021; Masi, et al., 2025). Students with self-efficacy and who utilize more than one type of style of thinking can critically understand knowledge which contains contradictory elements and maintain a state of psychological equilibrium during their decision-making process. The interrelationship of the three constructs is therefore not a simple linear relationship but may be seen as a dynamic experience in which self-efficacy, and more than one constructive style of thinking, function to mediate the possible stress of dissonance the student might experience. This dynamic is especially relevant in the Jordanian experience. Graduate students engaged in the educational programs of any of the Jordanian universities do so in an environment that is very competitive and that urges high standards and offers little professional opportunity (Al-Hassan & Al-Barakat in 2023). The self-efficacy and the adaptive types of thinking will assist the students in these instances of pressure to remain confident and rational as they make decisions concerning educational, occupational or life choices (Joo, et al., 2021; Dawson, et al., 2024). The limited impact of cognitive dissonance might also be indicative of cultural norms of a nature, which encourage group decision-making and value-based thinking that foster consistency of beliefs and actions on the part of its members, and thus reduce the likelihood of experiencing very intense manifestation of dissonance.

The study's conclusion is in good agreement with the theoretical frameworks that were previously described as well as the empirical framework that was previously discussed. Sternberg's theory of thinking styles reveals how cognitive diversity affects reasoning and decision-making, while Bandura's social cognitive theory offers helpful insight into the essential role that perceived self-efficacy plays in motivating human behavior (Joo, et al., 2021; Masi, et al., 2025; Dawson, et al., 2024). But according to Festinger's theory of cognitive dissonance, the degree of dissonance is lessened when internally contradicting information comes in the same environment as people's cognitive complexity and evaluation abilities grow. The ways in which the factors interacted show how crucial intellectual flexibility and psychological resilience are to college students' decision-making.

CONCLUSION

The results of the research showed that perceived self-efficacy and thought styles were identified as the two best predictors of decision-making ability on the part of graduate university students from Jordanian universities. This is in line with Bandura's (1986, 1989) social cognitive theory which suggests that the perceptions concerning oneself efficacy determine in part how they think, feel, and react to difficult situations. For example, students who had elevated levels of self-efficacy did not only continue in their effort longer and show self-assurance, but also controlled feelings and were evaluative of alternatives prior to arriving at important decisions. Similarly, thought style furnishes part of the functional area of evaluation by its support of Sternberg's (1997) theory of mental self-government which indicated that our more favorable cognitive behaviors either analytical, creative, or practical determined how we think of and how we process information and problems. The ability of students to utilize alternative cognitive behaviors suggests that students may incorporate logic, creativity, and practicality in the decisional making process. However, cognitive dissonance, while meaningful in a theoretical sense in terms of Festinger's (1957) conceptualization, failed to show any relationship when both perceived self-efficacy and thought styles were evaluated. This spectrum of self-assurance, when separated from the uncertainty associated with dissonance, is suggestive of the importance of self-efficacy and the necessity to exercise cognitive flexibility as the psychological buffers with respect to the dissimilarities which suggest that something insertional value has in all likelihood been lost as a result of vacillation. It is effective if students incorporate cognitive flexibility and high perceived self-efficacy in their means of dealing with values which may present cognitive dissonance as well be individually structured.

Based on this, it was shown that higher education decision-making is a complex interplay of belief, cognition, and emotion. Thinking styles provide the cognitive path which students follow in evaluating, contrasting and choosing among options while self-efficacy provides the emotional and motivational base which fuels persistence and belief. Together these imply a healthy and solid psychological base for persistent aware decision making assuredly and when uncertain or confronted with conflicting values. Therefore, there are two important educational implications for expanding self-efficacy and flexible thinking patterns in the context of students of Jordanian universities because they are confronted with academic competition, limited employment opportunities and strong social pressures. Enhanced decision making, psychological health, autonomy, healthy risk-taking and persistence can be accomplished through programs focusing on reflective practice, metacognitive awareness and flexible thinking. Subsequent research incorporating self-efficacy, or thinking styles, emotional intelligence, cultural values and stress coping strategies as linked to decision making in different academic and cultural contexts would enhance this body of work.

RECOMMENDATIONS

This study recommends the following:

1. Jordanian universities should develop training programs aimed at enhancing graduate students perceived self-efficacy through mentoring, guided decision-making activities, and opportunities for mastery experiences, given the significant role of self-efficacy in improving decision-making ability.
2. Faculty members should integrate instructional strategies that encourage the use of diverse thinking styles, particularly analytical, critical, and creative thinking, to support students in evaluating alternatives and making informed decisions.
3. Graduate programs should incorporate practical decision-making exercises and problem-solving tasks that allow students to apply different cognitive approaches to real academic and professional situations.
4. University counselling and student support centers should provide workshops that strengthen students' confidence in their abilities and promote adaptive thinking patterns that facilitate effective decision-making.
5. Future research is recommended to examine additional psychological and contextual variables, such as emotional intelligence, resilience, stress management, and academic motivation, to develop a broader understanding of the factors influencing decision-making among graduate students.

ACKNOWLEDGEMENT

I would like to extend gratitude to the faculty members and academic experts who reviewed the research instruments and provided valuable comments and suggestions that enhanced the validity and quality of the study tools. Also, special thanks are offered to the participating universities for facilitating the data collection process and supporting the completion of this research.

REFERENCES

- Ajzen, I. (2012). *Attitudes and persuasion: Classic and contemporary approaches*. Psychology Press.
- Ajzen, I. (2012). Values, attitudes, and behavior. In S. Salzborn, E. Davidov, & J. Reinecke (Eds.), *Methods, theories, and empirical applications in the social sciences: Festschrift for Peter Schmidt*, 33–38. VS Verlag für Sozialwissenschaften. https://doi.org/10.1007/978-3-531-18898-0_5.
- Al-Adwan, A. S., Al-Adwan, A., Li, N., Fauzi, M. A., Jafar, R. M. S., Habibi, A., & Falahat, M. (2025). Immersive learning meets theory: Modeling eduverse adoption in higher education. *Journal of Information Technology Education: Research*, 24, 42–68. https://doi.org/10.28945/5669.
- Al-Hassan, M., & Al-Barakat, Z. (2023). Graduate student stress and academic decision-making in Jordanian universities. *International Journal of Educational Psychology*, 12(2), 144–160. https://doi.org/10.1016/ijepsy.2023.12.004.
- Audeh, A. (2022). *Measurement and evaluation in the teaching process* (5th ed.). Umayya Publishing and Distribution House.
- Bandura, A. (1978). Reflections on self-efficacy. *Advances in Behaviour Research and Therapy*, 1(4), 237–269. https://doi.org/10.1016/0146-6402(78)90012-7.
- Bandura, A. (1986). *Social foundations of thought and action: A social cognitive theory*. Prentice-Hall.
- Bandura, A. (1989). Regulation of cognitive processes through perceived self-efficacy. *Developmental Psychology*, 25(5), 729–735. https://doi.org/10.1037/0012-1649.25.5.729.
- Bandura, A. (1990). Perceived self-efficacy in the exercise of personal agency. *Journal of Applied Sport Psychology*, 2(2), 128–163. https://doi.org/10.1080/10413209008406426.
- Bandura, A. (1999). Social cognitive theory: An agentic perspective. *Asian Journal of Social Psychology,* 2(1), 21–41. https://doi.org/10.1111/1467-839X.00024.
- Bandura, A. (2001). Social cognitive theory: An agentic perspective. *Annual Review of Psychology,* 52, 1–26. https://doi.org/10.1146/annurev.psych.52.1.1.
- Bandura, A. (2012). On the functional properties of perceived self-efficacy revisited. *Journal of Management*, 38(1), 9–44. https://doi.org/10.1177/0149206311410606.
- Bandura, A. (2013). *Self-efficacy: The exercise of control*. W. H. Freeman.
- Bandura, A., & Wessels, S. (1997). *Self-efficacy*. Cambridge University Press.
- Berthet, V. (2022). The impact of cognitive biases on professionals' decision-making: A review of four occupational areas. *Frontiers in Psychology*, 12, Article 802439. https://doi.org/10.3389/fpsyg.2021.802439.
- Bond, M., Bedenlier, S., Marín, V. I., & Händel, M. (2021). Emergency remote teaching in higher education: Mapping the first global online semester. *International Journal of Educational Technology in Higher Education*, 18, Article 50. https://doi.org/10.1186/s41239-021-00282-x.
- Bronstein, J. (2014). The role of perceived self-efficacy in the information-seeking behavior of library and information science students. *The Journal of Academic Librarianship*, 40(2), 101–106. https://doi.org/10.1016/j.acalib.2014.01.003.
- Clarke, T. A., Lesh, J. J., Trocchio, J. S., & Wolman, C. (2010). Thinking styles: Teaching and learning styles in graduate education students. *Educational Psychology*, 30(7), 837–848. https://doi.org/10.1080/01443410.2010.506003.
- Dawson, C., Brown, G., & Chinn, C. (2024). Evidence-based scientific thinking and decision-making in everyday contexts. *Cognitive Research: Principles and Implications*, 9, 78. https://doi.org/10.1186/s41235-024-00578-2.
- Dennin, A., Furman, K., Pretz, J. E., & Roy, M. M. (2022). The relationship of types of intuition to thinking styles, beliefs, and cognitions. *Journal of Behavioral Decision Making*, 35(5), e2283. https://doi.org/10.1002/bdm.2283.

- DeNoyelles, A., Hornik, S. R., & Johnson, R. D. (2014). Exploring the dimensions of self-efficacy in virtual world learning: Environment, task, and content. *MERLOT Journal of Online Learning and Teaching,* 10(2), 255–271. https://jolt.merlot.org/vol10no2/denoyelles_0614.pdf.
- El Othman, R., El Othman, R., Hallit, R., Obeid, S., & Hallit, S. (2020). Personality traits, emotional intelligence and decision-making styles in Lebanese universities medical students. *BMC Psychology*, 8, Article 46. https://doi.org/10.1186/s40359-020-00406-4.
- Fan, J. (2016). The role of thinking styles in career decision-making self-efficacy among university students. *Thinking Skills and Creativity*, 20, 63–73. https://doi.org/10.1016/j.tsc.2016.03.001.
- Festinger, L. (1957). *A theory of cognitive dissonance.* Stanford University Press.
- Gökcek, H. A., Çarikçioğlu, P. S., & Yüksel, C. A. (2019). The effect of consumer decision-making styles on cognitive dissonance: The moderating role of perceived risk in online shopping. *Journal of Academic Research in Economics*, 11(1), 118–127. https://avesis.istanbul.edu.tr/yayin/39ea6e47-66ed-4855-ba59-eafd77812e1a/the-effect-of-consumer-decision-making-styles-on-cognitive-dissonance-along-with-the-role-of-the-perceived-risk-as-a-moderator-in-online-shopping.
- Hinojosa, A. S., Gardner, W. L., Walker, H. J., Cogliser, C. C., & Gullifor, D. (2017). A review of cognitive dissonance theory in management research: Opportunities for further development. *Journal of Management*, 43(1), 170–199. https://doi.org/10.1177/0149206314543796
- Joo, Y. J., Lim, K. Y., & Kim, J. (2021). Locus of control, self-efficacy, and task value as predictors of learning outcomes in online university courses. *Computers & Education*, 62, 149–158. https://doi.org/10.1016/j.compedu.2012.10.027.
- Kałuszyńska, E. (2023). Revisiting Sternberg's theory of thinking styles: A meta-analytic review. *Educational Psychology*, 43(7), 954–972. https://doi.org/10.1080/01443410.2023.2185060.
- Karakuș, İ. (2024). University students' cognitive flexibility and critical thinking dispositions: A relational study. *Frontiers in Psychology*, 15, https://doi.org/10.3389/fpsyg.2024.1420272.
- Köpeczi-Bócz, T. (2025). Cognitive-dissonance-based educational methodological innovation for a conceptual change to increase institutional confidence and learning motivation. *Education Sciences*, 15(3), Article 378. https://doi.org/10.3390/educsci15030378.
- Li, M., Peng, H., & Ji, L. (2020). Roles of cognitive load and self-relevance during emotional information searching on decision-making. *Journal of Behavioral Decision Making*, 33(4), 505–517. https://doi.org/10.1002/bdm.2169
- Li, Q., et al. (2025). Growth-oriented thinking and career decision-making self-efficacy among university students. *Frontiers in Psychology,* 16, https://doi.org/10.3389/fpsyg.2025.1599906
- Maddux, J. E. (2016). Self-efficacy. In *Interpersonal and intrapersonal expectancies* (pp. 41–46). Routledge.
- Masi, L. M., et al. (2025). Impact of a mobile career counseling app on career decision-making self-efficacy among university students. *International Journal for Educational and Vocational Guidance*. https://doi.org/10.1007/s44202-025-00468-8.
- Matz, D. C., & Wood, W. (2005). Cognitive dissonance in groups: The consequences of disagreement. *Journal of Personality and Social Psychology*, 88(1), 22–37. https://doi.org/10.1037/0022-3514.88.1.22.
- Morvan, C., & O'Connor, A. J. (2017). *A theory of cognitive dissonance*. Macat International. https://doi.org/10.4324/9781912282432
- Panadero, E., Jonsson, A., & Botella, J. (2017). Effects of self-assessment on self-regulated learning and self-efficacy: Four meta-analyses. *Educational Research Review,* 22, 74–98. https://doi.org/10.1016/j.edurev.2017.08.004
- Pandey, A. C., & Jamwal, M. (2016). Realizing the impact of cognitive dissonance in predicting consumer behaviour. *Journal of Social Sciences*, 12(1), 36–41. https://doi.org/10.3844/jssp.2016.36.41
- Phillips, W. J., Fletcher, J. M., Marks, A. D. G., & Hine, D. W. (2016). Thinking styles and decision making: A meta-analysis. *Psychological Bulletin*, 142(3), 260–290. https://doi.org/10.1037/bul0000027.
- Schunk, D. H., & DiBenedetto, M. K. (2020). Motivation and social cognitive theory. *Contemporary Educational Psychology*, 60, 101832. https://doi.org/10.1016/j.cedpsych.2019.101832.

- Shen, D., Cho, M. H., Tsai, C. L., & Marra, R. (2021). Unpacking online learning experiences: Online learning self-efficacy and learning satisfaction. *Internet and Higher Education*, 49, Article 100789. https://doi.org/10.1016/j.iheduc.2013.04.001
- Sofyan, H., et al. (2022). Students' career decision-making during online learning: The mediating role of self-efficacy in vocational education. *European Journal of Educational Research*, 11(4), 2211–2225. https://doi.org/10.12973/eu-jer.11.3.1669
- Sternberg, R. J. (1988). Mental self-government: *A theory of intellectual styles and their development*. Yale University Press. University Press.
- Sternberg, R. J. (1997). *Thinking styles*. Cambridge University Press.
- Sternberg, R. J., & Zhang, L. F. (2014). *Perspectives on thinking, learning, and cognitive styles*. Routledge.
- Stone, J., & Taylor, J. J. (2021). Dissonance and attitude change. In F. C. Worrell (Ed.), Oxford Research *Encyclopedia of Psychology*. Oxford University Press. https://doi.org/10.1093/acrefore/9780190236557.013.296.
- Toprak, E., Yavuz, E. Academic Motivation, Fear of Negative Evaluation, Self-Efficacy, and Self-Regulated Learning: Role of Affective Mechanisms in the Learning Process. *BMC Psychol* 14, 671 (2026). https://doi.org/10.1186/s40359-026-04602-6.
- Woreta, G. T., Zewude, G. T., & Józsa, K. (2025). The mediating role of self-efficacy and outcome expectations in the relationship between peer context and academic engagement: A social cognitive theory perspective. *Behavioral Sciences*, 15(5), 681. https://doi.org/10.3390/bs15050681.
- Xi, W., Baymuminova, N., Zhang, Y.-W., & Xu, S.-N. (2022). Cognitive Dissonance and Public Compliance, and Their Impact on Business Performance in Hotel Industry. *Sustainability*, 14(22), 14907. https://doi.org/10.3390/su142214907.
- Yang, Y. Y., & Delgado, M. R. (2025). The integration of self-efficacy and response-efficacy in decision making. *Scientific Reports*, 15, Article 1789. https://doi.org/10.1038/s41598-025-85577-z.
- Zhang, L. F. (2002). Thinking styles and cognitive development. *The Journal of Genetic Psychology*, 163(2), 179-195.
- Zhang, L. F., & Sternberg, R. J. (2019). *The nature of intellectual styles*. Springer.
- Zhou, G., Sun, C., Knoll, N., Hamilton, K., & Schwarzer, R. (2015). Self-efficacy, planning, and action control in an oral self-care intervention. *Health Education Research,* 30(4), 671–681. https://doi.org/10.1093/her/cyv032.
- Zimmerman, B. J., & Schunk, D. H. (2021). *Self-regulated learning and academic achievement: Theoretical perspectives* (3rd ed.). Springer.

جامعة القدس
Al-Quds University

Al-Quds Journal for Academic Research

Humanities and Social Sciences

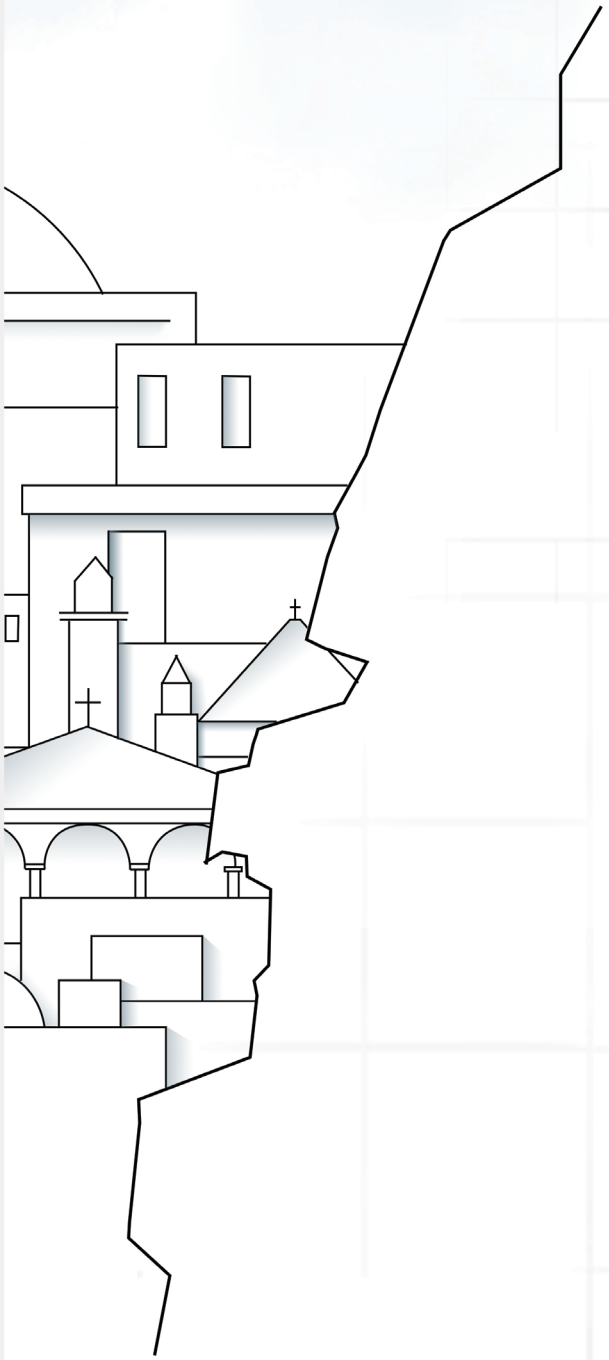

A peer-reviewed scientific journal published by Al-Quds University, the Arab University in Jerusalem, Palestine

Volume 2, Issue 1, June 2026

Address
Inquiries and questions could be addressed to the Deanship of Scientific Research, Al-Quds University, P.O.Box 20002, Main Campus, Abu Dis, Jerusalem, Palestine
Tel: +972-2-2791293
Fax: +972-2-2791293
Email: research@admin.alquds.edu

Imprint
Al-Quds Journal for Academic Research is published by Al-Quds University, the Arab university in Jerusalem, Palestine.
The Journal is open access and available at the following website:
https://aquja.alquds.edu/index.php/arts
Journal email: aqujor@alquds.edu

Al-Quds Journal for Academic Research
A peer reviewed journal that seeks to publish original research in various fields of social sciences and humanities, including arts and media, economics and education in order to keep Palestinian community with up-to-date research conducted by Palestinian academics and researchers worldwide